العلاقات الزوجية

فى الإسلام والمسيحية واليهودية

الأسرة - الزواج - الطلاق - العلاقات الجنسية
زواج الفرند والعرفى والمسيار

كبسولات لتقوية العلاقات الزوجية

فوزى شعبان

دار الكتاب العربي
دمشق - القاهرة

مركز المرأة للدراسات والاستشارات
ت : ٢٤٤٦٠٢٢
ت.ف: ٢٤٤٦٠٣٣
ترخيص رقم :(٧١)

العلاقات الزوجية

في الإسلام والمسيحية واليهودية



اسم الكتاب: العلاقات الزوجية فى الإسلام والمسيحية واليهودية

اسم المؤلف: منصور عبد الحكيم

المراجعة اللغوية والتدقيق: طه عبد الرؤوف سعد

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢١٠٦٠/ ٢٠٠٥

الترقيم الدولى: I.S.B.N. 977-376-137-1

طباعة داخلية: دار الصفوة للطباعة ت: ٣٢١٤٥١٥

التنفيذ الفنى: أحمد وليد ناصيف

الإشراف الفنى: محمد وليد ناصيف

الإشراف العام: أ. أسعد بكرى كوسا

تطلب كافة منشوراتنا:

حلب: دار الكتاب العربى - الجميلية أمام مسرح نقابة الفنانين - ت: ٢٢٥٦٨٦٠

دمشق: مكتبة رياض العلبى - خلف البريد - ت: ٢٢٣٦٧٢٨

مكتبة النورى - أمام البريد ت: ٢٢١٠٣١٤

مكتبة عالم المعرفة - جسر فيكتوريا - ت: ٢٢٢٨٢٢٢

حقوق الطبع محفوظة

تحذير:
جميع الحقوق محفوظة لدار الكتاب العربى للنشر وغير مسموح بإعادة نشر أو إنتاج الكتاب أو أى جزء منه أو تخزينه على أجهزة استرجاع أو استرداد اليكترونية أو نقله بأى وسيلة أخرى أو تصويره أو تسجيله على أى نحو بدون أخذ موافقة كتابية مسبقة من الناشر.

الطبعة الأولى
٢٠٠٦

دار الكتاب العربى
دمشق - القاهرة

URL: http://www.daralkitab.net

سوريا - دمشق - الحجاز - شارع مسلم البارودى هاتف: ٢٢٣٥٤٠١ ص.ب ٣٤٨٢٥ فاكس: ٢٢٤٧٢٩٧
مصر - القاهرة - ٥٢ شارع عبد الخالق ثروت - شقة ١١ تلفاكس: ٣٩١٦١٢٢
لبنان - تلفاكس: ٤٣٤١٨٦/ ٠٥ - تليفون: ٠٣/٦٥٢٢٤١ - ص.ب.٣٠٤٣ الشويفات
E-mail:darkitab2003@yahoo.com

٢٥٤,١
شرف ع

العلاقات الزوجية

فى الإسلام والمسيحية واليهودية

الأسرة - الزواج - الطلاق - العلاقات الجنسية
كبسولات لتقوية العلاقات الزوجية

فوزى شعبان

الناشر
دار الكتاب العربي
دمشق - القاهرة

إهــــداء

إلى أسرتى الصغيرة

زوجتى..

وابنى رامى.

لماذا هذا الكتاب

استقرار الإنسان فى حياته، وتقدمه نحو الأفضل، يبدأ من البيت. من خلال علاقته بزوجته، ثم علاقته بأولاده وأسرته وعائلته الكبيرة ثم المجتمع كله.

فالعلاقات الزوجية الصحيحة والسليمة، هى التى تدفع الإنسان دفعا. نحو تحقيق المزيد من التقدم، وتنعكس على كل تصرفاته وآماله وطموحاته. مما ينعكس بدوره على المجتمع كله.

العلاقة السوية السليمة، تفرز إنساناً صحيحاً سليماً، والعلاقة الخاطئة تفرز إنسانا غير سوى، عدوانى، يهدم أكثر مما يبنى.

ومن هنا كانت أهمية هذا الكتاب لتوضيح العلاقات الزوجية الصحيحة فى الأديان السماوية، من خلال المتغيرات الحديثة والتى طرأت على المجتمع وعلى الحياة المصرية والعربية، فى الآونة الأخيرة. نتيجة للتقارب مع الغرب، وتأثرنا بعاداته وتقاليده ومبتكراته (وتقاليعه) والتى قد لا تتمشى مع حياتنا وديننا وموروثاتنا الثقافية والأخلاقية.

وقد حاولت جهدى أن تكون مادة هذا الكتاب (طازجة) بنت اليوم، ومن واقع أحداثه، وما يجرى به.

وسوف يرى القارئ أننى أسوق فيه أمثلة، وحكايات، وآراء، أخذتها من الصحافة اليومية، وحرصت على جمعها لتكون صورة صادقة حية لما يدور فى المجتمع المصرى خاصة، والمجتمع العربى والإسلامى بصفة عامة.

فالصحافة اليومية، مرآة صادقة لواقع الحال المصرى والعربى.

وقد ركزت فى هذا الكتاب، على ما ظهر على الساحة هذه الأيام من أنواع متباينة من الزواج، كزواج (الفرند) وزواج (المسيار) والزواج العرفى، وغيرها من أنماط الزواج لدى شباب اليوم، والتى أثرت على الحالة الاجتماعية والزواج. ولم يتحرك أحد لإنقاذهم، فتحركوا هم لإنقاذ أنفسهم، ووضعوا المجتمع أمام أنماط جديدة للزواج، وأصبحت واقعاً ملموساً لابد لنا أن نعترف بوجوده وأن نعمل جاهدين على دمجه فى المجتمع، وتأطيره داخل المبادئ والقواعد الدينية السليمة.

فلم يعد من المقبول أو المعقول رفض أنماط هذا النوع من الزواج، بعد أن تبين من الدراسات والأبحاث أن ٢٥٪ من شباب الجامعة يتزوجون عرفيا طبقا لدراسة وزارة الشئون الاجتماعية، وأن هناك تسعة ملايين بنت مصرية يواجهن العنوسة. وهو خطر لو تعلمون عظيم، وقنابل موقوتة يمكن أن تنفجر داخل المجتمع فى أى لحظة. لتطيح بكل قيمه، ومبادئه، وجذوره. كما أن هناك آلافا من المسيحيات وقعن فى أسر عدم إباحة الطلاق.

إنها دعوة لرجال الدين الإسلامى والمسيحى فى مصر لمواجهة الأزمة مباشرة، والعمل على حلها فى شجاعة وحكمة، قبل أن يفلت زمام الأمور من أيدينا، ونندم حيث لا ينفع الندم.

وقد سقت فى هذا الكتاب مجموعة من الرسائل التى وصلتنى بصفتى المشرف على صفحة (إلى المحرر) فى جريدة الأخبار المصرية منذ سنة ١٩٨٥، تتعلق كلها بمشاكل الزواج بين الشباب، وانتشار الزواج العرفى، وزواج (البوى فرند) بين الشباب، وسقت مثلا واحدا فقط من قارئة مسيحية متزوجة، وفشل حياتها الزوجية واستحالتها، ورفض الكنيسة الطلاق بينها وبين زوجها، مما دفعها إلى التصرف بطريقة مخالفة.

ورغم أن عندى رسائل مشابهة من أزواج مسيحيين إلا أننى آثرت أن أسوق مثالا واحداً فقط، حتى لا يؤول الأمر إلى غير مقصده، والهدف منه، وهو البحث عن حلول ترضى الشباب المسلم والشباب المسيحى أيضا من خلال الدين، وحتى لا تخرج الأمور عن مسارها الصحيح، وتفلت من بين أيدينا.

وقد عرفت بحكم عملى الصحفى كثيراً من رجال الدين المسيحى، الذين يؤيدون إطلاق حرية الطلاق بين الزوجين تحت إشراف الكنيسة، وكما هو حادث فى دول الغرب المسيحية.

كما نشرت مقالات فى الصحف المصرية من مفكرين قبط يؤيدون ذلك أيضا.

وهو أمر لا أستطيع أن أدلى فيه برأى، فهو أمر متروك للكنيسة المصرية العظيمة، وكما يقول المثل العربى (أهل مكة أدرى بشعابها)، وإنما أردت فقط أن نواجه مشكلة شباب مصر مسلمين وأقباط من واقع الحال، وتطورات الحياة، وأن عباءة الدين تتسع لكل أمور الدنيا، ومشاكل المؤمنين، وبها من الحلول التى ترضى كافة الجهات.

أما أن نترك الموقف، ونلتزم بأفكار وآراء عفى عليها الزمن، ومضت مئات السنين منذ حدوثها، وقد فرضت، أو اقترحت، أو ضربت لتلائم عصرها ومشاكله، وحياة الناس البسيطة وغير المعقدة فى هذه الأيام، حيث كل الناس يعرفون بعضهم بعضاً، ومتقاربون، وكانت تضمهم قرية واحدة، وأماكن محددة.

وأما اليوم فمدينة مثل القاهرة والتى تضم بين جنباتها ١٨ مليون مصرى يوميا، مما يشكل صعوبة لمعرفة أى إنسان، وتاريخه، وما إذا كان يصلح للزواج أم لا، وما إذا كان على خلق قويم أم لا، أو مصاباً بأمراض خفية لا يعرفها أحد، ولا تريد - أسرته فى واقع الأمر التحدث بها والإعلان عنها، خوفا من هروب العريس أو العروسة، ويظل الأمر خفياً حتى إتمام الزواج، بعدها يصبح الطلاق مسألة مستحيلة، الموت والهروب والهجرة أقرب من تحقيقه وأسهل.

إنها دعوة صريحة لرجال الدين الإسلامى والمسيحى على السواء، أن يواجهوا مشاكل شباب هذه الأيام، بقلب وعقل متفتح، يساير تطورات العصر، ومحدثاته، وأن يعملوا على حلها من خلال الدين.

ويكفى مثلا أن المرأة المسلمة حرمت من حق (خلع زوجها) وتركه لمدة تزيد عن ١٤٢٠ سنة، وهو الوقت الذى أباح فيه رسول الله محمد ﷺ لزوجة مسلمة أن تخلع زوجها عنها وتنفصل منه بالطلاق لاستحالة العشرة بينهما. ولم يأخذ الشرع ورجال الدين الإسلامى به إلا هذه الأيام. رغم أنه كان ظاهرا واضحاً لكل رجال الدين ورجال الحديث والعلماء، وأشارت إليه كتب الحديث من سنوات طويلة.

فهل كان تركه أمرا متعمدا. أم هو قصور وإهمال منهم، رغم أن هذا المبدأ عظيم ويعطى المرأة المسلمة حقا لم تحصل عليه غيرها فى الديانات الأخرى إلا منذ سنوات قليلة فقط فى الغرب المسيحى.

وهو يقيم العلاقات الزوجية والأسرية، على أسس سليمة، من الحب والود والتفاهم الذى ينادى به الدين الإسلامى الحنيف. وأعطى المرأة حرية البقاء واستمرار الحياة مع زوجها بالرضا والقبول، أو تركه والانفصال عنه - إن رأت ذلك - بشرط أن تعيد إليه ما حصلت عليه منه. وهذا منتهى العدل.

أرجو الا تكون صيحة فى البرية - كما قال نبى الله يحيى - فأرجو أن تصل إلى مسامع وقلوب وعقول رجال الدين الإسلامى والمسيحى معا، لإيجاد حلول ترضى شباب هذه الأيام، من خلال تعاليم الدين، ومبادئه، وأسسه.

وحتى لا يخرج الشباب - غاضباً - من هذه الشرنقة التى نلفها حول حياته، ونسجنه داخلها، وينطلق إلى حيث لا نريد ولا نتمنى.

وحذار حذار من ثورة الشباب، لأنها تحطم كل شىء، وتجرف أمامها اليابس والأخضر، وتقتلع الجذور العميقة الضاربة فى الأرض من مئات السنين، دون هوادة، أو رحمة، أو شفقة، وتفرض ما تريد على من لا يريد.

فاتقوا هذا اليوم.

فوزى شعبان

أول مارس سنة ٢٠٠٤ ميلادية

أولا ــ الأسرة
فى الأديان السماوية

تكويـن الأسـرة

ستظل العلاقة بين الرجل والمرأة، سرّاً من أسرار الحياة، والتى أودعها الله فيهما من أجل إعمار هذا الكون، والشعور بنعمة الله على خلقه.

وقد احتار فيها الفلاسفة والأدباء والمفكرون وحتى رجال الدين. وكل منهم أرجعها إلى ما يرى. أى أن المسألة مجرد رأى. يختلف من رجل الدين إلى الفيلسوف إلى الأديب، ومن الزاهد الورع إلى الفاسق الفاجر، ومن الشاعر وإحساساته المرهفة، وكلماته الناعمة الساحرة المبدعة، إلى المتبلد، فاقد الشعور، منعدم الإحساس.

كل واحد منهم رآها من زاوية معينة. ولهذا اختلفت الأحاسيس والأفكار، تبعاً لاختلاف درجة الرؤية، ومكانها، وزمانها.

وسر هذه العلاقة. يكمن داخل المرأة، وينبعث من أعماقها، فيصيب من حولها، ويستسلم لها ولأنوثتها.

ويعتقد الرجل أو الزوج، أنه صياد ماهر، أوقع فى شباكه «بلطية»، وأن مهارته فى الصيد، هى التى أوقعتها وتمكنت منها، واستحوز عليها من دون الرجال، ومئات الصيادين الآخرين.

فى حين أن العكس هو الصحيح. هى التى ألقت إليه بسهامها وأطلقتها رموش عينيها، فأصابت الهدف فى مقتل. فإذ لم تنفع هذه السهام، أخرجت من كنانتها سهاماً أخرى متنوعة ومختلفة الطول والحجم

والمسافات. فهناك سهام من ضحكة حلوة، أو ابتسامة إغراء خبيثة، أو ابتسامة تقدمها له وكأنها تقدم بطاقة تعارف، وكل واحد وحسب قدرته ومكانته وقوته وشطارته.

فالمرأة تملك قدرة خارقة، لتقييم الرجل الذى عليه العين والنية، فى ثوان معدودات تستطيع أن تعرف كل خباياه ونواياه، وما إذا كان جادا فى كلامه، ويريد أن يدخل البيوت من أبوابها، أم أنه غاوى صيد، وأسماء جديدة، وأرقام تليفونات ثم تسلية وتمضية وقت فراغ.. وبس!!

وأى بنت تملك هذه المقدرة الطبيعية الأنثوية والتى ركبها الله فيها منذ خلقها.. حتى ولو كانت فى (اللّفة) كما يقولون فى الأمثال المصرية.

وأما الفتى فيستغرق منه ذلك سنوات طويلة، لأنه فى حاجة إلى التجربة والخبرة. وهما ليسا عنده، لأن التى تقدمها له هى البنت أو المرأة.

والمرأة تنضج بدرى عن الرجل ـ وخاصة فى بلادنا ومن حولنا فى المناطق الحارة ـ ومن ثم فهى تكتسب تجربتها بدرى بدرى عن الولد. وربما لهذا السبب يكون هناك دائما فرق فى السن بين الزوج والزوجة، بحيث يكون الزوج عادة أكبر من البنت بعشر سنوات وربما أكثر.

ولهذا نجد فئة من البنات تفضل كبار السن لأنهم أصحاب تجارب وخبرة طويلة.

وعلى العكس من ذلك نجد أن هناك تقاربا أو تماثلا فى السن بين الفتى والفتاة فى أوربا. لأن التجارب هناك مفتوحة أمام الطرفين، وعادة ما يبدأنها فى سن مبكرة، دون رقيب أو حسيب من أحد.

والمرأة تستطيع أن تسيطر على أى رجل، وتأسره وتقوده إلى المأذون (والكوشة) الزواج والفرح، ولكن الرجل لا يستطيع أن يفعل ذلك.

وقال أحد الحكماء: كل أسير يُفك إلا أسير النساء فإنه غير مفكوك،

وكل مالك يملك إلا مالك النساء فإنه مملوك. وما استرعين شيئا قط، إلا وضاع، ولا استؤمنَّ على سر، إلا ذاع، ولا أطقن شرا، فقصرن عنه، ولا حوين خيرا، فأبقين منه.

وغريزة المرأة واحدة. سواء فى القرية أو البندر، أو فى المركز أو المدينة، أو فى مدينة باريس أو أعماق غابات أفريقيا أو مجاهل صحراء آسيا.

غريزة الأنثى واحدة. كالردار تلتقط كل الإشارات، وما تبثه الموجات من كلمات حلوة معسولة من الرجال. ويستطيع أن يصفيها، ليفرز العسل منها ويترك ما دونه. فإن أعجبها نوعية العسل دعته، ثم تزوجته.

والزوجة أو المرأة شديدة الذكاء، تثير إعجاب الرجل قليلا، لكنها تخيفه كثيرا فالرجل أو الزوج لا يريد أن يعرف أنها قد ضحكت عليه و(جرجرته) إلى المأذون وعش الزوجية، وإنما يريد أن يؤكد لنفسه أنه هو الذى فعل ذلك، وأنه ذهب إلى المأذون باختياره ورضاه وليس (مجرجراً) من قفاه.

والمرأة الذكية هى التى تستطيع إقناع الرجل الذى تريد أن تتزوجه بذلك. تقنعه بأنه صياد ماهر ليس على الشط صياد آخر مثله فى مهارته وشطارته.

والزوج العبقرى، خطر على الزوجة، اللهم إلا إذا صبرت على جنونه وعبقريته. فالأديب الإنجليزى (برناردشو) عندما تزوج فى الأربعين واشترط على زوجته ألا يكون بينهما علاقة جنسية، وعاشت معه زوجته فى حالة (زواج روحى). وعالم النفس الشهير (هافلوك إليس) اتفق مع زوجته أن يعيش كل منهما فى بيت منفصل، وألا يلتقيا إلا شهرين فى السنة.

واستطاع هو أن يتحمل هذه الحياة، أما الزوجة فقد انهارت أعصابها، وانتهى بها الأمر إلى مستشفى الأمراض النفسية.. ثم ماتت.

والفيلسوف الإغريقى العظيم سقراط، عذبته زوجته، حتى أفرز لنا هذه الفلسفة العظيمة.

وأما الأديب الروسى الكبير تولستوى فقد عاش مأساة كبيرة وعميقة مع زوجته (صوفيا أندريفيا). وأنجبا خلال خمسين سنة ثلاثة عشر ولدا وبنتا.

وكان تولستوى عظيم الثراء، يملك مساحات كبيرة من الأرض، وأخذ يوزعها على الفقراء والمعدمين، ولم يعجب الأمر زوجته، فاستعادت ما وزع منها، وعاملته معاملة قاسية، انتهت بموته وحيداً على كرسى فى محطة قطار.

ولم يرحم أحد - حتى اليوم - زوجة تولستوى، حتى أولادها غضبوا منها، وأصدرت صغرى بناتها كتاباً تتهم فيه أمها بأنها كانت سبب مأساة أبيها.

والمرأة أو الزوجة لها سبعة أرواح، كالقطط، إن فقدت واحدة، ظهرت الأخرى. وإن قبض زوجها على روح منها بقيت لها ستة أرواح.. تكفى للقضاء عليه وتقطيعه وتمزيقه، ووضعه فى أكياس البلاستيك، ثم فى صفيحة القمامة.

وأظهرت أوراق البردى فى الحضارة المصرية القديمة أن الفراعنة الرجال احتاروا أيضاً فى أمر المرأة، وسرها. ووصفوها بأنها لغز، وأنها سر، وأنها لعنة. وهى الجنس الآخر، وهى الجنس الضعيف، وأنها الجنس العنيف، وأنها الجنس الضائع، وأنها رمز للجنس كله.

والنصائح التى تقولها الأمهات للزوجات من أيام الفراعنة والصينيين تؤكد أن نظرة القدماء للزواج مخيفة. وأنه لا شىء أقسى أو أصعب من علاقة رجل بامرأة.

والأديب أنيس منصور يقول إنه من الضرورى أن يعرف الرجل ماذا يحدث للمرأة. ويقول إن هذا عيب فى تربية الرجل وفى تربية المرأة أيضاً. فالمجتمع يعد المواطن لكل وظيفة يقوم بها إلا وظيفة الزوج. فلا يزال المجتمع رغم الحريات الكثيرة التى يستمتع بها، لا يعد المواطنين لفهم مبادئ الحياة الزوجية، أى مبادئ الحياة معاً، ولفترة طويلة.

بعد ذلك هو الطبيب وهو المريض وهو الداء وهو الدواء..

والمرأة هى الضحية.

ولكن إذا عرفت المرأة بوضوح حقيقة هذه المشكلة المعقدة، فستجد أنها بريئة، وأن الرجل ظالم. أما الجريمة نفسها فهى مشتركة بين الرجل والمرأة.

فلا أحد برئ ولا أحد مجرم. وإنما الحياة جريمة يقتسمها الرجل والمرأة بمنتهى البراءة.

وهناك قصة شعبية فى الأدب السنسكريتى تقول: إن الله بعد أن فرغ من خلق الأرض والسماء، والطيور والحشرات والأشجار، وبعد أن فرغ من خلق الرجل. جمع بقايا كل شئ، وخلق منها المرأة. خلق وجهها من إستدارة القمر، وروحها من إرتعاشة الهواء. وبشرتها من نعومة الأفعى. وعواطفها من التهاب النار. وخوفها من فزع القطة، وجرأتها من شراسة النمره واخلاصها من وفاء الكلب. وكلامها من عسل النحل. وغيرتها من ابر النحل. وبعد ذلك أعطاها الرجل.

ولم يمضى سوى أسبوع واحد حتى عاد الرجل يرد هذه الهدية الى الله وهو يبكى قائلاً: أنت أعطيتنى هذه فخذها. فهى لاتكف عن الكلام، ولاتسكت عن البكاء، ولا تعمل أى شئ، وهى تريدنى أن أداعبها ليل نهار..

خذها يارب.

وأخذها الرب غاضباً، وبعد أسبوع عاد الرجل، وهو يقول: أريدها يارب. فقد كانت تغنى وترقص، وكانت تغمز لى بعينيها بعد الغروب. وأنا أشكو الوحدة.

وأعادها الله إليه.

وبعد ثلاثة أيام قادها الرجل إلى الله وهو يقول: تعبت معها يارب، وتعبت حتى لم أعد قادرا على الشكوى منها.

خذها يارب... خذها.

وهنا ـ كما تقول الأسطورة القديمة ـ غضب الله على الرجل وقال:

فمن يستطيع أن يخرج من لباسه إلا الإنسان غير الطبيعى.

والكاتب الساخر أحمد رجب كتب يقول عن الزواج[1]: تعيب علىّ بعضهن أننى أسخر من الزواج. وليس صحيحاً أننى أضحك أو أسخر من الزواج. المسألة أننى اعتدت أن أبتسم أمام الكوارث.

فللزواج سبع فوائد، وأهم ميزاته الاستقرار. وهو يوصف بهذه الصفة بالذات لأسباب كثيرة:

أولاً: أن كلا الطرفين يستقر نفسياً بعد اختيار شريك حياته بشكل نهائى. ويبدأ كلاهما مرحلة التفكير بهدوء ليحصى أخطاء هذا الاختيار.

ثانياً: أن كلا الطرفين يستقر على رأى لا بديل له، وهو أن يؤهل نفسه لمعاشرة إنسان من الصعب التكيف معه بسهولة، بعد اكتشاف حقائق جديدة كانت خافية أيام الغرام والتنهيدات.

ثالثاً: لأن كلا منهما يستقر على ترويض نفسه للتعايش مع الآخر راضياً بتقديم التنازلات. وغالباً ما يلتقيان فى كل النقاط. وقد لا يلتقيان إلا فى نقطة واحدة هى (نقطة الشرطة).

رابعاً: الفعل (قر) تعتبر مشتقاته قوية الصلة بالزواج، ومنها استقر الرجل استقراراً، أى انتهى به المطاف لاهثاً فى مقر الزوجية، بعد أن ظل يطاردها حتى أوقعت به.

وزمان كانت صورة زفاف جدى تظهر فيها جدتى واقفة والعريس جدى جالساً، تعبيراً عن أنه (سى السيد)الذى تقف له هى احتراماً فى حضوره، وقد تغير هذا المفهوم تماماً، فأصبحت صورة الزفاف تمثلهما وهما جالسان معاً فى الكوشة، تعبيراً عن أنه جلس ليستريح بعد الجرى وراءها. بينما هى جالسة تستجمع أنفاسها لتجرى وراءه فى البيت.

(١) مجلة الشباب عدد فبراير ٢٠٠٤ ميلادية.

خامساً: الفعل (قر) كما جاء فى قاموس مختار الصحاح. اشتق منه أيضاً قرقر، وقرقرة، والقرقرة تحدث عندما يواجه الزوج موقفا عسيراً أمام الزوجة. فالقرقرة - لغة - هى صوت كركبة البطن عند حدوث الخوف.

سادساً: ومن الفعل (قر) يقال فى شهر العسل: فلان قر عينا بعروسه، وفلانة قرت عينا بعريسها، فكل منهما قرير العين، أى بارد العين. لأن العرب كانوا يقولون إن للحزن دمعة حارة، وللسعادة دمعة باردة.

أما بعد أيام العسل فلا يقال إن كلا منهما قر عينا بالآخر، بل يقال طلعت عينه من الآخر.

وأما الشاعر عبد الرحمن الأبنودى فيقول(١): ظللت معظم سنوات الطفولة أتعجب من هذا الدعاء الذى لا أفهمه. فى كل مناسبة زواج تدخل المرأة الجارة أو القريبة فى يدها رموز للمجاملة: حناء، سكر، شاى، صابون.

وتطلق زغرودتها فى وجه العروس على أضواء اللمبات الخافتة المدخنة. وتعقب الزغرودة بالدعاء الخالد: (بالعمارة، والتمارة، وجيزة النصارى).

يا رب ماذا يقلن؟ وقد ربيت على حجورهن، ولغتى لغتهن، ولا أعلم ولا أفهم ماذا يقلن رغم تكرار الدعاء أمام أذنى عشرات المرات.

(بالعمارة والتمارة وجيزة النصارى).

كيف اكتسبت سجعها وموسيقاها التى ينطق بها الكلمات؟.. ولماذا هذا الدفء الذى يعلن به شعارهن الخالد؟.. وأخيراً لماذا أسمعه من النساء فقط، ولم يحدث أن سمعته من رجل واحد.

يوما ما سألت (فاطمة قنديل) عن ماهية هذه العبارة، ومعنى كلمة التمارة، وما دخل كلمة النصارى فى كل هذا التغريب.

تعجبت الأم التى كانت تعتبرنى ذكياً، وسألت كيف لم أفهم الكلمات

(١) جريدة الأهرام الجمعة ٦ فبراير سنة ٢٠٠٤ ميلادية.

البسطية؟.. (كيف يا ولدى مش خابر العمارة والتمارة وجيزة النصارى).

بالفعل، كانت أول كلمات تخرج من شفة (فاطمة قنديل) منذ أن ولدت، ولا أفهمها. وهكذا بدأت تشرح:

يا ولدى طبعاً ده جواز، واللى يجوز بنته يبقى خايف، واللى زينا لازم يطمنه، علشان كدة بنقول لهم الكلمات دول عشان يطمنوا، وفى نفس الوقت ده دعاء علشان ربنا يوفقهم، ويثبت قلوبهم على الود، والعشرة، والجوازة تدوم.

أقول لها: كل ده جميل، إيه بقى العمارة والتمارة والحمارة والنجارة، وكل اللى إنتو بتقولوه ده.

تجيب فاطمة قنديل (أمى) اسمع يابو لسان طويل. دلوك الجوازة الواحدة مننا تدعى فيها بإيه؟ بأنها تعيش وتدوم، والناس تخلف عيال، والراجل ومرته يحبوا بعض، ويعيشوا على الحلوة والمرة لحد ما يفتكرهم الحى الذى لا ينام.. مش كده ولا غير كده؟

أجيبها فى انتظار الإجابة: «كده».

تقول: نمسكهم واحدة واحدة بالترتيب.. (العمارة) يعنى عليهم وعلى الله عمار الديارة.. يعنى يعيشوا ويعمروا البيت، يعمروه بإيه؟.. طبعاً بالخلفة الصالحة، لأن الخلفة وحس العيال فى البيت، هية اللى تعمر الدار. البيت اللى من غير خلفة فقرى وزى القبر. ساكت. لا ضحكة، ولا تبكوه، ولا يامه، ولا يابا. آدى (العمارة).

أسألها: (طب والتمارة) تقول:

«التمارة» يعنى الواحدة اللى خدها جوزها عشان يعولها ويأكلها، ويشربها، يتمر فيها المعروف.. أهل بحرى يكتبونها بالطاء، فيمحون ما بها من دلالة.

والكلمة أصلها الفصيح (يثمر) أى أن المرأة التى تشبه الأرض.. إذا

كانت صالحة للزراعة، فإن المعروف الذى يزرعه رجلها فيها يثمر معروفاً، وحبّاً، وحناناً. تقاسمه الحزن، كما تقاسمه الفرح، وتمرض لمرضه، وتشقى لشقائه «ساعتها يكون المرة تمر فيها العيش».. والمعروف إتقابل بالمعروف.. آهى دى يا ولدى (التمارة)!!!

أسألها: «وجيزة النصارى».. وإيه اللى دخل النصارى فى الحكاية.. واللا هية عشان السجع.. تمارة وعمارة ونصارى.. وكده يعنى؟..

تغضب من السخرية المختبئة وتقول: آهى اللى إنت بتضحك عليها دى أهم حاجة فى الثلاثة.

أستمر فى استفزازها: «كيف يعنى؟»..

فتقول: إنها دعاء لله علشان ما يكسرش المحبة وتدوم الجوازة. دعا بعدم الطلاق. لأن (النصارى) يا ولدى ما بيتطلقوش.. اللى خدها هى اللى خدها، هية اللى حتتشعلق فى رقبته طيلة العمر. زعلوا مع بعض، إتقندلوا، راحوا جم، آخرتها لبعض. عشان ما عندهمش طلاق.

فإحنا بنتمنى للواد والبنت اللى حيتجوزوا إن جوازهم يبقى (جيزة النصارى).. يعنى جواز دايم على طول، ما يتكسرش، ولا فيش حاجة تعطله.

مادام (عمرت) الدار وخلفت عيال، ومادام (تمر) فيها المعروف، وبقت تخاف على حاجة جوزها، وماله، وعياله، لازم الجوازة حتدوم زى جوازات النصارى. عشان كده ما فيش غيرها فى (حنكنا) لما بندخل على أى فرح.. على طول بنهلل:

بالعمارة والتمارة وجيزة النصارى.

فهمت؟!!.. وفهم عبد الرحمن الأبنودى أخيراً؟!

وهذه الأمثال الشعبية المصرية، أو الحكايات الشعبية فى الأدب السنسكريتى تهدف إلى تأكيد أن العلاقة بين الرجل والمرأة، هى علاقة

قائمة، ودائمة، ولن تنتهى إلا مع نهاية الحياة ذاتها، أو مع توقف المطاردة أمام المأذون كى يعقد قرانهما، ويدخلا عش الزوجية، كى تبدأ عملية مطاردة من نوع جديد.

وتبدأ أولى خلايا تكوين المجتمع. والذى تشكل فيه الأسرة، أول لبنة فى بنائه.

والشىء الطريف أن العالمة البريطانية الدكتورة (برايان سايكس) أكدت فى كتاب جديد لها اسمه (لعنة آدم) أن جنس الرجال سوف ينقرض من على وجه الأرض، وأن الدراسة التى أجرتها لسنوات طويلة (للكروموزوم) المسئول عن الجنس الذكورى (Y) يتعرض للتآكل على مر السنين.. وهذا يعنى انتهاء الرجال من على الأرض بعد سنوات.. ولكنها.. والحمد لله.. لم تؤكد لنا أنها سنوات قصيرة.. وإنما تركت الأمر مفتوحاً لسنوات قادمة لا يعلم سوى الله عز وجل عددها.

ولا أعتقد أن عالمة الوراثة الشهيرة الدكتورة (بريان سايكس) سعيدة بما وصلت إليه من تجارب علمية لأن المرأة سوف تظل وحيدة فى عالم بلا رجال!!

ولا كل النساء سعداء بما وصلت إليه، فلمن سوف يلبسن أو يخلعن الملابس، ولمن سيضعن المكياج، ويتجملن، ويعملن الرجيم لكى تبدو المرأة كغصن بان، وتحرم نفسها من كل ملذات الحياة لكى ينظر إليها الرجل بنظرة رضاء واشتهاء وقبول.

فإذا خلا العالم من الرجال، وأصبح للنساء فقط، لأصبحت كل النساء بدينات كأشجار الجميز، منكوشات الشعر، حافيات، مترهلات، قذرات فلماذا الاستحمام؟ وسرن فى الشوارع والطرقات هائمات، دون هدف، ودون رجل ينكدن عليه عيشته، أو يخربن بيته، أو يلبسن ويتجملن من أجل كلمة حلوة، وابتسامة رضا، ولحظة صفاء.

ومن المؤكد أن عالم النساء سوف يحمل فى ذاته بذور نهايته، فإن لم

توجد الرجال، انتحرن جميعاً، لأن الحياة لم يعد لها طعم ولا لون، ولا فيها رجل تحبه ويحبها، وتتكد عليه عيشته ثم تسارع إلى مصالحته، ومخاطبة وده، وكسب رضاه.

وقد أثبت الكشف العلمى الحديث لخريطة جينات الإنسان أنه يمكن للمرأة أن تحمل وتلد باقتطاع خلايا معينة منها. بمعنى أنها يمكن أن تستغنى عن الرجل من أجل الولادة والخلف والنسل. فهذا أصبح فى يدها بعد التطورات العلمية الحديثة.

لكن الذى لا يمكنها عمله هى لمسة حنان من يد رجل، سواء أكان حبيباً أو خطيباً أو زوجاً. هذه اللمسة تشعرها بوجودها كله، وهى من دونها مجرد مخلوق ناقص التكوين والإحساس والشعور والوجود.

كلمة ولمسة الرجل هى التى تؤكد وجود المرأة، وتمنحها شهادة بأنوثتها وباكتمالها.

العلاقة بين الرجل والمرأة، علاقة ذات طابع خاص، غير قابلة للتقليد والتزوير.

علاقة من صنع الله عز وجل، وضع فيها كل أسرار الحياة، واستمرارها حتى يشاء لها النهاية.

وسواء أكانت نهاية الرجل على يد زوجته وفى أكياس القمامة، أو على يد امرأة أخرى. فالسبب يرجع عادة إلى وجود رجل آخر فى حياة المرأة أو الزوجة..

فكل حوادث القتل للأزواج أثبتت أن هناك رجلا آخر فى حياة الزوجة.. يعنى أنها قتلت رجلا، لتذهب إلى رجل آخر.. فالرجل هو محور وأساس العملية كلها.

ولا تفعل ذلك إلا امرأة لم تجد من أهلها الرعاية والعناية وحسن التربية.

ومن هنا وضع لنا النبى ﷺ قواعد وأصولا ثابتة يتم على أساسها اختيار الزوجة الصالحة، والتى إن غاب عنها زوجها حفظته فى ماله وعرضه وبيته.

مواصفات اختيار الزوجة

الحياة دون امرأة.. أو دون رجل.. هى الجحيم.

فكلاهما معا يعطى للحياة معنى، وهدفا، وغاية. وإذا توجت العلاقة بينهما بالبنين والبنات. بلغت ذروة الكمال، والترابط، وأصبح المجموع يشكل أسرة قوية مترابطة، هى جزء من المجتمع.

ومن هنا سعى الرجل والمرأة إلى العيش معا ليكتملا، ويتصلا، ويواصلا معا مسيرة الحياة.

وبعض الناس يحسنون اختيار الزوجة، التى تناسبهم وتتفق معهم فى الآراء والحياة.

والبعض الآخر يسعى وراء المظهر. الجمال أو الغنى، أو الجاه والمنصب، ثم لايهم أى شىء بعد ذلك.

وكلاهما يتحمل مسئولية اختياره. فإن كانت الزوجة حسنة، عاد عليه ذلك بالخير مدى الحياة. وإن كانت الزوجة سيئة، تحمل وزر ما فعل، وما صنع.

ولهذا نصحنا النبى ﷺ بحسن اختيار الزوجة، وشريكة العمر، والتى ستواصل مع الرجل رحلة الحياة.

وهذه النصائح أيضا تنطبق على الزوجة. فعليها أن تختار الزوج الذى يحميها ويصونها ويحافظ عليها ويقف إلى جانبها وقت الشدة والمرض، ولا يتخلى عنها فى ساعات المحنة. ولا تخدعها المظاهر الكاذبة والأموال الطائلة والت« ربما تكون من نبت حرام. وخاصة فى هذه الأيام الصعبة، والظروف

الاقتصادية والتى قد تجعل من معه المال - حتى ولو من حرام - فوق من يملك الأخلاق والمبادئ فقط.

يقول النبى ﷺ:

«تُنكح (تُزَوَّج) المرأة لأربع: لمالها - ولحسبها، ولجمالها، ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك»

وقال ﷺ:

«ألا أخبركم بخير ما يكنز المرء؟ المرأة الصالحة، إذا نظر إليها سرته، وإذا غاب عنها حفظته، وإذا أمرها أطاعته.»

ويقول أيضا:

«تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس»

وهنا ينبه الشاب إلى ضرورة حسن الاختيار، ومعرفة مدى الأمراض المتوارثة فى عائلة من سيتزوجها. لأن هذه الأمراض سوف تنتقل بالتبعية إلى أولاده وحفدته، وتظل فيهم إلى نهاية العمر، وقد تسبب آلاما مبرحة تجعل الإنسان يظل طوال حياته يندم على هذا اليوم الذى رأى فيه زوجته وتزوجها.

الحذر والحيطة واجب عليه فى بداية الأمر. وكل منهما مازال بعيدا عن الآخر، ومهما كانت قوة العلاقة العاطفية، ومهما كان حجم نيران الحب المتقدة فى قلبيهما.

فإن مرض أى من أولادهما سوف يطفئ نيران الحب، ويشعل نيران الغضب والندم على ما كان.

ومن هنا كانت حكمة النبى ﷺ وهو يقول لنا: «إياكم وخضراء الدِّمن[1]» قيل وما خضراء الدمن؟ قال: «المرأة الحسناء فى منبت السوء.».

(١) وخضراء الدمن زهرة جميلة تنبت فى مخلفات البهائم.

ورغم تحذيرات النبى للشباب بالحرص قبل الزواج، واختيار الإنسانة المتدينة، العاقلة، ذات الأخلاق. إلا أنه يحثهم دائما على الزواج والتزاوج، والتناسل، لأنه مباه بهم الأمم يوم القيامة.

عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «من يضمن لى ما بين لحييه (لسانه) وما بين رجليه (فرجه) أضمن له الجنة.».

وعن أسامة بن زيد أن النبى ﷺ قال:

«ما تركت بعدى فتنة أضر على الرجال من النساء»

ومن هنا نتفهم قول رسول الله ﷺ: «يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءة (تكاليف الزواج) فليتزوج، فإنه أغض للبصر، وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم. فإنه له وجاء (قاطع لثورة الشهوة، ومضعف لها).».

وقال ﷺ: «النكاح من سنتى، فمن لم يعمل بسنتى فليس منى».

وقال ﷺ: «تزوجوا فإنى مكاثر بكم الأمم، ولا تكونوا كرهبانية النصارى».

وقال النبى ﷺ: «من رزقه الله امرأة صالحة فقد أعانه على شطر دينه. فليتق الله فى الشطر الباقى.».

أى أن عليه أن يكسب معيشته بالمال الحلال، وأن ينفق على أولاده وزوجته من كسب يده.

وقال ﷺ: «ليتخذ أحدكم قلباً شاكرا، ولسانا ذاكرا، وزوجة مؤمنة صالحة تعينه على آخرته.».

فالزوجة المؤمنة تعين زوجها دائما على مواجهة مصاعب الحياة، وتسهل عليه الأمر، وتذلل الصعاب، وتحاول إسعاده قدر ما تستطيع.

وقال ﷺ: «خير نساء أمتى أصبحهن وجها، وأقلهن مهرا».

فالمرأة ذات الوجه الصبوح المريح تسعد الزوج، وهى تسعده أكثر إن لم

ترهقه فى المهر، مما يضطره إلى الاستدانة، وتحمل الديون التى قد لا يخرج منها إلا بشق الأنفس، وربما مع نهاية حياته.

ويقول ﷺ: «تخيروا لنطفكم، فإن النساء يلدن أشباه إخوانهن وأخواتهن.»

وهذا ما أثبته العلم الحديث (علم الوراثة) فإن المولود يرث كل صفات أبيه وأمه. كما أكدته خريطة الجينات البشرية والتي تم اكتشافها عام (٢٠٠٣) وأعلنها الرئيس الأمريكى بوش الابن ورئيس وزراء بريطانيا فى نفس الوقت، باعتبار أنها أهم حدث فى التاريخ الإنسانى الحديث. حيث يمكن عن طريقها تحديد الموروثات، وأنواعها، ومدى القدرة على علاجها. وأثبتت خريطة الجينات البشرية أن الابن يرث كل شىء من أهله.

وقال النبى ﷺ: «تزوجوا الولود الودود، فإنى مكاثر بكم الأمم يوم القيامة.».

ومن خلال التجارب الإنسانية فإن الولود تعرف عادة من أهلها. فهناك عائلات ولودة معطاءة، وهناك عائلات قد لا تنجب إلا ولدا واحدا فقط، ذلك إن فعلت، لضعف فى التكوين الجسمانى، واكتساب أمراض وراثية من أمها وأهلها. وهذه مسألة سهلة يمكن معرفتها مع دقة الملاحظة والبحث والفهم والوعى.

وعن أنس بن مالك قال: «جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبى ﷺ يسألون عن عبادة النبى ﷺ، فلما أخبروا كأنهم تقالُّوها (عدوها قليلة) فقالوا: وأين نحن من النبى ﷺ وقد غفر الله ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فقال أحدهم: أما أنا فإنى أصلى الليل أبدا. وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر. وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدا.

فجاء رسول الله ﷺ إليهم فقال: أنتم الذين قلتم كذا وكذا، أما والله إنى لأخشاكم لله، وأتقاكم له، لكنى أصوم وأفطر وأصلى وأرقد وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتى فليس منى.»

وعن أبى هريرة قال: قلت يا رسول الله إنى رجل شاب وأنا أخاف على نفسى العنت، ولا أجد ما أتزوج به النساء. فسكت عنى. ثم قلت مثل ذلك. فسكت عنى. ثم قلت مثل ذلك فسكت عنى، ثم قلت مثل ذلك. فقال النبى ﷺ: يا أبا هريرة جف القلم بما أنت لاق، فاختص على ذلك أو ذر.

وعن عبد الله (أى ابن مسعود) قال: كنا نغزو مع النبى ﷺ، وليس معنا نساء، فقلنا: ألا نختصى؟ فنهانا عن ذلك. فرخص لنا بعد ذلك أن نتزوج المرأة بالثوب. ثم قرأ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾ (المائدة: ٨٧).

ومن هذه الأحاديث الشريفة يتبين لنا أن النبى ﷺ حثنا على الزواج، وجعله من الطيبات التى أنعم الله بها على الإنسان.

ويرجع العلماء تقارب الرجل من المرأة، وتقارب المرأة من الرجل، إلى الغريزة الجنسية والتى ركبها الله عز وجل فى كليهما. فهى تدفع المرأة إلى الرجل دفعاً، وهى أيضا تدفعه بقوة إليها، ليلتقيا فى نهاية الأمر، طبقا لسنة الحياة واستمرارها، ولحفظ النوع.

وكما ركب سبحانه الغريزة الجنسية فى الإنسان، ركبها أيضا فى سائر مخلوقاته لحفظ النوع واستمرار الحياة.

ثم ترقى هذه الغريزة من بعد ذلك، لتتحول إلى غريزة الأمومة، والأبوة، ثم تتحول إلى حب وفداء وتضحية من أجل الأبناء، ومن أجل الأسرة كلها.

وقد تسبب هذه الغريزة الجنسية فى ارتكاب جرائم كثيرة، ولعل أول جريمة ارتكبت فى التاريخ البشرى كله. بسببها تلك التى دفعت قابيل إلى قتل أخيه هابيل.

فقد كان من عادة آدم عليه السلام أن ينجب فى كل مرة توأما ولدا وبنتا. ويتزوج كل منهما فتاة الآخر. ولكن البنت التى ولدت مع هابيل كانت دميمة

وهى التى يجب على قابيل أن يتزوجها، والبنت التى ولدت مع قابيل كانت جميلة، وهذه يتزوجها هابيل. وحدث خلاف بعد إصرار قابيل على الزواج من البنت التى ولدت معه. ووسوس له الشيطان، فقتل أخاه لكى يتزوجها.

يقول الله عز وجل: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ﴾ (المائدة: ٣٠).

والغريزة الجنسية إذا أطلقت، أصبحت خطرا، ومصدرا للشر والموت فى الحياة الدنيا. وإن تمكن الإنسان من السيطرة عليها، ونظمها، ووجهها ناحية الخير، أصبحت مصدرا للسعادة البشرية، واستمرارا للحياة.

وتنظيم الغريزة الجنسية يأتى بالزواج، لأنه من خلاله أحل للرجال فروج النساء.

ولا أعتقد أن هناك تعبيرا أروع ولا أجمل من هذا التعبير الذى وصف به الله عز وجل العلاقة الزوجية بين الرجل والمرأة.

يقول سبحانه: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ (البقرة: ١٨٧)

فالآية الكريمة تصف هذه العلاقة بأنها امتزاج روحى، وجسدى، لا فكاك منه.

ويقول عز وجل: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ (سورة الروم الآية: ٢١)

وتعبير السكن فى الآية الكريمة تعبير جميل وهادف. ذلك أن الإنسان لا يستريح إلا فى بيته وسكنه، مهما كان حجمه وموقعه. وكذلك الزوج لا يستريح إلا مع زوجه حيث تربطهما المودة والرحمة والمحبة.

وفيها أيضا معنى السكون، للجوارح،، وللعواطف، والرغبات الجنسية، والرغبات الحسية.

فهى قوة ماصة لكل انفعالات تعتمل داخل الإنسان، سواء أكان رجلا أم امرأة. فتعمل على تهدئة النفوس، وتوفير المناخ المناسب لنمو العلاقات

الإنسانية والعاطفية، وتطفئ النيران المشتعلة فى الأعماق فيتحول الإنسان إلى حيوان هادئ، متماسك لنفسه، ولغرائزه الجنسية، ليصرفها كما يريد لها الله أن تتصرف فى الحلال.

قوة الغريزة الجنسية

تعد الغريزة الجنسية، من أقوى الغرائز التى تسيطر على حياة الإنسان، وقد يتمكن من السيطرة عليها، ويوجهها الوجهة السليمة، وقد تورده مورد الهلاك.

وربما ومن أجل هذا بنى العالم (فرويد) كل تصرفات الإنسان على الغريزة الجنسية، منذ مولده، وحتى موته وإن كان فى قوله مقال.

ولأهمية هذه الغريزة يمكن أن نتفهم حديث رسول الله ﷺ: «من يضمن لى مابين لحييه (لسانه)، وما بين رجليه (فرجه)، أضمن له الجنة»

وقوله: ومن لم يستطع يعنى (الزواج) فعليه بالصوم فإنه له وجاء، أى قاطع لثورة الشهوة، ومضعف لها.

فالشهوة الجنسية لها ثورة عظيمة، تكاد تطيح بكل شىء من أمامها، القيم والمبادىء والأخلاق وربما الدين أيضا. عياذا بالله.

وقد تمكنت هذه الشهوة الجنسية من أهل الأرض أيام إدريس عليه السلام، وكثر منها وبها الفساد فى الأرض. وعاث الرجال مع النساء فساداً.

ونشط إبليس فى نشر الخمر، وحب النساء، وارتكاب المحرمات، وأصبح القابض على دينه كالقابض على جمرة من النار.

جاء فى الإصحاح السادس من سفر التكوين من التوراة: «وحدث لما ابتدأ الناس يكثرون فى الأرض، وولد لهم بنات، أن أبناء الله رأوا بنات الناس أنهن حسناوات. فاتخذوا لأنفسهم نساء من كل ما اختاروا. فقال الرب لا يدين روحى فى الإنسان إلى الأبد. ورأى الرب أن شر الإنسان قد

كثر فى الأرض. وأن كل تصور أفكار قلبه إنما هو شرير كل يوم. فحزن الرب أنه عمل الإنسان فى الأرض وتأسف قلبه. فقال الرب أمحو عن وجه الأرض الإنسان الذى خلقته».

وكما تقول التوراة كثرت النساء فكثر الفساد فى الأرض فى أيام النبى إدريس عليه السلام.

وصعد الشر إلى السماء فتعجبت الملائكة مما يصنع الإنسان، وهو الذى خلقه الله فى أحسن تقويم، وأجمل صورة، وفضله الله عليهم جميعا.

يقول أبو إسحاق الثعلبى: إن الملائكة لما رأوا ما يصعد إلى السماء من أعمال بنى آدم، ومساوئه والذنوب التى يرتكبها، غضبوا وأنكروا ذلك على الإنسان، الذى جعله الله خليفة له على الأرض.

فقال عز وجل: لو أنزلتكم إلى الأرض وركبت فيكم ما ركبت فيهم، لفعلتم مثل ما فعلوا.

قالوا: سبحانك ربنا. ما كان ينبغى لنا أن نعصيَك.

قال سبحانه: اختاروا ملكين من خياركم، أهبطهما إلى الأرض.

فاختاروا هاروت وماروت، وكانا من أصلح الملائكة، وأعبدهم وأتقاهم. فركب الله تعالى فيهما الشهوة التى ركبها فى بنى آدم، وأهبطهما إلى الأرض. وأمرهما أن يحكما بين الناس بالحق. ونهاهما عن الشرك والقتل وسفك الدماء بغير الحق، والزنا وشرب الخمر. وظلا على ذلك فترة يقضيان بين الناس يومهما، فإذا أمسيا، ذكرا اسم الله الأعظم، وصعدا إلى السماء.

حتى احتكمت إليهما امرأة جميلة.

يقول على بن أبى طالب كرم الله وجهه: كانت من أهل فارس، وكانت ملكة فى بلدها، وكان اسمها (الزُّهَرة)، فلما رأياها، أخذت قلبيهما وعقليهما بجمالها الفتان، وحسن قوامها، وجمال وجهها، وسحر ابتسامتها، ودعوة عينيها وشفتيها.

واستعرت داخلهما الغريزة الجنسية، فاحترقت أعصابهما، وغابت عقولهما، وتأججت نفوسهما، وتسرب الشيطان من خلالهما إلى أعماقهما. وتحكم فى تصرفاتهما..

وراوداها عن نفسها.

قالت لهما: لا.. إلا إذا عبدتما ما أعبد، وتصليا لهذا الصنم، وتقتلا النفس التى حرم الله، وتشربا الخمر.

فقالا: معاذ الله. فقد نهانا ربنا عنها.

وانصرفت عنهما، وهى تعلم جيدا ما يدور فى نفسيهما من رغبة عارمة متأججة فى النيل منها.

وعادت إليهما من جديد بعد فترة، وقد لمست فيهما ضعفا ولينا. وقررت أن تعيد محاولتها لإغرائهما، مقابل تنفيذ أوامرها.

وكان معها كأس خمر، وأمرتهما أن يفعلا ما تريد، مقابل أن يحصلا منها على ما يريدان.

وأمعنت فى الدلال، وإظهار مفاتن جسدها، وجمال سيقانيها، ونعومة جسدها، وطراوة جلدها، وتناسق قوامها.

فازداد قلباهما وعقلاهما اشتعالا. وأخذا يساومانها.

وأيقنت أن الأمر أصبح قاب قوسين أو أدنى، وأن ما تريد سوف يتحقق.

وقالا لها فى ود: الصلاة لغير الله أمر عظيم، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق فسق وإثم كبير، وأهون الأمور وأقلها ضررا.. شرب الخمر.

فشربا الخمر أم الكبائر، وانتشيا، وفقدا عقليهما، واشتعلت الرغبة الجنسية داخلهما، فزنيا بالمرأة.

ورآهما إنسان فخافا منه أن ينم عليهما فقتلاه. وقالت لهما: اسجدا للصنم، فسجدا.

فمسخها الله. (الزهرة).

وقال على بن أبى طالب رضي الله عنه، والسدى، والكلبى، أنها قالت: لاتدركانى حتى تعلمانى الذى تصعدان به إلى السماء. فقالا: لا نصعد إلا باسم الله الأعظم. فقالت: فما أنتما بمدركى حتى تعلمانيه.

قال أحدهما لصاحبه: علمها.

قال له: إنى أخاف الله.

فقال له: فأين رحمة الله تعالى.

ورضخا لأمرها، فعلماها ذلك. فتكلمت به، وصعدت إلى السماء، فمسخها الله تعالى.

وكان النبى ﷺ إذا رأى سهيلا قال: لعن الله سهيلا، إنه كان عشارا باليمن، ولعن الله الزهرة، فإنها قتلت ملكين هاروت وماروت.

ويقول ابن عباس: إن الملكين هاروت وماروت ذهبا إلى نبى الله إدريس عليه السلام، فأخبراه بأمرهما، وسألاه أن يشفع لهما إلى الله تعالى، وقالا له:

إنا رأيناك يصعد لك من العبادة مثل ما يصعد لجميع أهل الأرض. فاشفع لنا إلى الله تعالى. ففعل إدريس عليه السلام ذلك لهما. فخيرهما الله بين عذاب الدنيا، وعذاب الآخرة. فاختارا عذاب الدنيا لأنه ينقطع وينتهى مع يوم القيامة.

وظلا فى بابل يعذبان حتى قيام الساعة.

يقول الله تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ

وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ١٠٢).

وروى هشام عن عائشة ﵄ أنها قالت: قدمت امرأة من دومة الجندل، جاءت تبغى رسول الله ﷺ بعد موته، تسأل عن شىء دخلت فيه من أمر السحر، وما تعمل به. فقالت عائشة لعروة: يا ابن أختى، فرأيتها تبكى حين لم تجد رسول الله ﷺ، فكانت تبكى حتى رحمتها.

ثم قالت: إنى لأخاف أن أكون قد هلكت، ثم قالت: كان لى زوج غاب عنى، فدخلت على عجوز، فشكوت لها ذلك. فقالت لها إن فعلت ما آمرك به جعلته يأتى إليك. فلما كان الليل جاءتنى بكلبين أسودين، فركبتُ أحدهما، وركبت هى الآخر. فلم يكن كثير حتى وقفنا ببابل، وإذا برجلين معلقين من أرجلهما فقالا: ما جاء بك؟. فقلت أتعلم السحر. فقالا: إنما نحن فتنة فلا تكفرى فارجعى من حيث أتيت. فقالت: لا. قالا: فاذهبى إلى ذلك التنور فبولى فيه. فذهبت لأبول. ففزعت واقشعر بدنى، ولم أفعل فرجعت. فقالا: فعلت. فقلت: نعم. فقالا: هل رأيت شيئاً. فقلت: لا. قالا: لا تكذبى. لم تفعلى، ارجعى إلى بلادك ولا تكفرى، إنك على رأس أمرك. فقلت: لا. فقالا: اذهبى إلى ذلك التنور فبولى فيه، فذهبت إليه وبلت فيه. فرأيت فارسا مقنعاً بالحديد خرج منى، وذهب إلى السماء ولم أره. فلما قلت لها ذلك قالا: صدقت. ذلك إيمانك خرج منك فاذهبى.

فقلت: والله ما أعلم شيئاً ولا قالا لى شيئا. فقالا: ما تريدين شيئا إلا كان. خذى هذا القمح فابدريه فبدرته، ثم قالت له: اطلع فطلع. فقلت له: انحصد فانحصد. فقلت له: انفرك ففرك. ثم قلت: انطحن فطحن. ثم قلت: انخبز فانخبز. فلما رأيت أنى لا أريد شيئا إلا كان، سقط فى يدى. فرجعت وندمت. والله يا أم المؤمنين ما فعلت شيئا قط، ولا أفعله أبدا.

وقال الأوزاعى: بلغنى أن جبريل ﵇ أتى النبى ﷺ فقال: يا جبريل

صف لى النار. فقال: إن الله أمر بها فأوقد عليها ألف عام حتى احمرت، ثم أوقد عليها ألف عام حتى اسودت، فهى سوداء مظلمة ولا يطفأ جمرها ولا يخمد لهيبها. والذى بعثك بالحق لو أن ثوبا من ثياب أهل النار ظهر لأهل الأرض لماتوا جميعا ولو أن ذنوباً (دلوًا) من شرابها صب فى ماء الأرض جميعا لقتل من ذاقه. ولو أن حلقة من السلسلة التى ذكرها الله وضعت على جبال أهل الأرض جميعا لذابت، وما استلقت، ولو أن رجلا دخل النار وخرج لمات أهل الأرض من نتن ريحه، وتشويه خلقه وعظمه.

فبكى النبى ﷺ، وبكى جبريل لبكائه وقال: أتبكى يا محمد. وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر. قال: أفلا أكون عبدا شكورا. وبكى جبريل. فقال يا جبريل: أتبكى وأنت الروح الأمين، أمين لله على وحيه. قال: أخاف أن أبتلى بما ابتلى به هاروت وماروت. فهذا الذى منعنى من اتكالى على منزلتى عند ربى، فأكون قد آمنت مكره.

فلم يزالا يبكيان حتى نوديا من السماء، يا جبريل، يا محمد، إن الله تعالى قد أمنكما من غضبه، فلا يعذبكما، وإن فضل محمد ﷺ على سائر الأنبياء، كفضل جبريل على سائر الملائكة.

وقد ذهب سيد قطب(١): أن كل تلك القصص والحكايات عن هاروت وماروت من الإسرائيليات التى دخلت على التفاسير فى عصور متأخرة. كما أن الروايات والأحاديث الدينية ضعيفة وغير موثقة المصدر، ولا ترجع إلى رواة من أهل الثقة والعلم. لكنه اعترف أن قصة هاروت وماروت قصة حقيقية قائمة عند اليهود، وفى التوراة، وإلا لكانوا قد كذبوها فى وقتها.

كما أن النص القرآنى واضح وصريح فى أنهما يعلمان الناس السحر، وما يفرق بين الرجل وزوجه.

ومن خلال قصة الملكين هاروت وماروت، نعرف أن الغريزة الجنسية

---

(١) تفسيره: فى ظلال القرآن.

والتى ركبها الله فى الإنسان، هى قوة مدمرة، قد تسوق الإنسان إلى هلاكه و إلى نجاحه وفلاحه. إلى النار أو إلى الجنة بنعيمها.

ولإطفاء نارها، شرع الله الزواج، حتى يعمر الإنسان الأرض إلى يوم الدين. وأن تكون الزوجة لباساً له، وأن يكون لباسا لها، حتى يكتملا، ويشكلا وحدة إنسانية واحدة.

أن يلتقى كل نصف مع نصفه الآخر ليكونا وحدة واحدة، وكلا لا يتجزأ، إلى أن يشاء الله تعالى.

* * *

تربية البنات

وتربية البنت فى المجتمع الشرقى والعربى، مسئولية كبيرة، وحمل ثقيل يحتاج إلى قوة، وإمكانات مادية لتحقيقه.

وربما ولهذا السبب كان العرب فى الجاهلية يئدون البنات للتخلص منهن، ومن مشاكلهن، وهمومهن، وما قد يجلبنه من عار على القبيلة.

ومن عادة العرب ألا يزوجوا فتاة أحبها فتى وأعلن حبه لها، أو قال فيها شعراً، فهنا تصبح المصيبة أعظم، وقد يُطارد حتى الموت، كما حدث مع قيس بن الملوح مجنون ليلى.

وهذه العادة الذميمة، لم تقتصر على العرب وحدهم، وإنما كانت موجودة فى كل المجتمعات القديمة تقريبا.

ثم إنها مازالت مترسبة فى المجتمعات العربية والأوربية أيضا.

والمثل الشعبى المصرى يقول: (قلنا له جالك ولد إنشد ظهره وانسند). أى أن الولد يدخل الفرحة دائما على الأسرة لأنه سيكون عائلهم، ورجلهم فى المستقبل.

وهذه المسألة لا تزال حتى اليوم موجودة فى أوربا، وأذكر أننى كنت فى زيارة للدنمارك سنة ١٩٧٠ ميلادية، وفوجئت بصاحب الفندق الصغير والذى أقيم فيه يقيم الأفراح ويوزع الحلوى لأن زوجته أنجبت ولدا، وكان عنده أربع بنات. لدرجة أننى أخبرته بأنه يذكرنى بالصعايدة فى مصر. ونفس الحكاية شاهدتها من بعد فى تشيكوسلوفاكيا وفى مدينة هامبورج بألمانيا.

والرسول ﷺ يحثنا على الاهتمام بتربية البنات ويقول: «من كان له بنت فهو متعب، ومن كان له بنتان فهو مثقل، ومن كان له ثلاث بنات فيا عباد الله أعينوه! أعينوه! فإنه معى فى الجنة كهاتين» وجمع ﷺ بين إصبعيه.

وقال أيضا:

«لا تكرهوا البنات، فإنهن المؤنسات الغاليات.».

وقال ﷺ:

«ساووا بين أولادكم فى العطية، فلو كنت مفضلا أحدا لفضلت النساء.».

وعن عائشة رضي الله عنها قالت:

دخلت امرأة معها ابنتان لها تسأل. فلم تجد عندى شيئا غير تمرة، فأعطيتها إياها، فقسمتها بين ابنتيها، ولم تأكل منها ثم قامت فخرجت.

فدخل النبى ﷺ علينا، فأخبرته، فقال النبى: من ابتلى من هذه البنات بشىء كن له سترا من النار» (رواه البخارى).

وقال رسول الله للآباء:

«من كان له ابنة فأدبها، فأحسن تأديبها وغذاها فأحسن غذاءها وأسبغ عليها من النعمة التى أسبغ الله عليه، كانت له ميمنة وميسرة من النار إلى الجنة.».

وقال أبو هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ: «من كان له ثلاث بنات فعالهن وكفلهن دخل الجنة.» قلنا: واثنتين؟ قال: واثنتين. قلنا: وواحدة قال: وواحدة.

وعن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «من خرج إلى سوق من أسواق المدينة، فاشترى شيئا فحمله إلى عياله، فإنما حمل إليهم صدقة حتى يضعها فيهم. وليبدأ بالإناث قبل الذكور، فإن من فرح أنثى فكأنما بكى من خشية الله، ومن بكى من خشية الله حرم الله بدنه على النار». والله أعلم.

ومن هنا فإن الناس البسطاء يفرحون عندما يأتيهم خاطب لابنتهم طالبا يدها. فهو سوف يسترها. والستر يعنى أن يعول همها، وأن يكفيها كل احتياجاتها ومطالبها، وأن يستر عليها دنيا وأخرى.

فالبنت فى المجتمع الشرقى المتدين ـ سواء أكان إسلاميا أو مسيحيا ـ مسئولية كبيرة.

وهى فى هذه الأيام مسئولية أكبر وأخطر، وخاصة فى مواجهة الزحف الأوربى على الشرق، ومحاولة طمس العادات والتقاليد والأخلاق والدين عند الجيل الجديد.

وكذلك زحف أغانى الفيديو كليب من خلال شاشات القنوات المحلية والفضائيات، وكلها تقدم صورا عارية تثير الغرائز قبل أن تثير الفكر، وتشجع على الانحلال والفساد والأفكار الهدامة، وإقامة العلاقات العاطفية مع الطرف الآخر.

وفى الشرق تصبح الفتاة هى الضحية الأولى عادة، أما الشاب فيهرب بجلده عادة.

ومن هنا نتفهم فرحة الناس البسطاء لزواج بناتهم حيث يكون العريس (ستر وغطى) لها من تقلبات الزمن وهموم الدنيا، ومطالب الحياة، وطمع الشباب.

* * *

طبيعة المرأة

للمرأة طبيعة خاصة، خلقها الله عليها، فهى سريعة الغضب، تكثر من الحديث فى غير فائدة، وإن أهملها زوجها قليلا أو لم يحقق مطالبها، انقلبت عليه، وتنكرت لكل ما قدمه لها من قبل من خير كثير، وعايرته بما هو عليه الحال الآن.

يقول ابن عباس: قال النبى ﷺ: «رأيت النار فوجدت أكثر أهلها من النساء، قيل أيكفرن بالله؟ قال: يكفرن العشير، ويكفرن الإحسان، لو أحسنت إلى إحداهن الدهر ثم رأت منك شيئا قالت: ما رأيت منك خيرا قط.»

وعن أبى سعيد الخدرى قال: «خرج علينا رسول الله ﷺ فى أضحى أو فطر إلى المصلى فمر على النساء فقال: يا معشر النساء تصدقن، فإنى رأيتكن أكثر أهل النار. فقلن: وبم يا رسول الله؟. قال: تكثرن اللعن، وتكفرن العشير، ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن. قلن: وما نقصان عقلنا وديننا يا رسول الله؟ قال: أليس شهادة المرأة مثل نصف شهادة الرجل؟ قلن: بلى. قال: فذلك نقصان عقلها، أليس إذا حاضت لم تصل ولم تصم؟ قلن: بلى. قال: فذلك من نقصان دينها».

وعن ابن عباس بعد أن ذكر حديث الكسوف بطوله ثم قال: «قالوا يا رسول الله رأيناك تناولت شيئاً فى مقامك ثم رأيناك كعكعت فقال: إنى رأيت الجنة، وتناولت عنقودا ولو أصبته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا، ورأيت النار فلم أر منظرا كاليوم قط، ورأيت أكثر أهلها النساء، قالوا: بم يا رسول الله؟ قال: يكفرن. قيل: يكفرن بالله؟ قال: يكفرن العشير ويكفرن الإحسان، لو أحسنت

إلى إحداهن الدهر كله ثم رأت منك شيئا قالت: ما رأيت منك خيرا قط.»

وعن عمران بن حصين عن النبى ﷺ: قال: «اطلعت فى الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء، واطلعت فى النار فرأيت أكثر أهلها النساء».

وعن أسامة بن زيد عن النبى ﷺ قال: «قمت على باب الجنة فإذا عامة من دخلها المساكين وأصحاب الجد محبوسين غير أن أهل النار قد أمر بهم إلى النار، وقمت على باب النار فإذا عامة من دخلها النساء».

ومن طبيعة المرأة الغيرة، وبعض هذه الغيرة محبب إلى النفس، وبعضها بغيض إليها وقد يصيبها بالمرض، أو التعب والشقاء.

فالمرأة التى تغار على زوجها سوية النفس، لأن هذا من طبع النساء، وهو أمر محبب أيضا إلى الزوج، لأنه يشعر بأن زوجته تغار عليه ممن حوله من النساء، وهذا شىء يسعده، لأنه يشعر أنها تحبه، وأنه يملأ قلبها وعقلها وكل فكرها وإحساساتها.

ولكن إذا زادت الغيرة عن ذلك انقلبت إلى ضدها وأصبحت حياة البيت لا تطاق، وقد يفضى الأمر إلى الطلاق.

وهذه الغيرة المرة، عرفها بيت رسول الله، وعرفها النبى ﷺ من أزواجه أمهات المؤمنين، فليس الأمر يقتصر على نساء المؤمنين مع أزواجهن، وإنما نساء النبى يغرن عليه غيرة شديدة، ويفعلن أشياء كثيرة، لدرجة أن النبى ﷺ تركهن قرابة شهر، واعتقد المسلمون أنه طلقهن(١).

وكانت السيدة عائشة ومعها السيدة حفصة والسيدة سودة يشكلن حزبا مستقلا، داخل البيت النبوى، ويدبرن المكائد لنساء النبى الأخريات حتى لا يقربهن رسول الله، ويأتى إليهن وخاصة السيدة عائشة التى تكن للرسول حبا شديدا، وكانت تعرف أنه يحبها كثيرا وكان يقول لها: حبك يا عائشة فى قلبى كالعروة الوثقى».

(١) كتاب فوزى شعبان مكائد النساء. دار الأحمدى للطباعة والنشر.

وقد أعطانا الرسول ﷺ بذلك قدوة حسنة فى كيفية معاملة الزوجات فرغم شدة غيرة السيدة عائشة عليه إلا أنه كان دائما يشعرها بحبه وحنانه؛ وكان يخبرها بذلك كثيرا، ولم يخفه عنها، خجلا أو استحياءً من قوله، كما يفعل بعض الأزواج الآن وخاصة فى صعيد مصر وبعض القرى ومن هم منها حتى ولو تعلموا فى الجامعات وتخرجوا منها، فمازالوا يعتقدون أن فى التصريح بالقول والفعل للزوجة بالحب، عيبا كبيرا، وامتهانا وضعفا للرجولة، وأن الرجل القوى هو الذى يخفى مشاعره عن الآخرين بما فيهم زوجته.

وهناك آخرون يعتقدون أيضاً أن إعلان الزوجة بحب زوجها لها، قد يجعلها تسيطر عليه، وتعتقد أن فيه ضعفا، وتحاول قيادته، أو استغلال ذلك فى تحقيق مآرب شخصية، أو عائلية. فيؤثر عدم الإعلان وإبقاء الأمر فى طى الكتمان، حتى يقضى الله أمراً كان مفعولاً.

وفى هذا كل الخطأ. فقد اتفقت السيدة عائشة مع فريقها على بقية نساء النبى، وأحدثت ما هز البيت النبوى، ودفعت باقى نساء النبى إلى المطالبة بالمعاملة بالمثل، وإنصافهن فى مواجهة عائشة.

وقد ورد فى (البخارى) اعترافات للسيدة عائشة تقول: كنت أغار على اللاتى وهبن أنفسهن لرسول الله ﷺ وأقول: أتهب المرأة نفسها؟ فلما أنزل الله عز وجل: ﴿تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾ (الأحزاب: ٥١).

قلت لرسول الله: ما أرى ربك إلا يسارع فى هواك.

وتقول أيضاً: كان رسول الله ﷺ يشرب عسلاً عند زينب بنت جحش ويمكث عندها، فتواطأت أنا وحفصة عن أيتنا دخل عليها، فلتقل له: أكلت مغافير؟ إنى أجد منك ريح مغافير (وهو طعام له رائحة كريهة).

قال رسول الله ﷺ: ولكنى كنت أشرب عسلاً عند زينب بنت جحش،

فلن أعود إليه، وقد قلت لا تخبرى بذلك أحداً».

ويروى أنس أن النبى ﷺ كان عند بعض نسائه، فأرسلت إحدى أمهات المؤمنين مع خادم بقصعة فيها طعام، فضربت (عائشة) بيدها فكسرت القصعة، فضمها وجعل فيها الطعام، وقال: «كلوا». وحبس الرسول القصعة حتى فرغوا. فدفع القصعة الصحيحة وحبس المكسورة.

وتروى أم المؤمنين عائشة قصة تكوين حزبها داخل البيت النبوى فتقول: إن نساء النبى ﷺ كن حزبين، حزباً فيه عائشة وحفصة وسودة، والحزب الآخر فيه أم سلمة وسائر نساء النبى، وكان المسلمون قد علموا حب رسول الله ﷺ لعائشة، فإذا كانت عند أحدهم هدية يريد أن يهديها لرسول الله أخرها حتى إذا كان رسول الله ﷺ فى بيت عائشة، بعث صاحب الهدية بها إلى رسول الله فى بيت عائشة.

فكلم حزب أم سلمة، فقلن لها: كلمى رسول الله ﷺ يكلم الناس. فكلمته، من أراد أن يهدى إلى رسول الله هدية، فليهدها إليه حيث كان من نسائه. فكلمته أم سلمة بما قلن لها، فلم يقل لها شيئاً، فسألنها فقالت: ما قال لى شيئاً. فقلن لها: فكلميه حتى يكلمك. فدار إليها. فكلمته. فقال لها: «لا تؤذينى فى عائشة فإن الوحى لم يأتين وأنا فى ثوب امرأة إلا عائشة. قالت: فقلت: أتوب إلى الله من أذاك يا رسول الله؟

ثم إنهن دعون فاطمة بنت رسول الله ﷺ، فأرسلت إلى رسول الله ﷺ تقول: إن نساءك ينشدنك الله العدل فى بنت أبى بكر. فكلمته. فقال: «يا بنية ألا تحبين ما أحب؟ فقالت: بلى».

فرجعت إليهن، فأخبرتهن، فقلن ارجعى إليه. فأبت أن ترجع. فأرسلن زينب بنت جحش فأتته، فأغلظت فقالت: إن نساءك ينشدنك الله العدل فى بنت أبى قحافة، فرفعت صوتها حتى تناولت عائشة وهى قاعدة، فسبتها، حتى إن رسول الله ﷺ لينظر إلى عائشة هل تكلم. قال: فتكلمت عائشة ترد

على زينب حتى أسكتتها. قالت: فنظر النبى ﷺ إلى عائشة وقال: «إنها بنت أبى بكر».

وعن أسماء أن امرأة قالت: يا رسول الله إن لى ضرة، فهل على جناح إن تشبعت من زوجى غير الذى يعطينى.

فقال رسول الله ﷺ: «المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبَىْ زور».

وكان رسول الله ﷺ قد عزم على الزواج من (أسماء بنت النعمان) ذات الحسب والنسب والجمال، وقرر حزب عائشة أن يواجه القادمة الجديدة.

وفى ليلة العرس، أقبلن على العروس مرحبات فرحات يبعثن من حولها السُرور والمودة، حتى وثقت فيهن، واستمعت إلى نصيحتهن.

وما كادت ترى رسول الله مقبلاً عليها حتى استعاذت بالله.

فصرف وجهه عنها. وقال:

- لقد عذت بمعاذ.

وتركها وانصرف سريعاً، وأمر أن تلحق بأهلها.

وعندما علم الرسول بما فعلته عائشة وحزبها مع أسماء، ضحك كثيراً وهو يقول:

«إنهن صواحبات يوسف وإن كيدهن عظيم.».

وكثرت مكائد حزب عائشة مع باقى نساء النبى حتى مارية القبطية لم تسلم منهن.

مما دفع النبى إلى اعتزالهن، والبعد عنهن، حتى سرت إشاعة بين المسلمين أنه طلق نساءه.

وقال له عمر بن الخطاب:

يا رسول الله. ما يشق عليك من أمر النساء؟ إن كنت طلقتهن فإن الله معك وملائكته وجبريل، وأنا وأبو بكر والمؤمنون معك.

فابتسم الرسول، ورد إليه طمأنينته، فما طلق نساءه، وإنما هجرهن شهراً لعلهن يرعوين.

وفرح المسلمون بالخبر الذى أعلنه عمر.

وقالت عائشة تداعبه:

أقسمت أن تهجرنا شهراً. ولم يمض منه غير تسع وعشرين.

فضحك النبى من ملاحظتها الذكية. وقال لها: إن شهرها هذا تسع وعشرون ليلة.

وتروى السيدة عائشة: أنها ما غارت على أحد من نساء النبى ﷺ قدر غيرتها من خديجة رغم أنها لم ترها. ولكن كان النبى ﷺ يكثر من ذكرها، وربما ذبح الشاة ثم يقطعها أعضاء ثم يبعثها فى صدائق خديجة، فربما قلت له: كأنه لم يكن فى الدنيا امرأة إلا خديجة. فيقول لها: «إنها كانت وكانت وكان لى منها الولد».

وتروى أيضاً: استأذنت هالة بنت خويلد أخت خديجة على رسول الله ﷺ، فعرف استئذان خديجة فارتاع لذلك. فقال: اللهم هالة (أى هذه هالة). فقلت: ما تذكر من عجوز من عجائز قريش حمراء الشدقين، هلكت فى الدهر قد أبدلك الله خيراً منها.

فتغير وجه النبى ﷺ وقال لها:

«والله ما أبدلنى الله خيراً منها. آمنت بى حين كفر الناس، وصدقتنى إذ كذبنى الناس، وواستنى إذ حرمنى الناس، ورزقنى منها الله الولد دون غيرها من النساء».

وفى هذا درس عظيم لكل الأزواج، فمنه نتعلم من الرسول ﷺ، كيف نحافظ على ذكرى الزوجة الأولى، إن كانت قد ماتت أو طلقت. فليس من الأخلاق فى شىء أن يذكر المرء مساوئ من متن أو من اختلف معهن وتفرقوا بالطلاق. فلا شك أنه يوم اختارها زوجة له رأى فيها ما أعجبه وسعى إليه، وهذا فى حد ذاته يدعوه إلى احترامها واحترام ذكراها لأنه على الأقل هو الذى اختارها. فإن كانت حسنة زادته حسنا، وإن كانت سيئة نقصت من قدره، ومن عقله، لأنه هو الذى اختارها، ومن ثم يقع العيب عليه هو أولاً وأخيراً.

وقد حدث أن جاء رجل إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، يشكو خلق زوجته، فوقف على بابه ينتظر خروجه، فسمع امرأة عمر تستطيل عليه بلسانها وتخاصمه، وعمر ساكت لا يرد عليها.

فانصرف الرجل راجعاً، وقال: إن كان هذا حال عمر مع شدته وصلابته وهو أمير المؤمنين. فكيف حالى؟!

وخرج عمر، فرآه موليا عن بابه، فناداه وقال: ما حاجتك أيها الرجل؟

فقال: يا أمير المؤمنين، جئت أشكو إليك سوء خلق امرأتى واستطالتها على، فسمعت زوجتك كذلك، فرجعت وقلت: إذا كان هذا حال أمير المؤمنين مع زوجته، فكيف حالى؟!

فقال عمر: يا أخى، إنى أحتملها لحقوق لها على: إنها لطباخة لطعامى. خبازة لخبزى. غسالة لثيابى. مرضعة لولدى - وليس كل ذلك بواجب عليها - ويسكن قلبى بها عن الحرام. فأنا أحتملها لذلك.

فقال الرجل: يا أمير المؤمنين، وكذلك زوجتى.

قال عمر: فاحتملها يا أخى، فإنما هى مدة يسيرة.

وفى الصحيحين، قال ﷺ: «لا يفرك المؤمن مؤمنة.. إن كره منها

خُلقاً، رضى منها الآخر».

ويقول الإمام الأكبر محمود شلتوت رحمه الله: قد تكلم الفقهاء كثيراً فى حق الرجل على المرأة، وحق المرأة على الرجل.

والحق الذى تهدى إليه الفطرة فى شأن الزوجين: هو ما قضى به النبى ﷺ بين على، وابنته فاطمة: قضى على ابنته بخدمة البيت ورعايته، وعلى زوجها بما كان خارجاً عن البيت من عمل.

فعليها تدبير المنزل ورعاية الأطفال، وعلى الرجل السعى والكسب.

وفى خطبة الوداع قال رسول الله ﷺ:

«أيها الناس، إن لنسائكم عليكم حقًا، ولكم عليهن حق. لكم عليهن ألا يوطئن فرشكم غيركم، ولا يدخلن أحداً تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم، ولا يأتين بفاحشة. فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تعضلوهن (الحبس والتضييق)، وتهجروهن فى المضاجع، وتضربوهن ضرباً غير مبرح. فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف.

وإنما النساء عندكم عوان (ضعيفات) لا يملكن لأنفسهن شيئاً. أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله. فاتقوا الله فى النساء، واستوصوا بهن خيراً. ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد».

وعن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذى جاره، واستوصوا بالنساء خيرا، فإنهن خلقن من ضلع وإن أعوج شىء فى الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء خيرا». (رواه البخارى).

وكان الرسول ﷺ، يعرف ما تعانيه زوجته، وما إذا كانت راضية أو غاضبة عليه.

تقول عائشة ﵂: قال لى رسول الله ﷺ:

«إنى لأعلم إذا كنت عنى راضية، وإذا كنت عنى غضبى».

قالت: فقلت: من أين تعرف ذلك؟

فقال: «أما إذا كنت عنى راضية فإنك تقولين لا ورب محمد، وإذا كنت على غاضبة قلت لا ورب إبراهيم».

قالت: قلت: أجل والله يا رسول الله ما أهجر إلا اسمك. (رواه البخارى)

وتروى أسماء بنت أبى بكر، كيف أنها رفضت أن تركب خلف رسول الله، خوفاً من غيره زوجها عليها، واحتراما لمشاعره، حتى ولو كان من سوف تركب خلفه هو رسول الله ﷺ.

تقول أسماء: تزوجنى الزبير وما له فى الأرض من مال، ولا مملوك، ولا شىء غير ناضح (بعير يستقى عليه الماء)، وغير فرسه، فكنت أعلف فرسه، وأستقى الماء، وأخرز غربه، وأعجن، ولم أكن أحسن الخبز. وكان يخبز جارات لى من الأنصار، وكن نسوة صدق، وكنت أنقل النوى من أرض الزبير التى أقطعه رسول الله ﷺ على رأسى، وهى منى على ثلثى فرسخ، فجئت يوماً والنوى على رأسى، فلقيت رسول الله ﷺ ومعه نفر من الأنصار، فدعانى، ثم قال: اخ[1]. ليحملنى خلفه، فاستحييت أن أسير مع الرجال، وذكرت الزبير وغيرته، وكان أغير الناس.

فعرف رسول الله ﷺ أنى قد استحييت، فمضى. فجئت الزبير فقلت: لقينى رسول الله ﷺ وعلى رأسى النوى، ومعه نفر من أصحابه، فأناخ لأركب، فاستحييت منه، وعرفت غيرتك فقال: والله لحملك النوى كان أشد على من ركوبك معه. قالت: حتى أرسل إلىَّ أبو بكر بعد ذلك بخادم يكفينى سياسة الفرس، فكأنما أعتقنى. (رواه البخارى).

وهكذا أرادت أسماء بنت أبى بكر أن تحافظ على شعور زوجها، وأن تحفظ عليه غيرته، حتى ولو كان محدثها هو رسول الله ﷺ.

---

(١) اسم صوت للبعير ليبرك.

شخصية مستقلة للمرأة

للمرأة فى الإسلام شخصية مستقلة. فلها أن تتصرف فى أموالها بكامل حريتها، دون وصاية عليها من أحد.

فلها أن تشترى ما تريد، وأن تبيع ما تشاء، وأن يكون لها حساب مستقل فى البنك باسمها، وأن تحتفظ بثروتها وإرثها لنفسها. وإذا توفى زوجها فلها نصيب معلوم فى ثروته.

يقول عز وجل فى سورة النساء: ١٢: عن ميراث الزوجات من أزواجهن ﴿وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم﴾.

وأجاز الإسلام للمرأة، أن تكون وكيلة عن غيرها، وتشرف على العمل الذى تختاره لنفسها، وأن تتصرف فى ثروتها بحريتها ودون قيد من أحد كما يتصرف الرجل فى ماله وعقاره ومنقوله.

ولها أيضاً أن تختار من تتعاقد معه فى تجارتها أو أعمالها، دون التقيد بما قد يكون عليه حال زوجها أو أبيها، أو إخوتها، أو أولادها.

فهى حرة تختار من تريد، وتعقد الصفقات التجارية والمالية مع من تريد.

فهى مساوية للرجل فى هذا الشأن. وتتمتع بكل ما يتمتع به من مزايا وحقوق قانونية، فى معاملاته.

وقد تفرد التشريع الإسلامى بهذه الميزة التى لم يسبقه إليها دين آخر،

أو قانون وضعى.

فهى خادمة عند اليهود، وهى رجس من عمل الشيطان عند الإغريق القدماء، وهى متاع يورث عند عرب الجاهلية، وتحبس فى الصين القديمة.

وهى فى القانون الرومانى «ليست أهلاً للتصرف مدة حياتها كالطفل، ويجب أن يوكل أمرها لرب الأسرة». وبذلك يعدها القانون الرومانى قاصراً طوال حياتها.

وهى فى القانون الفرنسى: «ليست أهلاً للتعاقد بدون رضا زوجها وإجازته».

وكلمة (زوج) فى اللغة العربية ـ كما تقول الدكتورة زينب رضوان ـ عظيمة الدلالة على معنى المساواة المطلقة بين الرجل والمرأة.

فهى تعنى شيئين أو نصفين، يطابق كل منهما الآخر تمام المطابقة. بحيث يصنعان معاً شيئاً واحداً.

وتأكيداً لهذا المعنى فإن القرآن الكريم لم يذكر المرأة مطلقاً على أنها زوجة الرجل، وإنما هى زوج الرجل، أى نصفه المتماثل والمساوى.

وأن الرجل هو الزوج أى النصف الآخر المساوى للمرأة والمكمل لها فى تطابق تام.

يقول سبحانه وتعالى:

﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾ (سورة الأنبياء: ٩٠).

﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾ (سورة البقرة: ١٠٢).

وبصيغة الجمع نجد لفظ أزواج. يقول تعالى:

﴿وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا﴾ (سورة التحريم: ٣).

كذلك نجد نفس اللفظ يستخدم بالنسبة للرجل وأنه زوج. يقول عز وجل:

﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ (سورة المجادلة: ١).

وهذه الدقة فى البيان العربى والذى تحمله اللفظة القرآنية، إنما تعلن وتؤكد فى صراحة تساوى الرجل والمرأة فى الأصل، والخلق، والتكوين، وأنهما شطران لنفس واحدة لا تقوم إلا بهما معاً.

يقول الحق سبحانه:

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ (سورة الأعراف: ١٨٩).

وقد وزع القرآن الكريم المسئولية بالتساوى بينهما. يقول الحق تعالى:

﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ (سورة الطور: ٢١).

﴿وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ (سورة الجاثية: ٢٢).

ويتفق جمهور العلماء والمفسرين على أن كل ما جاء فى القرآن مما يتصل بالتكاليف والعبادات والحقوق والواجبات، وفى مختلف الشئون بصيغة المفرد المذكر والجمع المذكر، يعتبر شاملاً المرأة، إذ لم يكن فيه قرينة تخصيصية.

يقول تعالى فى سورة التوبة:

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ (الآيتان: ٧١ - ٧٢).

فقد ساوى عز وجل بين المرأة والرجل فى العبادات وفى إقامة الصلاة، ودفع الزكاة، وكذلك فى النهاية الحسنة فى جنات تجرى من تحتها الأنهار.

إنها قمة العدل. وقمة المساواة، وعدالة الجزاء.

وقد ساوى رسول الله ﷺ بين المرأة والرجل حتى فى حالة استجارة الأعداء بها.

فقد استجار عدو من أعداء الإسلام بهند ابنة أبى طالب (أم هانئ) وهى ابنة عم النبى، فى غزوة الفتح فأجارته.

ولكن علىَّ بن أبى طالب لم يعجبه ذلك وقدم إليها يريد قتله، فتصدت له ومنعته من قتله. واحتكمت إلى رسول الله ﷺ.

فقال النبى: «قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ».

وبذلك حافظ الرسول ﷺ، على كلمة ووعد أم هانئ لعدوها، وعدو الإسلام. وكان فى ذلك خير تعظيم للمرأة المسلمة، ومكانتها فى الإسلام.

يقول الإمام الشيخ محمد عبده رحمه الله(١):

«هذه الدرجة التى رفع الله النساء إليها لم يرفعهن إليها دين سابق، ولا شريعة من الشرائع، بل لم تصل إليها أمة من الأمم قبل الإسلام ولا بعده.

وهذه الأمم الأوربية التى كان من تقدمها فى الحضارة أن بالغت فى احترام النساء وتكريمهن، وعنيت بتربيتهن وتعليمهن الفنون والعلوم، لاتزال دون هذه الدرجة التى رفع الإسلام النساء إليها، ولاتزال قوانين بعضها تمنع المرأة من حق التصرف فى مالها بدون إذن زوجها، وغير ذلك من الحقوق التى منحتها إياها الشريعة الإسلامية من نحو (أكثر من ثلاثة عشر قرناً ونصف قرن)(٢). وقد كانت النساء فى أوربا منذ (أكثر من) خمسين سنة بمنزلة الأرقاء فى كل شىء. كما كان فى عهد الجاهلية عند العرب، بل أسوأ حالاً.

وقد صار هؤلاء الإفرنج الذين قصرت مدنيتهم عن شريعتنا فى إعلاء شأن النساء يفخرن علينا، بل يرموننا بالجهل فى معاملة النساء.

ويزعم الجاهلون منهم أن ما نحن عليه هو أثر ديننا».

ولكن الأكثر خطورة هو ما طالبت به بعض الجماعات الصهيونية المتطرفة من تغيير لبعض الآيات المعادية لهم فى القرآن الكريم، وإعادة صياغتها من جديد بحيث تكون معهم وليس ضدهم.

(١) فى تفسير المنار جـ٢ صـ ٢٧٥ - ٢٧٩.
(٢) هذا التاريخ زمن الإمام

فهل سينجحون فى هذا؟ وقد تم ضبط بعض المصاحف والنسخ القرآنية المحرفة والتى تم فيها تعديل هذه الآيات أو حذفها فى بعض الدول الإسلامية وخاصة غير الناطقة باللغة العربية لكى يسهل نشرها بينهم، حيث لا يجيدون حفظ آيات وسور القرآن الكريم.

إن القرآن كلام الله وهو حافظ له مهما عملوا أو فعلوا. ولكن على المسلمين التيقظ لما سوف يحدث لهم، وما يحاك ضدهم من أعداء الإسلام.

ولعل من أطرف ما كتب ضد الإسلام والمسلمين فى الصحافة الأمريكية خلال شهر فبراير سنة ٢٠٠٤ ما كتبته كاتبة صهيونية تدعو فيه المسلمين إلى الاكتفاء بتأدية صلاة واحدة فقط كل يوم. لأن تأدية خمس صلوات يومياً، فيه إرهاق شديد، وذل وعبودية وخضوع وخنوع. كما أن فيه جهداً وتعباً يصيب الإنسان المسلم من كثرة الصلاة مما يؤثر على عمله وإنتاجه.

وخلصت الكاتبة اليهودية إلى أن عدم تقدم المسلمين فى الصناعة، والعلوم، والاقتصاد، يرجع إلى كثرة صلاتهم، وتواكلهم على الله.

ودعت فى نهاية مقالها إلى ضرورة استعمار الأراضى العربية والإسلامية وتعليمهم الحضارة الحديثة، وأن يعملوا ويتعلموا، حتى يواكبوا نهضة العالم وغزو الفضاء، وإلا أصبحوا وصمة فى جبين الإنسانية.

ولعل الشىء الوحيد الذى أصابت فيه هى دعوة الأمة العربية والإسلامية إلى الأخذ بالنهضة العلمية الحديثة. والقرآن الكريم يحثنا إلى النظر فى ملكوت الله، والكواكب السيارة، ويقسم بها. يقول تعالى فى سورة الواقعة:

﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾.

إنها دعوة للتعرف على أسرار الكون والتى أودعها الله عز وجل فيه، لكى نشارك الإنسانية والدول المتقدمة فى معرفة أسرار الفضاء المحيط بنا من كل مكان.

حرية الزوجة فى إبداء رأيها

ارتفع الإسلام بالمرأة من مرحلة العبودية إلى مرحلة التقدم والرقى بمشاركتها مع الرجل فى اختيار القيادة السياسية والتى تقود دفة الحكم.

فمن حقها أن تختار من تشاء، وأن ترفض من تشاء، وأن تبايع للحكم من تريد، وأن ترفض مبايعة من لا تريد.

فحريتها كاملة غير منقوصة فى كل ذلك، دون تدخل من أحد، أو فرض وصاية عليها من جهات أخرى، أو حتى من زوجها، أو ولى أمرها، أو أهلها. أو من ذوى السلطة والقيادة، وأهل الحل والربط.

ورسول الله ﷺ ساوى بين الرجل والمرأة فى حديث رواه أبو داود، قال فيه:

«إنما النساء شقائق الرجال».

ولم تأت هذه الطفرة الهائلة فجأة، وإنما بدأت تدريجياً وبخطوات مستقرة ومنتظمة، وأخذت بيد المرأة من مرحلة العبودية والرق، ومن مرحلة وأدها تحت الثرى خوفاً من عارها إلى مرحلة التحكم فى حياتها ومصيرها.

يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ (سورة النحل: ٥٨ - ٥٩).

ويقول سبحانه فى سورة التكوير:

﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ (التكوير: ٨ ـ ٩).

ويقول تعالى فى سورة الإسراء: ٣١)

﴿وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾.

وتروى كتب التاريخ الإسلامى أنواعاً كثيرة من عمليات وأد البنات خوفاً من الفقر، أو من سوء ما بشر به.

وبعض هذه القصص يذكرنا بما كان يحدث فى مصر الفرعونية، عندما كان يتم اختيار فتاة جميلة لإلقائها فى النيل، اعترافاً بفضله. وكان يتم تزيينها وارتداؤها أجمل الحلى، وأغلى الملابس، ثم يلقى بها فى أعماق النهر، وكأنها عروس تزف إلى عريسها ليلة زفافها.

وكان يحدث مثل ذلك عند إلقاء البنت ووأدها، حيث كانت بعض القبائل تترك البنت حتى تبلغ السادسة من عمرها، ثم تلبسها الملابس الجديدة، وتزينها، وتضع عليها الطيب. ثم يأخذها أبوها لكى يزفها إلى الموت فى أعماق الأرض، حيث يكون قد حفر حفرة عميقة، ثم يلقى بها داخلها، وثم يهيل عليها التراب، لتدفن إلى الأبد. كما كانت تلقى فى النيل (عروس النيل) فى مصر الفرعونية.

وربما يكون عرب الجاهلية قد أخذوا هذه الفكرة من فراعنة مصر القديمة، خاصة وأنهم كانوا يكثرون من زيارة مصر ومن المؤكد أنهم تأثروا بهذه الفكرة.

وكان بعضهم أشد قسوة من ذلك، وأكثر انعداماً للعاطفة، وانتزاعاً للرحمة من قلبه. فكان يأخذ زوجته وهى فى لحظة الولادة والمخاض، ثم يجلسها فوق الحفرة التى حفرها من قبل استعداداً لهذه اللحظة، فإذا كان المولود بنتاً، ألقى بها فى غيابات الجب، ثم أهال عليها التراب وردمها إلى الأبد.

وبعضهم كانت تأخذه الرحمة، فينتظر عليها حتى تكبر، ثم يرسلها إلى

الصحراء لكى ترعى غنمه، وترتدى جبة من وبر وصوف عقاباً لها.

وبعضهم، كانت رحمته أكثر وأشد بفضل الله وإرادته، فيشفق عليها ويرضى بما قسم له فى الحياة الدنيا، ويضعها تحت رعايته.

ومن هنا نتبين أن المرأة فى الجاهلية، لم تكن لها قيمة. ولم تكن أكثر من وسيلة للمتعة وإنجاب النسل، واستمرار الحياة.

وكان هذا أيضاً هو حال المرأة فى كل المجتمعات القديمة حتى فى أوربا.

والدكتور أحمد غنيم يروى لنا فى كتابه (المرأة منذ النشأة) أن الرومان اعتبروا المرأة مجرد حيوان نجس، لا روح له ولا خلود، ويجب عليها العبادة والخدمة. كما يجب تكميم فمها كالبعير والكلب العقور، لمنعها من الضحك والكلام لأنها أحبولة الشيطان.

وفى (مجمع ماكون) تم طرح سؤال: هل للمرأة روح؟ وهل تعتبر من جملة البشر؟

وكان ذلك تعبيراً عما كان يعتقد من خلال الكتاب المقدس بأنها المسئولة الأولى عن (الخطيئة الأزلية) والتى دمغت البشرية وتوارثتها جيلاً عن جيل، وهى إغراؤها آدم عليه السلام أن يأكل من شجرة الجنة.

تقول التوراة: (فأخذت من ثمرها وأكلت، وأعطت رجلها أيضاً معها فأكل، فانفتحت أعينهما وعلما أنهما عريانان). (سفر التكوين).

ويقول الكتاب المقدس أيضاً: «فالمرأة لا تكون شريكة الرجل، ولا تساويه، بل تمسى فتنة الرجل، وهو يستعبدها لتلد له الأولاد).

ويقول: «وإذا ولدت المرأة أنثى تكون نجسة أسبوعين».

وظلت المسيحية مشغولة طيلة مئات السنين بجعل النساء يخجلن من أمورهن الجنسية. ولقد عرفت النساء جيداً ـ كما قال أوغسطين ولوثر قبل عدة قرون ـ أن تشريع الزواج كان مجرد دواء ضعيف المفعول لمعالجة شرور الجنس.

ولقد كان ينظر إلى جسد المرأة باشمئزاز على نحو خاص.

وكتب أودو الكلينى فى القرن الثانى عشر: أن معانقة المرأة تعنى معانقة كيس من الزبالة.

وكتب أسقف فرنسى، عاش فى القرن الثانى عشر: أن كل النساء، بلا استثناء، مومسات، وهن مثل حواء سبب كل الشرور فى العالم.

وقال الراهب البنديكتى برنار دى موريكس، دون مواربة، فى أشعاره: أنه لا توجد أية امرأة طيبة على وجه الأرض.

وقال الراهب الإنجليزى (إسكندر نكهام): إنه نظراً لأن المرأة لا تشبع جنسياً، فإنها غالباً ما تصطاد بائساً حقيراً لينام معها فى فراشها ليشبع نهمها إذا كان زوجها غير موجود فى لحظة شبقها.

ونتيجة لذلك، كان على الأزواج أن يربوا أطفالاً ليسوا من أصلابهم(١).

ولقد ترسخت أسطورة عدم إشباع النساء جنسياً لدرجة أن روبرت بيرتون أشار إليها فى عام ١٦٢١ باعتبارها شكوى عالمية.

ولعل ذلك يصدق الآن أيضاً فى أوربا وأمريكا، فقد صدرت مؤخراً فى أمريكا دراسة أجرتها إحدى الهيئات المتخصصة مع نساء أمريكا. وكان السؤال المباشر هو: هل لك علاقات جنسية أخرى غير زوجك؟ وهل أنت متأكدة من أن أولادك من صلب زوجك، وإلى أى درجة؟

وكانت إجابة ٧٥٪ منهن بأن لهن علاقات جنسية متعددة، نتيجة لانشغال الأزواج عادة، وعدم وجود وقت لممارسة الحب معاً، مما يدفعهن إلى البحث عن رجال آخرين لإشباع غريزة الجنس.

كما جاء نفس النسبة أيضاً للأولاد، وقالت ٧٥٪ منهن أنهن غير متأكدات من أن أولادهن من أصلاب أزواجهن. فقط هن متأكدات أن أزواجهن يحبون أولادهن جداً. وهذا يكفى.

---

(١) محمد عبد الوهاب فى كتابه تعدد نساء الأنبياء صـ ٢٣٠.

وفى دراسة مماثلة أجريت فى فرنسا منذ عامين أجمعت ٩٢٪ من النساء أن لهن علاقات جنسية متعددة، ومع رجال كثيرين، ومن دول أخرى شرق أوسطية لأن رجالها أقوياء جنسيّاً، ويستطيعون إشباع رغبة المرأة.

فإذا كانت أسطورة عدم إشباع النساء جنسياً ظهرت وانتشرت سنة ١٦٢١ فى أوربا، فمازالت باقية أيضاً حتى اليوم فى أوربا. وعبرت منها إلى الولايات المتحدة الأمريكية. واستراليا وكندا.

وهكذا نرى أن نساء أوربا لم يكن أكثر حظًا من نساء العرب قديماً. وكذلك نساء اليهودية وغيرها فى الهند والشرق الأقصى. الكل كان يرسف فى ذل العبودية وأغلال الرق، واستعباد الرجل لهن وإذلالهن، ومعاملتهن معاملة المنبوذات.

ثم جاء الدين الإسلامى، ليرفع من مكانة المرأة للتتساوى مع الرجل. رفعها من الحضيض والوأد إلى قمة السلطة وتحمل المسئولية والمشاركة فى الحياة السياسية والاجتماعية، وتحمل مسئولية الأسرة.

والمشاركة أيضاً فى الغزوات والحروب، وتضميد جراح المقاتلين وعلاجهم.

ثم من بعد ذلك. كما خرجت السيدة عائشة فى موقعة الجمل لمحاولة الصلح بين الفريقين ولإحقاق حق ارتأته.

ومن قبل ذلك اعترضت نساء النبى على أشياء، وأبدين رأيهن فى أشياء، وأقرهن النبى ﷺ بعد أن اقتنع بسلامة رأيهن.

يقول عز وجل فى (سورة النساء: ١)

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً﴾ .

وبذلك يكون الإسلام قد أقر بحقيقة وحدة الجنس البشرى، وأنهم

جميعاً من أصل واحد. ويقضى على الأقوال الزائفة، ويهدم قواعد التفرقة. ويضع تصوراً جديداً بنظرة شاملة عن الإنسان.

وكلمة إنسان تعنى الرجل والمرأة معاً. وكلاهما من أصل واحد، وينتسبون إلى أب وأم واحدة. سواء كانوا بيضاً أو سوداً، أو بين هذا وذاك.

فالكل راجع إلى منشأ واحد، ومنبت واحد.

فالأب آدم، والأم حواء، فالكل من تراب ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ (سورة فاطر: ١١).

والأبناء والأحفاد من ماء مهين. ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ﴾ (المرسلات: ٢٠ - ٢٣).

وهذا إقرار بحقيقة أن الناس سواسية كأسنان المشط ولا فرق بينهم إلا بالتقوى والعمل الصالح.

وأما القول بأن هناك من يجرى فى عروقهم (دماء زرقاء) كالملوك فى إنجلترا مثلاً. فهذا قول باطل. لأن كل الدماء حمراء وإذا اختلف لونها يكون هناك مرض وفى حاجة إلى علاج. وليس لأنه صاحب حظوة وفضل عن باقى سائر عباد الله.

ومن الغريب أن هتلر، كان قد وضع الجنس الألمانى فوق كل البشر، ووضع العرب فى المرحلة قبل الأخيرة حيث يوجد اليهود.

ومن قبله بآلاف السنين يقول الفيلسوف اليونانى أرسطو: إن الله خلق فصيلتين من الناس، فصيلة زودها بالعقل والإرادة، وهى فصيلة اليونان، وقد فطرها على هذا التقويم الكامل لتكون خليفته فى أرضه، وسيدة على سائر خلقه.

وفصيلة لم يزودها إلا بقوى الجسم وما يتصل اتصالاً مباشراً بالجسم، وهؤلاء هم البرابرة، أى ما عدا اليونان من بنى آدم. وقد فطرهم الله على هذا التقويم الناقص ليكونوا عبيداً مسخرين للفصيلة المختارة المصطفاة.

فمن واجب اليونان إذن أن يعملوا بمختلف الوسائل على أن يردوا هؤلاء إلى المنزلة التى خلقوا لها، وهى منزلة الرق.

وكل حرب يشنها اليونان - كما يقول الدكتور على عبد الواحد فى كتابه (قصة الملكية فى العالم) - لتحقيق هذه الغاية، حرب مشروعة تنبعث من طبائع الأشياء، ولا تستقيم الحياة الاجتماعية وشئون العمل فى نظر أرسطو إلا باسترقاق هؤلاء البرابرة. فبفضل هذا الاسترقاق يتحقق توزيع الأعمال على الوجه الذى يتفق مع طبائع الأشياء.

* * *

ثم جاء الدين الإسلامى، ليطهر المرأة من كل ما علق بها من أدران ومساوئ وأفكار بالية، وليعيد إليها مكانتها الطبيعية إلى جوار الرجل لتشارك فى بناء المجتمع الإسلامى.

وسوف نرى فى هذا الكتاب حكايات عن بعض المسلمات اللاتى شاركن فى الغزوات الإسلامية والحروب، وكيف أنهن أبلين بلاءً حسناً، وكيف دافعت نسيبة بنت كعب عن رسول الله ﷺ فى معركة أحد، وكيف صالت وجالت خولة الكندية فى حرب الروم، وظهرت بمظهر الفرسان فى واقعة (اجنادين)، ثم كيف أثارت بجرأتها وشجاعتها خالد بن الوليد وجند المسلمين.

وكيف أن أم عطية الأنصارية والرُّبَيِّع بنت مِعَوذ وأم حكيم وغيرهن شاركن فى الغزوات، وتضميد جروح المقاتلين، وسقاية العطشى، والترويح عن المرضى بالكلمة الطيبة.

صور كثيرة على مدى التاريخ الإسلامى كله من يوم بدئه إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها تؤكد بطولة المرأة المسلمة العربية.

ولعل مـا يحـدث الآن فى فلسطين خيـر شـاهـد على ذلك ونحن نرى النسـاء وقد شـاركن فى العمليات الانتحـارية، وفجـرن أنفسـهن وسط جنود الأعداء ليقتلن أكبـر عدد ممكن، ومنهن عروس تـركت ابنها الوحيـد طفلاً لم يتجاوز الشهور القليلة.

ومن قـبل شـاهـدنا وسـمـعنا فى الجـزائر عن بطولة جـميلة بوحـريد، وكيف قاومت الاستعمار الفـرنسى، وما فعله بها من تعذيب رهيب يفوق قدرة واحتمال البشر، فلم تهن أو تضعف أو تستسلم.

وستظل الأمة العربية والإسـلاميـة تلد النساء والرجـال الأبطال إلى أن يشاء الله، كما وعدنا الله ورسوله فى كتابه الكريم.

فمازلنا نتذكر أسمـاء بنت أبى بكر، أول فدائيـة فى الإسـلام، ونتـذكـر العذاب الشـديد الذى تحـمله فى صبـر وإيمان شـديد (آل ياسـر) ولو أن هـذا العـذاب وزع على عـشـرات النـاس لماتوا من عـذابهم، ولـكن قـوة الإيمـان فى قلوبهم، استثـارت حـميتهم، وقوت من عـزائمـهم فى مواجـهة كفار مكة، حتى إن النبى ﷺ كان يمر عليـهم - ويرى ما هـم فيـه من عذاب وشـدة، فيـدعو لهم ويقول: «صبراً آل ياسـر فإن موعدكم الجنة».

وأصبحت المرأة عضواً فعالاً فى المجتمع الإسـلامى الوليد، ووقفت إلى جـانب زوجهـا تدافع عن دينها الجـديد. وشجـعها النبى، وهو يستعين برأيهـا، ويـأخذ بمشورتها.

وكانت السيـدة خديجة بما قدمته للنبى من دعم معنوى وتشجيع ودعم مادى، خير مثال على تفانى المرأة المسلمة فى الدفاع عن عقيدتها.

وكـان لرأى زوج الرسـول ﷺ (أم سلمـة) بعـد صلح الحـديبيـة أثر كبيـر فى جمع صـفـوف المسلمين بعـد أن تفـرقـوا، بين راض عن هـذا الصلح، وبين معارض له وكانوا كثرة.

وقد عقد النبى صلح الحديبية مع كفار مكة وكان قاصداً مكة لأداء شعائر العمرة مع أعداد كثيرة من المسلمين. وخاف كفار مكة من دخول المسلمين عليهم، فعقدوا صلحاً مع النبى يتم بمقتضاه، إلغاء العمرة هذا العام، على أن تتم فيما بعد. وقبل النبى. ولكن المسلمين لم يقبلوا واعترضوا على قرار النبى، وعلى الصلح، فقد كانوا كثرة ولم يعودوا يخافون كفار مكة، ثم إنهم أيضاً اشتاقوا إليها، وإلى رؤية أهليهم وأقاربهم بعد أن طال بهم الشوق وتأجج من بعد سنوات الهجرة والغربة عن البلد الحرام.

ورفض المسلمون، العودة إلى المدينة إلا بعد أداء العمرة.

ودخل النبى ﷺ إلى زوجه (أم سلمة) وكانت ترافقه رحلته هذه، وقال لها فيما روت كتب السيرة:

- هلك المسلمون يا أم سلمة، أمرتهم فلم يمتثلوا.

وفى هدوء وصدق قالت له أم سلمة: اعذرهم يا رسول الله. فقد حملت نفسك أمراً عظيماً فى الصلح، ورجعوا دون فتح أو عمرة. فهم لذلك مكروبون.

والرأى أن تخرج ولا تلوى على أحد، فتبدأ بما تريد، فإذا رأوك فعلت، تبعوك، وعلموا أن الأمر حتم لا هوادة فيه، وهم مؤمنون بك، محبوك، مضحون فيك.

فانشرح صدر النبى لرأى أم سلمة وعمل به على الفور. وقام إلى هديه فنحره، ودعا بالحلاق فحلق شعر رأسه.

وعندما شاهد المسلمون النبى يفعل ذلك تبعوه. فقد أيقنوا أن النبى ما يفعل ذلك إلا بإلهام من الله عز وجل، وأنه ولابد وأن يكون فى الأمر خير للإسلام ولهم.

حتى عمر بن الخطاب والذي كان يظهر اعتراضه على فكرة العودة إلى المدينة دون دخول مكة وأداء العمرة.

وكان أبو بكر يطيب خاطره، ويقنعه أن فى الأمر شيئاً وأن النبى لابد وأن يكون موحياً إليه بما يفعل. سارع هو الآخر مع أبى بكر والمسلمين إلى نحر الهدى، وحلق الشعر، والاستعداد إلى العودة إلى المدينة المنورة.

وعلم المسلمون من بعد ذلك، أن صلح الحديبية كان فتحاً كبيراً على الإسلام والمسلمين.

يقول تعالى:

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾. (الفتح: ١ ـ ٤).

وهكذا كان لرأى أم سلمة دور كبير فى القضاء على الشك وإعادة توحيد صفوف المسلمين.

ولم يستنكف النبى أن يأخذ برأى امرأة، رأى زوجته، وإنما علم أنه رأى فيه الخير كله له وللمسلمين أجمعين، فأخذ به وطبقه من فوره. وتبعه المسلمون، وكان أن فتح الله عليهم هذا الفتح المبين.

وكانت زوجات النبى، يحاورنه فى الرأى، ويناقشنه حتى يتبينوا ما يردن. ولم يكن يتقبلن الأمور على علاتها. خاصة وأن رسول الله ﷺ هو الذى ينطق بها، وما ينطق عن الهوى.

لكن النبى أراد من خلال ذلك إرساء مبدإ للأزواج، أن الحياة مشاركة، وتبادل فى الرأى، والأخذ بالرأى الأحسن وصولاً إلى حياة أسرية مستقرة.

ولم يكن العرب قد ألفوا ذلك، أو تعودوا عليه، فمازالت رواسب الماضى عن المرأة مترسبة فى أعماقهم، وأنه لا رأى لها، وأن الرأى هو ما يراه الرجل والزوج فقط.

وحدث أن زوجة عمر بن الخطاب، حاورته وناقشته فى أمر ما لم تقتنع به، وأخبرت عمر برأيها فيه.

فإذا عمر يؤخذ من ذلك أخذاً شديداً، وأوشك أن يمنعها من استمرار حوارها، وفرض رأيها بالقوة، لولا أنها عاجلته بقولها:

- عجباً لك يا ابن الخطاب.. ما تريد أن تُراجع أنت. وإن ابنتك لتراجع رسول الله ﷺ، حتى يظل يومه غاضبا.

وركب الغضب عمر، فقد كان فيه حب لرسول الله لا يدانيه حب آخر. فانطلق صوب ابنته يسألها صحة ذلك. وهل هى حقا تراجع رسول الله ﷺ.

فقالت له:

إنا والله لنراجعه.

ولم يصدق عمر أذنيه، وكلام ابنته، وهى تؤكد له ذلك. وأنها وكل نساء النبى يراجعنه.

وذهب عمر غير مصدق إلى (أم سلمة) يسألها الخبر اليقين. فإذا بها تصدق على كلامها، وزادت عليه قولها:

- عجباً لك يا ابن الخطاب.. قد دخلت فى كل شىء حتى تبتغى أن تدخل بين رسول الله ﷺ وأزواجه؟.

ويصف عمر بن الخطاب هذه اللحظات بقوله: فأخذتنى - يقصد أم سلمة - أخذاً كسرتنى به عن بعض ما كنت أجد.

فقد كان عمر وأصحابه يرون فى رسول الله ﷺ النبى المرسل الذى لا يُراجَع، ولا يخطئ، ولا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحى يوحى إليه.

أما نساء النبى، فكن يرين فيه الزوج. وكان هو راضياً بذلك، مقتنعاً به، مقرّاً له، غير ضجر ولا كاره له.

فقد كان يرسى قواعد الحياة الزوجية لمن يأتى من بعده من المسلمين، ليعرفوا أن النساء والزوجات خلقن من ضلع أعوج(١).

وعن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، واستوصوا بالنساء خيراً، فإنهن خلقن من ضلع وإن أعوج شىء فى الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته وإن تركته لم يزل أعوج. فاستوصوا بالنساء خيراً..».

وكان النبى يرى أن هناك حقوقا للزوجة كزوجة، وصاحبة بيت لها حقوق وعليها واجبات. ومن ثم يجب أن تحصل عليها كاملة وأن تشعر أن من حقها كزوجة أن تناقش النبى وأن تعرف رأيه، وأن تشاركه الرأى، لكى تستطيع الاستمرار فى الحياة الزوجية.

وأما حياته كنبى ورسول، فهذه مسألة أخرى. ولم يخلط أبداً بين حياته الزوجية، وأسرار بيته، وخلافاته معهن، وبين حياته ورسالته ودعوته. كان لكل منهما مساره الخاص.

ولم يحاول أن يفرض مكانته بين المسلمين على زوجاته - وكان فى استطاعته أن يفعل ذلك. لكنه ترك لكل شىء مساحته، ومكانه، ووجوده، وحدوده، ولم يجعل أياً منهما يتجاوز حدود الآخر أو يطغى عليه، أو حتى يتجاوزه قليلاً.

* * *

وارتفع الإسلام بمكانة المرأة درجة أخرى، لم تحصل عليها لسنوات طويلة - وربما حتى اليوم - نساء أوربا. فقد أشركهن فى الحياة السياسية، وحق اختيار الحاكم أو خليفة المسلمين وأميرهم، وأعطاهن حق بيعته:

---

(١) راجع كتاب مكائد النساء فى حياة الرسل والأنبياء لفوزى شعبان إصدار دار الأحمدى للطباعة والنشر.

يقول تعالى فى سورة الممتحنة:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لاَّ يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلا يَسْرِقْنَ وَلا يَزْنِينَ وَلا يَقْتُلْنَ أَوْلادَهُنَّ وَلا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (الممتحنة: ١٢).

وكان النبى يأخذ المبايعة بصيغة واحدة، من النساء ومن الرجال، دون تفرقة. بصيغة الجمع.

وكانت بيعة المرأة مستقلة عن بيعة الرجل. بمعنى أن لكل منهما بيعة ولو كانا زوجين. فلكل منهما شخصية مستقلة فى الحياة العامة.

ويتفق جمهور العلماء والمفسرين على أن كل ما جاء فى القرآن الكريم من خطاب موجه إلى المؤمنين والمسلمين بصيغة المفرد المذكر والجمع المذكر مما يتصل بالتكاليف والحقوق والأعمال العامة يعتبر شاملاً للمرأة، إذا لم يكن فيه قرينة تخصيصية.

وإذا كان من حق المرأة أن تمارس مستقلة حياتها التجارية والمالية وإدارة اقتصادها ومشاريعها، فمن حقها أيضاً أن يكون لها ذمة مالية مستقلة، وأن تحتفظ باسمها بعد الزواج.

وتستطيع أن تهب، وتتصدق ـ وتتملك العقارات، وأن تقيم القضايا فى المحاكم.

فالمرأة المتزوجة فى الإسلام لها شخصيتها المدنية الكاملة، وثروتها الخاصة المستقلة عن شخصية زوجها وثروته. ولا يجوز لزوجها أن يحصل من ثروتها على شىء قل أو كثر إلا برضاها وموافقتها الصريحة والمعلنة والموثقة. ومن حقها أن تتعلم، وأن تتوظف فى الدولة، وأن تحصل على ذات المميزات والمرتبات التى يحصل عليها الرجل. وإن كانت هناك زوجات كثيرات قد فضلن الجلوس فى البيت، والعودة إلى الأسرة لرعاية الأولاد والعناية بهم، وتوجيههم الوجهات الصحيحة حتى لا يضلوا فى هذه الأيام

الرديئة من عمر الأمة الإسلامية.

وهو أمر فى رأيى محمود وحسن. خاصة وأن الدولة المصرية قد وفرت لهن حق العودة إلى أعمالهن بعد انتهاء إجازة الحضانة والرعاية. كما منحت بعضهن إجازات بنصف راتب إن هن رغبن فى ممارسة نصف العمل فقط بنصف الوقت.

وكل هذا يسهل الأمر على المرأة المسلمة للعودة إلى بيتها لرعاية أسرتها وأولادها، الذين هم خير استثمار على ظهر الأرض.

* * *

واستمرت المرأة المسلمة تؤكد وجودها، وشخصيتها واعتراضها على ما لا يعجبها. وتصحيح ما اعوج فى الحياة العامة. جنبا إلى جنب مع الرجل، وعلى قدم المساواة معه.

فقد حدث ذات يوم أن رأى عمر بن الخطاب رجلاً وامرأة على فاحشة. فجمع الناس وخطب فيهم: ما قولكم أيها الناس لو رأى أمير المؤمنين رجلاً وامرأة على فاحشة؟

فقام على بن أبى طالب وقال له:

- يأتى أمير المؤمنين بأربعة شهداء أو يُجلد حد القذف، شأنه فى ذلك شأن سائر المسلمين.

ثم تلا قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (النور: ٤).

فسكت عمر. ولم يعاقب المخطئَيْن.

وكما وقف على بن أبى طالب فى وجه عمر بن الخطاب يصلح له خطأه، ويرشده إلى الصواب من الأمر.

وقفت امرأة فى وجهه أيضاً وأعادته إلى تصويب رأيه.

فقد وقف ذات يوم يخطب ـ وهو خليفة المسلمين وأميرهم ـ ويطالب الناس بعدم المغالاة فى المهور تيسيراً وتسهيلاً للزواج.

فقامت امرأة كانت بين النساء المستمعات إلى خطبته وقالت:

ـ يا ابن الخطاب. أتحدد أمراً أطلقه الله، وقد قال تعالى:

﴿وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ (سورة النساء: ٢٠).

فرجع عمر عن رأيه وقال كلمته الشهيرة الخالدة.

أصابت امرأة. وأخطأ عمر.

وكانت المرأة المسلمة شجاعة قوية، جريئة فى الحق، وفى قول كلمة الحق. ولم تخف من قولها لأمير المؤمنين وخليفتهم. ولم تتردد.

لم يرهبها سلطان الحاكم، ولا قوة نفوذه، ولا عظمة ملكه، ولا قوة جنده، ولا توسعات الإسلام فى بلاد كثيرة فى أيامه. مما يضفى عليه هالة، وقوة، ورهبة.

وإنما واجهت أمير المؤمنين بكلمة الحق. فعدل عمر عن الخطأ، وعاد إلى الصواب فى الرأى.

وهكذا كانت نساء المسلمين، ورجالهم، فى أيام عظمة الإسلام ومجده وقوته.

* * *

المرأة مساوية للرجل

من إعجاز القرآن الكريم، أنه ساوى بين الرجل والمرأة فى الكلمة واللفظ (إنسان - وزوج).

وأصبحت كلمة (إنسان) تعنى الرجل والمرأة على حد سواء. وكأن فى هذا تكريم آخر للمرأة بعد أن خصص لها سورة باسمها (سورة النساء) تعد من أمهات الكتاب، ولم يخصص للرجل مثلها.

ومن تكريم الله عز وجل للمرأة فى القرآن الكريم أن ساوى بينها وبين الرجل فى اللفظ والكلمة، وأصبحت كلمة إنسان، تعنى كليهما معاً.

ففى سورة العنكبوت:

﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا﴾ (الآية: ٨).

وفى سورة النجم:

﴿وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ﴾ (الآيتان: ٣٩، ٤٠).

وفى سورة الرحمن:

﴿الرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الإِنسَانَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ (الآيات: ١ - ٤).

وفى سورة الإسراء:

﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا

﴿١٣﴾ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً﴾ (الآيتان: ١٣ ـ ١٤).

وساوى القرآن الكريم بينهما أيضاً فى كلمة (زوج)، فهى تطلق على الرجل والمرأة على السواء. ومن ذلك:

فى سورة البقرة:

﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ (الآية: ٣٥).

وفى سورة الأنبياء:

﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾ (الآية: ٩٠).

كما حملها القرآن الكريم ذات المسئولية التى يتحملها الرجل، فهى مسئولة مسئولية كاملة عن أعمالها، وهى تثاب إن عملت صالحاً، وهى تعاقب إن أساءت. وفى كلا الأمرين، هى حرة التصرف، مسئولة عن عملها، وهذا لم يحدث لها من قبل فى الديانات السابقة:

فالكتاب المقدس (العهد القديم والعهد الجديد) حملها مسئولية خطيئة البشرية الأولى، بإغرائها آدم ليأكل من الشجرة، فكان جزاؤهما، الطرد من الجنة، وتحمل كل أبنائهما من بعدهما وزر هذا الصنيع.

وهى أيضاً نجسة، ونجساتها ضعف نجاسة الرجل، «إذا حبلت امرأة وولدت ذكراً، تكون نجسة سبعة أيام، ثم تقيم ثلاثة وثلاثين يوماً فى دم تطهيرها. وإن ولدت أنثى، تكون نجسة أسبوعين، ثم تقيم ستة وستين يوماً فى دم تطهيرها» (لاويين ١٢: ١ ـ ٥).

والرجل سيد المرأة ـ كما جاء فى الكتاب المقدس ـ وهى «لا تكون شريكة الرجل، ولا تساويه، بل تمسى فتنة الرجل، وهو يستعبدها لتلد له الأولاد».

وهو يبيعها ويشتريها، ويفعل بها ما يشاء:

«إذا باع رجل ابنته أمة» (خروج ٢١: ٧).

ولكن الإسلام رفع من مكانتها، وساوى بينها وبين الرجل فى المسئولية، وفى الحياة يقول النبى ﷺ «إنما النساء شقائق الرجال».

ويقول عز وجل فى سورة آل عمران:

﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ﴾ (الآية: ١٩٥).

وقال فى سورة النساء:

﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ (الآية: ١٢٤).

ويقول أيضاً:

﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ﴾ (النساء: ٣٢).

ويقول عز وجل فى سورة الممتحنة:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لاَّ يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلا يَسْرِقْنَ وَلا يَزْنِينَ وَلا يَقْتُلْنَ أَوْلادَهُنَّ وَلا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (الآية: ١٢).

والآية الكريمة تؤكد حق المرأة فى المبايعة، مثلها مثل الرجل.

وهذا ينسحب أيضاً على حقها هذه الأيام فى مبايعة الحكام واختيار من تشاء فى الانتخابات التى تجرى لاختيار من يمثل الأمة فى البرلمان أو فى رئاسة الدولة، أو فى أى انتخابات مماثلة تهدف إلى صلاح حال المسلمين.

فالإسلام أعطى المرأة حق المبايعة وحق الاختيار، مثلها فى ذلك مثل الرجل سواء بسواء.

وهذا تكريم للمرأة وتعظيم لشأنها لا أحسب أنها رأته أو عرفته على مدى تاريخها الطويل، ومنذ أن هبطت من الجنة مع آدم إلى الأرض.

وهو أيضاً حق لم تعرفه المرأة فى أوربا وفى أمريكا وغيرهما من الدول إلا بعد مئات السنين، ولايزال فى بعضها منقوصاً حتى اليوم.

والإسلام أعطى المرأة حق القبول أو الرفض فى الزواج، فلا إكراه للمرأة فى الزواج. إن شاءت قبلت وإن شاءت رفضت ولا عقاب عليها ولا إكراه.

وعندما اختار رسول الله ﷺ (عليا) زوجا لابنته فاطمة، اعترضت وقالت له: ألم تجد غير فقير قريش لتزوجنى منه.

ولم يجبرها النبى - وكان فى مقدوره ذلك - لكنه تركها على سجيتها، حتى تبينت أنه أمر السماء، ورغبة إلهية أن تتزوج منه. فوافقت دون إكراه. وكان من نسلها ونسل على رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كل من ينتمون إلى النبى على هذه الأرض وحتى نهاية الكون.

وتروى كتب التفسير: أن امرأة اسمها خنساء بنت خذام الأنصارية، زوجها أبوها من رجل بدون رضاها، فأتت إلى رسول الله ﷺ، وشكت إليه أمرها، فرد نكاحها. (رواه البخارى).

وجاءت فتاة بكر إلى رسول الله، فشكت له أن أباها زوجها من رجل وهى كارهة له، فخيرها النبى ﷺ بين قبوله ورفضه. (رواه أبو داود والنسائى وابن ماجه).

وعن السيدة عائشة، أن النبى ﷺ قال: «لا تنكح الأيم حتى تُستأمر، والبكر حتى تستأذن».

فقالت عائشة:

يا رسول الله، البكر تستحى.

قال: «رضاها صمتها» (رواه البخارى).

ويروى بريدة: جاءت فتاة إلى رسول الله ﷺ فقالت: إن أبى زوجنى من ابن أخيه ليرفع بى خسيسته.

فجعل النبى الأمر إليها.

فقالت: قد أجزت ما صنع أبى، ولكنى أردت أن تعلم النساء أن ليس للآباء من هذا الأمر شيء. (رواه النسائى وأحمد وابن ماجه والترمذى).

وحرمت الشريعة الإسلامية نكاح الشغار، وهو مقايضة امرأة بامرأة أخرى. وقال النبى ﷺ «لا شغار فى الإسلام». حيث لا مهر إنما هذه بدلاً من تلك.

ذلك أن هذا النوع من الزواج يلغى حرية المرأة وحقها فى اختيار شريك حياتها، وهذا يتنافى مع ما جاء به الإسلام، وكرم به المرأة. وكان هذا النوع من الزواج معروفاً فى الجاهلية. وكانوا يعملون به تخفيفاً من المهر، حيث كانوا يغالون فيه باعتباره علامة شرف، وارتفاع منزلة.

ومن أسف، أن ذلك مازال يحدث حتى اليوم حتى فى بلادنا الفقيرة، ذات الدخول المتوسطة أو المعدومة ومع ذلك يشترط أهل العروس أن يدفع العريس مبلغاً كبيراً من المال، وأن يحضر الشقة وكثيراً من الأثاث والكهربائيات ولعل ذلك هو الذى دفع كثيراً منهم إلى الزواج (عرفياً) أو زواج (البوى فرند) أو غيرهما من ألوان الزواج والتى أصبحنا نسمع بها هذه الأيام فى الجامعات..

فالأهل مسئولون مسئولية كاملة عن هذه الإفرازات الغريبة والتى ظهرت فى مجتمعنا، وكأنها نبات شيطانى، نبت فجأة، وفى غيبة من الرقابة والإشراف والمتابعة.

ولو أنهم أخذوا بما قال به رسول الله ﷺ لرجل لم يكن يملك شيئاً يدفعه كمهر لعروسه:

«التمس ولو خاتماً من حديد». (رواه البخارى ومسلم) لانتهى الأمر.

وسوف يلاحظ القارئ ما جاء فى هذا الحديث الشريف من تبسيط

لأمور الزواج، بدرجة يتحملها الفقير المعدم أيضاً، ولا تحط من كرامته أو قدرته أو مكانته. ذلك أن العبرة بالمعنى وليس بالقيمة.

فالرسول ﷺ، نزل بالمهر إلى (خاتم من حديد) ولكننا نرى فى الديانة المسيحية أن يكون (الخاتم من ذهب) «ذلك لأنه أثمن المعادن ويرمز إلى المحبة التى هى أعظم المواهب» (أكو ١٣ : ١٣)، ولم يخبرنا أحد ما هى الصلة بين المحبة والذهب، كما أن الذهب لم يعد أثمن المعادن، فهناك الآن الألماس والبلاتين وغيرهما من الاكتشافات العلمية والتى تتم كل يوم، إضافة إلى اللؤلؤ والجواهر.

فالإسلام وهو يقر هذه الحقيقة، يؤكد أن العلاقة الزوجية، هى علاقة إنسانية بالدرجة الأولى، وهى علاقة نسب ومصاهرة وتقارب، ولا يمكن أن تقدر بالمال أو الذهب، وإنما بسَّطها لتصل إلى أن يرمز إليها بخاتم من حديد.

فخاتم الزواج رمز على المحبة فى الارتباط. ولا يهم إن كان من ذهب أو الماس أو من حديد.

بل أن النبى ﷺ، لم يجد عند رجل حتى ولو خاتماً من حديد ليقدمه مهراً إلى عروسه، فسأله النبى:

- «ما معك من القرآن؟»

قال الرجل:

- معى سورة كذا.. وسورة كذا.. وكذا.

قال له النبى:

- «أتقرؤهن عن ظهر قلب؟»

قال الرجل:

- نعم يا رسول الله.

قال النبى:

«اذهب، فقد زوجتكما بما معك من القرآن». (رواه البخارى).

وفى حديث آخر لرسول الله قال:

«خير الصداق أيسره» (رواه أحمد).

وليس هناك من تشجيع لإقامة أسرة جديدة، وإقامة علاقات زوجية سعيدة، هانئة رضية، ليس عليها ديون مالية، أو التزامات مادية، أكثر من هذه التسهيلات والتيسيرات التى قدمها النبى ﷺ إلى المسلمين وشبابهم لكى يتزوجوا ويتناسلوا ويتكاثروا حتى يباهى بهم الأمم يوم القيامة.

وكأن رسول الله ﷺ يطل علينا من أكثر من أربعمائة وألف سنة هجرية ليذكرنا بما قال وفعل من أجل التيسير على شباب المسلمين للزواج وإقامة أسرة إسلامية.

ونحن نرى المغالاة فى المهور، والطلبات، رغم الغلاء الفاحش الذى يطحن أمة الإسلام فى كل مكان، وأكثرهم من الفقراء ومتوسطى الحالة، نتيجة، تفشى الانحراف والسرقات والرشوة.

ومن إكرام الإسلام للمرأة أيضاً، أنه لم يطلق على المهر ثمناً أو قيمة للمرأة، وإنما أطلق عليه كلمة (صداق أو نِحْلة).. فالمسلم يتزوج على الصداق المسمى بين ولى الزوجة والزوج. وكلمة الصداق والنحلة تعنى الهبة أو الهدية..

فالصداق، أو المهر، هو هبة وهدية من الرجل إلى زوجه، كثر أو قل، سواء أكان خاتماً من حديد أو حفظ آيات من القرآن الكريم أو ملايين الدراهم. لا فرق بينها. ذلك أن العلاقة الزوجية هى أولاً وأخيراً علاقة إنسانية متساوية الأضلاع والأطوال بين الرجل والمرأة، كل يحمل مسئوليته بقدر ما خلقه الله عز وجل له.

ورسول الله ﷺ يقول:

«تهادوا تحابوا» رواه البخارى.

ويقول ابن القيم، تعقيباً على حق المرأة فى القبول أو الرفض فى الزواج:

إن البكر البالغة العاقلة الرشيدة لا يتصرف أبوها فى أقل شىء من ملكها إلا برضاها، ولا يجبرها على إخراج اليسير منه إلا بإذنها. فكيف يجوز أن يخرج نفسها منها بغير رضاها؟! ومعلوم أن إخراج مالها كله بغير رضاها أسهل عليها من تزويجها بمن لا تختار.

لقد احترم الإسلام المرأة وكرمها، ووضعها فى المكانة العليا اللائقة بها.

وكان رسول الله ﷺ يقول عن عائشة رضي الله عنها: «خذوا نصف دينكم عن هذه الحمُيراء» وهذا يعنى إنصافاً من النبى للسيدة عائشة، وكل نساء المؤمنين، إن تفقهن فى دينهن، وجعل من المرأة داعية دينية، ومفتية فى أمور دينها ودنياها.

هذا ما جعل المسلمين يقدرون السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها. الصديقة بنت الصديق.

فأكدوا بذلك، أنها كانت مثلاً سامياً للمرأة المسلمة فى علمها ودينها. وصلاحها وتقواها، وزهدها وعفتها، وشجاعتها.

ولعل حديث رسول الله، هو الذى دفعنى إلى الكتابة فى «صحيفة الأخبار» مناشداً رئيس جامعة الأزهر السابق (الدكتور أحمد عمر هاشم فى هذا الوقت) أن يشجع طالبات الأزهر على العمل فى الدعوة الإسلامية فى المساجد، حتى تأتى إليهن نساء المسلمين يسألنهن فيما غاب عنهن من أمور الدين والدنيا، خاصة وأن هناك أموراً مازالت نساء المؤمنين تستحى من ذكرها أمام الرجال رغم أنه لا حياء فى الدين.

كذلك دعوته أيضاً لأن يكون منهن مبشرات وداعيات فى دول أفريقيا

وآسيا، حيث يجهل أهلها وإلى اليوم مبادئ وأصول الدين الإسلامى الحنيف، ولعل من أدى فريضة الحج أو أدى العمرة وخاصة فى رمضان وشاهد ما عليه نساء أفريقيا بالذات، من جهل بأمور دينهن سواء فى الملابس أو الحديث، وفى أداء مناسك الحج والعمرة يؤيد ذلك بشدة.

وطلبت منه أن يهتم بدراسة اللغات الأجنبية الحية مثل الإنجليزية والفرنسية، لأنها أصبحت لغة هذه الدول نتيجة للاستعمار الإنجليزى أو الفرنسى لها. وأن يكون ذلك للنساء والرجال على حد سواء. لأننا أصبحنا فى حاجة ماسة لمن يعرف لغة أجنبية فمن عرف لغة قوم أمنهم، وأمن شرورهم، ونجح فى مهمته فى نشر الدعوة الإسلامية بالكلمة الطيبة. كما انتشر من قبل بها فى أندونسيا والصين وفى أمريكا وأوربا حالياً.

وقد نقلت إلينا وكالات الأنباء يوم الإثنين ٣ من محرم الموافق ٢٣ فبراير سنة ٢٠٠٤ خبراً تصدر الصفحة الأولى من جريدة الأهرام يقول بالنص: «نشرت صحيفة (صنداى تايمز) أمس أن نحو ١٤ ألف بريطانى، بعضهم من صفوة المجتمع قد اعتنقوا الدين الإسلامى أخيراً.

وأشارت الصحيفة فى مقال كتبه نجل اللورد (جون بيرد) المدير العام السابق لهيئة الإذاعة البريطانية (بى. بى. سى) والذى اعتنق الإسلام، إلى أن من بين الأسماء التى اعتنقت الإسلام أخيراً، الحفيدة الكبرى لرئيس وزراء بريطانيا الأسبق (كاربرت إسكورتى)، والثرى الشهير (بيرل باريلا) وعدداً من لاعبى كرة القدم والمغنين».

وآخر إحصائية نشرت فى فرنسا أن هناك ما يزيد عن خمسة ملايين مسلم يعيشون فى فرنسا حالياً، وأنهم فى تزايد بصفة مستمرة.

وكان ذلك بسبب إصدار الحكومة الفرنسية قانوناً يمنع تلميذات المسلمين بها من ارتداء الحجاب فى المدارس الحكومية، نتيجة للضغوط الأمريكية فى هذا الشأن بعد أحداث ١١ سبتمبر فى أمريكا والحديث عن

الإرهاب والإرهابيين المسلمين.

ومع ذلك فإن الإسلام ـ رغم أنف الرئيس الأمريكى بوش الابن ـ يتزايد وينمو ويقبل عليه الكثير داخل الولايات المتحدة الأمريكية ذاتها ـ رغم كل ما يقوم به من عداء للإسلام والمسلمين، سواء داخل أمريكا، أو فى بعض بلاد الإسلام والمسلمين رغماً عنهم.

ومن الطريف أن أحد زعماء اليهود فى أوربا ـ لا أذكر اسمه للأسف ـ قال من أيام بمناسبة الإجراءات الفرنسية ضد حجاب المرأة المسلمة أنه يتوقع خلال خمسين سنة قادمة أن تصبح أوربا مسلمة وتصبح الديانات الأخرى أقلية.

أيضاً فقد وجهت الدعوة إلى مدير جامعة الأزهر من قبل (د. أحمد عمر هاشم) وهو فى السلطة أن يهتم بالفنانين والفنانات الذين اعتزلوا العمل بالفن حبّاً فى الإسلام.

وأن يخصص لهم دورات تثقيفية مكثفة فى أمور الدين كلها، وأن يستغلهم ـ كما تفعل المسيحية والفاتيكان ـ فى الدعوة إلى الإسلام فى الدول الأفريقية والآسيوية والتى مازالت ترسف فى قيود الجاهلية والكفر وعدم الإيمان بإله واحد خالق الكون كله.

وعادة ما يكون رجال الفن من خيرة الدعاة ـ ليس لأنهم أكثر ثقافة دينية ـ وإنما لأنهم أكثر شهرة من رجال الدين وربما رجال السياسة أيضاً، وأكثر خبرة بطرق الحديث واجتذاب الناس إليهم.

وهى دعوة لا أزال أمل أن يأخذ بها كل من يتولى المسئولية فى جامعة الأزهر مستقبلاً، لنشر الإسلام فى أفريقيا وآسيا وكل الدنيا.

ويحضرنى هنا حديث قاله لى صديق (شماس) فى إحدى الكنائس المصرية فى شبرا بأن رجال الدين المسيحى والذين تبعث بهم الكنيسة الأرثوذكسية إلى أفريقيا وآسيا للتبشير والدعوة إلى المسيحية يواجهون

صعوبات كثيرة، ولا يقبل عليهم أحد، ذلك أن الديانة المسيحية تدعوهم إلى اتخاذ زوجة واحدة فقط، وهذا ينافى ما جبلوا عليه فى أفريقيا خاصة من تعدد النساء.

وكان هذا السبب الرئيسى فى عدم الإقبال عليهم، لدرجة أن الكنيسة طلبت منهم عدم التحدث فى هذا الأمر عند التبشير.

ومن هنا يمكن للدعاة المسلمين أن يجدوا حقلاً خصباً فى الدعوة إلى الإسلام.

وقد أطلق الإسلام على عقد الزواج (ميثاقاً غليظاً) نظراً لقيمته الكبيرة، وأنه رباط أسرة إسلامية، وعهد قوى يتعذر حله، فيربط القلوب، ويحفظ المصالح، ويندمج به كل منهما فى الآخر.

يقول عز وجل: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ (البقرة: ١٨٧).

ولا أعرف أن هناك تعبيراً أقوى من ذلك للدلالة على مدى متانة وقوة العلاقات الزوجية بين الرجل وامرأته. فهى لباس له وهو لباس لها.

ويقول عز وجل فى سورة النساء:

﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ (الآيتان: ٢٠ - ٢١).

ويقول أحمد عبد الوهاب[1]: وإذا كان المتتبع لكلمة (ميثاق) ومواضعها التى وردت فيها فى القرآن الكريم، لا يكاد يجدها تأخذ مكانتها فى التعبير القرآنى إلا حيث يأمر الله بعبادته وتوحيده، والأخذ بشرائعه وأحكامه، فإنه يستطيع - وقد جاءت فى شأن الزواج - أن يدرك عن طريق قريب، المكانة السامية التى وضع الله الزواج فيها، وجعله فى التعبير عنه صنوا للإيمان بالله وشرائعه وأحكامه.

(١) فى كتابه تعدد زوجات الأنبياء.

مشاركة المرأة فى الحرب

شاركت المرأة المسلمة الرجل فى حروبه وغزواته كما سبق القول، وكانت تقف جنباً إلى جنب معه، تساعده، وتجهز له أدوات القتال، أو تداوى جروح المقاتلين والذين أصابهم مكروه فى الحرب.

فى غزوة أحد شاركت السيدة عائشة ﵂ فى القتال وشهرت سيفها فى وجه الأعداء ولتدافع به عن رسول الله ﷺ.

وشاركتها أم سلمة فى الدفاع عنه، ومواجهة الأعداء عندما تكاثروا على النبى، بعد أن ترك الرماة أماكنهم للحصول على الغنائم، وأدرك ذلك خالد بن الوليد والذى لم يكن قد أسلم بعد، فالتف من حول جيش المسلمين وحاصرهم.

وسقط الرسول فى حفرة، وتقدمت نسيبة بنت كعب تدافع عن الرسول وتعطيه السهام لكى يرمى بها المشركين، وعندما تكاثر الكفار على رسول الله، نزعت نسيبة سيفها وانقضت على جموع الكفار تقاتلهم، وتشتت جمعهم وهى تصيح: وا محمداه.

وبعثت صيحتها فى نفوس الكفار الرعب والخوف، وهم يرون نسيبة تنقض على الواحد منهم دونما خوف أو وجل تبغى هلاكه وقتله، فيفر من أمامها خوفاً من غضبها ودفاعها عن رسول الله وما يحدث له.

وكان النبى ينظر خلفه وأمامه ويمينه وشماله فلا يجد سوى نسيبة تقاتل دونه فى كل اتجاه وفى كل مكان، وكأنها ألف مقاتل يدافع عن النبى.

وأصابها الأعداء، ونزفت جروحها بشدة، وجرح كتفها جرحاً بليغاً، لكنها لم تستسلم، ولم تضعف، وظلت تدافع عن النبى حتى سقطت من الإعياء ونزيف الدم.

وعندما أفاقت كان أول سؤال لها:

كيف حال رسول الله؟ هل أنجاه الله؟

فأجابوها: بنعم ولكن لم يطمئن قلبها إلا بعد أن سألتهم أن يساعدوها لكى ترى رسول الله ﷺ.

وقالوا لها: لِمَ لَمْ تسألى عن زوجك زيد بن عاصم وعن ابنيك حبيب وعبد الله؟

فقالت: أخبرونى أولاً ماذا تم لرسول الله؟

وسارت معهم، حتى وصلت إلى حيث رسول الله ﷺ. وعندما رأته حمدت الله على سلامته. فدعا الرسول لها بالشفاء، وحسن الجزاء.

وكان النبى يقول: «ما التفت يميناً ولا شمالاً إلا وأنا أراها تقاتل دونى».

وبعد موت النبى وتولى أبى بكر الصديق الخلافة، وقيامه بحروب الردة ضد مسيلمة الكذاب بأرض اليمامة، طلبت من أبى بكر أن تذهب مع جيش المسلمين لمحاربة أعداء الله. ولكن ابنها حبيب، طلب منها البقاء على أن يذهب هو مع جيش المسلمين.

وأسره مسيلمة الكذاب، وسأله أن يرتد عن الإسلام، ويعترف به نبيًا ورسولاً، كما كان يعترف بمحمد ﷺ نبيّا ورسولاً. ولكنه رفض وتمسك برفضه. فأخذ مسيلمة يقطعه قطعاً قطعاً حتى استشهد وهو يقول: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله.

وعندما علمت نسيبة باستشهاد ابنها، سارعت إلى المشاركة فى القتال، وأظهرت من الشجاعة والبطولة ما بعث الخوف فى نفوس المرتدين،

حتى تجمعوا عليها وأصابوها فى ذراعها بضربة سيف أطاحت به، وقطع ذراعها. فلم تخف أو تهرب وإنما صاحت بابنها عبدالله بن زيد وقالت له: أنت ذراعى الآن، فلا تترك عدو الله حتى تقتله.

فانطلق عبد الله إلى حيث مسيلمة الكذاب، ولم يتركه حتى شارك فى قتله.

وعادت نسيبة من اليمامة بعد أن فقدت أحد أبنائها، وبذراع واحدة بعد أن كان لها ذراعان، وبسيف ملطخ بدماء مسيلمة الكذاب. وبعد أن شاركت فى إخماد فتنة كبيرة كادت أن تعصف بالاسلام فى بدايته، وبعد موت رسول الله ﷺ.

وقد اعترف عمر بن الخطاب برجاحة عقل أبى بكر الصديق فى إعداده لهذه الحرب، ونجاحه فى إخماد الفتنة والقضاء على الردة، مما كان له الأثر الكبير فى استعادة المسلمين لهيبتهم وقوتهم بعد ذلك.

وكان عمر بن الخطاب لا يؤيد قيام هذه الحرب فى بداية الأمر. ثم اعترف بخطأ رأيه.

وشاركت نساء مسلمات كثيرات فى غزوات المسلمين لمداواة الجرحى، وخدمة الجنود.

الربيع بنت معوذ: قالت: كنا نغزو مع رسول الله ﷺ، نسقى القوم ونخدمهم، ونداوى الجرحى، ونرد القتلى إلى المدينة.

أم عطية الأنصارية: قالت: غزوت مع رسول الله ﷺ سبع غزوات، أخلفهم فى رحالهم، وأصنع لهم طعامهم، وأداوى الجرحى، وأقوم على الزمنى (المرضى).

كما اشتركت **أم حكيم** زوجة عكرمة بن أبى جهل وبنت الحارث، فى معركة بين الروم والمسلمين وهى مازالت بعد عروساً فى أيامها الأولى من الزواج.

خولة الكندية: وكانت من نساء المسلمين الأبطال. وهى أخت ضرار بن الأزور، فقد شاركت فى موقعة (أجنادين) مع خالد بن الوليد.

وكانت تضع على رأسها قناعاً بحيث لا يعرفها أحد. وحار فى أمرها جنود المسلمين، وهم يرون فارساً، لا يشق له غبار، يخترق صفوف الأعداء، ويضرب يميناً وشمالاً دون خوف أو وجل، ودون تردد. يناور ويداور حين يريد ومتى أراد. ويكر ويفر عندما يشاء.

يطعن جنود الأعداء، ويقتل الأقوياء، ولا يهاب الموت. حتى فر من أمامه صناديد القوم.

وعجب خالد بن الوليد والمسلمون معه، من هذا الفارس الغريب والملثم والذى لا يكاد أحد يعرفه، أو يعرف هويته، ولا من أين جاء، ولا أين يذهب.

وحينما هجم جنود الروم على المسلمين، إذا به يشق صفوفهم، ويمزق وحدتهم، ويغمد سيفه فى صدورهم، فيفرون من أمامه. وصيحاته تحث المسلمين حثًا على مواجهة الروم، والدفاع عن الإسلام، فتبعث فى نفوسهم الهمة والقوة والعزيمة.

وسألوا خالد بن الوليد عمن يكون؟.. لعله يعرف، لكنه كان مثلهم لا يعرف شيئاً عنه، وقد فوجئ به فى صفوف المسلمين يزيدهم قوة.

وعندما هدأت المعركة وتوقفت. نادى عليه خالداً كى يشجعه، ويثنى على جهده. وسأله عمن هو.

فلم يجب، ووقف صامتاً وكأنه يخفى أمراً ما، مما دفع جند المسلمين، إلى الإصرار على معرفته.

وأزاح اللثام عن وجهه، فإذا به امرأة جميلة، وسيمة، قسيمة، ذات حسن وبهاء وجمال.

وقالت لخالد بن الوليد: أنا خولة الكندية، أخت ضرار بن الأزور، أتيت مع مجموعة من نساء العرب نشد أزرك، وأزر جند المسلمين فى مواجهة الروم.

ولما استخلصت نفسها، ونساء قومها من سرايا الروم أنشدت:

نحن بنات تُبع وحـمـيـر وضَربُنا فى القوم ليس يُنكر
لأننا فى الحرب نار تسفر اليوم تسقون العذاب الأكبر

الخنساء: (السيدة تماضر بنت الشريد) وكانت الخنساء، من أشجع نساء العرب والمسلمين على الإطلاق، ضحت بأولادها الأربعة من أجل نصرة جند الله فى معركة القادسية.

فقد شاركت فيها ومعها بنوها الأربعة. وليلة المعركة جمعتهم، وخطبت فيهم تقول:

يا بنى أنتم أسلمتم طائعين، وهاجرتم مختاربن، ووالله الذى لا إله غيره، إنكم لبنو رجل واحد، كما أنكم بنو امرأة واحدة، ما خنت أباكم،، ولا فضحت خالكم، ولا هجنت حسبكم، ولا غيرت نسبكم، وقد تعلمون ما أعد الله للمسلمين من الثواب العظيم فى حرب الكافرين. واعلموا أن الدار الباقية خير من الدار الفانية.

يقول الله عز وجل:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (سورة آل عمران: ٢٠٠).

فإذا أصبحتم غدا فاغدوا إلى قتال عدوكم مستبصرين، ولله على أعدائكم مستنصرين».

فلما أضاء النهار، وبدأت المعركة، وحمى وطيسها، وسمع صوت السيوف، وصرخات الموت، اندفع أولادها يقاتلون فى كل مكان. وهى تشد من أزرهم. حتى جاءها خبر استشهاد ابنها الأول، فحمدت الله، وأخذت تشعل الحماس فى الآخرين، حتى استشهد الثانى ثم الثالث ثم الرابع.

فلما بلغها الخبر قالت: «الحمد لله الذى شرفنى بقتلهم، وأرجو من ربى أن يجمعنى بهم فى مستقر رحمته».

ولم تذرف دمعة واحدة، على فقدها أبناءها الأربعة فى معركة واحدة. وإنما حمدت الله وشكرته على استشهادهم، فى معركة الإسلام. وإن كانت قد بكت زمناً طويلاً على أخيها (صخر) لأنه مات فى الجاهلية من طعنة غادرة.

* * *

المرأة.. فقيهة.. ومفتية

وفى مجال العلم والدين نتذكر السيدة عائشة أم المؤمنين، وكانت من خير من واصل الدعوة إلى الرسالة المحمدية، بعد وفاة النبى ﷺ. وكأنما اختارها الله عز وجل زوجة للنبى صغيرة، لتواصل نشر الدعوة كبيرة، وتنقل للمسلمين ما كان يقوله ويفعله رسول الله ليكون لهم قدوة، فى كل ما يفعلون، وما يقولون.

وقال عنها رسول الله ﷺ: «خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء». والعرب تطلق الأحمر على الأبيض.

فأثرت الإسلام والمسلمين بأقوال وأفعال النبى، ومازالت كلماتها، ونصائحها ماثلة بيننا إلى اليوم والغد وحتى يشاء الله.

كما اشتهرت السيدة عائشة، إضافة إلى الرواية والفقه والفتيا، بالتاريخ والنسب ورواية الشعر ومعرفة الطب وعلم النجوم.

كما اشتهرت أختها أسماء بنت أبى بكر، بأنها أول فدائية فى الإسلام، حيث كانت تحمل الطعام إلى رسول الله ﷺ وأبيها أبى بكر وهما فى طريقهما إلى المدينة المنورة، والهجرة إليها بعيداً عن مكائد كفار مكة، كما كانت تحمل لهما أخبارهم ليكونا على دراية وعلم بما يدبره القوم فى مكة.

كما اشتهرت أيضاً السيدة أسماء وهى أم عبد الله بن الزبير، برواية الحديث.

وقد أمر الله سبحانه وتعالى أمهات المؤمنين، أن يعلمن المسلمين كل ما عرفن.

يقول الحق سبحانه:

﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾ (الأحزاب: ٣٤).

كما برزت من نساء المسلمين، زينب بنت أبى سلمة المخزومية، وكانت أفقه نساء زمانها فى المدينة المنورة.

وروت عن النبى ﷺ سبعة أحاديث، ثم أخذ منها ابنها أبو عبيدة بن عبد الله بن زمعة، ومحمد بن عطاء بن مالك، وحميد بن نافع، وعروة بن الزبير، وأبو سلمة بن عبد الرحمن، وزين العابدين على بن الحسين.

كما روى لها البخارى حديثاً، والإمام مسلم حديثاً آخر.

ومن بعد ذلك ظهرت مسلمات كثيرات على مر العصور الإسلامية، يجدن البلاغة والفصاحة، وقوة الحجة، وسداد الرأى، وبعد النظر.

ومن هؤلاء، أم البنين زوجة الوليد بن عبد الملك.

وكانت السيدة سكينة بنت الحسين بن على، سيدة نساء زمانها، وأكثرهن حجة، وفكراً، ورجاحة رأى، وبعد نظر.

وقد اجتمع من حولها أكثر شعراء زمانها شهرة، وقوة، وبلاغة وفصاحة وهم: جرير والفرزدق وكثير وجميل ونصيب.

فأخذت تذكر شعرهم، وتنقده نقد الواعى الخبير بأنواع التعبير، ولم تترك أحداً منهم إلا وناقشته من وراء حجاب، لتؤكد للكل أنها قارئة جيدة، وحافظة لأشعارهم ممتازة، وأنها لا تنقد ولا تتكلم إلا عن وعى وخبرة ودراية ودراسة.

وفى نهاية جلستها، أمرت لكل منهم بألف دينار عطية منها إليهم، تشجيعاً لهم، وللشعر والشعراء.

وكانت عائشة بنت طلحة بنت عبد الله من النساء اللاتى نبغن فى

الأدب وأيام العرب، وعرفت شيئاً عن النجوم.

وقد وفدت على هشام بن عبد الملك ذات يوم، فبعث إلى مشايخ بنى أمية فقال:

إن عائشة عندى، فاسحروا عندى الليلة فحضروا فما ذكروا شيئاً من أخبار العرب وأشعارهم وأيامهم إلا أفاضت معهم فيه، وما طلع نجم ولا أغار إلا سمته.

فقال لها هشام: أما الأول فلا أنكره. وأما النجوم فمن أين لك؟.

قالت: أخذتها عن خالتى عائشة.

فأمر لها بمائة ألف درهم وردها إلى المدينة(١).

وبلغت المرأة فى العصر العباسى الأول، مكانة عظيمة سامية. وجمعت بين الدين، والعلم، والثقافة، وفنون الأدب والشعر.

وكانت السيدة زبيدة، زوج هارون الرشيد، قمة فى العطاء والثقافة ورواية الشعر، ومعرفة أخبار الشعراء والمثقفين والأدباء.

وكانت تجيد قول الشعر وصياغته، إضافة إلى ما كانت تتمتع به من باع طويل فى الأدب والسياسة.

وإضافة إلى كل ذلك، ومن فوقه أيضاً، كانت تحفظ آيات القرآن الكريم، حفظاً جيداً، وكانت تجيد قراءته وتلاوته بصوت عذب رخيم. وكانت تشجع القراء وتمنحهم العطايات والهبات، حتى يزيدوا فى تعليم أبناء المسلمين وتحفيظهم سور القرآن الكريم. حتى عم خيرها كل فقرائهم، ومساكينهم والمحتاجين منهم.

ومن أكثر أعمالها إفادة، ما قامت به من حفر آبار كى يشرب المسلمون

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد جـ ٨ صـ ١٣.

منها، وأكثرت منها فى طريق الحجاج والقوافل حتى يرتووا أثناء رحلاتهم وأسفارهم وتأديتهم مناسك الحج والعمرة.

كما مهدت الطرق، وأصلحت السكك، وساوت المرتفعات حتى لا تعوق سير المسلمين وأفواج الحجيج.

وقد أنفقت - كما يقول المؤرخون - ألف ألف وسبع مئة ألف دينار لإنشاء عين ماء، وقد عرفت هذه العين بعين الشماسى.

وتعد فاطمة بنت محمد بن أحمد السمرقندى، من أشهر علماء عصرها، وأكثرهم علماً، وثقافة، وفقهاً، وكانت محدثة لبقة، ومحاورة جيدة، وعالمة بخبايا الأدب وألوانه وأنواعه. وتصدرت للتدريس. وألفت الكثير من المؤلفات العلمية والفقهية، استفاد منها أهل زمانها.

وقد عاصرت الملك العادل نور الدين الشهيد المتوفى سنة ٥٦٩ هجرية، واستشارها فى بعض أموره الداخلية، وسألها بعض المسائل الفقهية وأنعم عليها.

ويقول عمر كحالة فى كتابه (أعلام النساء) إن ابن العديم حكى: أنها كانت تنقل المذهب نقلاً جيداً، وكان زوجها الكاسانى ربما يهم فى الفتيا، فترده إلى الصواب، وتعرفه وجه الخطأ، فيرجع إلى قولها.

وقال: وكانت تفتى، وكان زوجها يحترمها ويكرمها، وكانت الفتوى أولاً يخرج عليها خطها وخط أبيها، فلما تزوجت، كانت الفتوى تخرج بخط الثلاثة.

ويقول داود بن على - أحد فقهاء الحلاوية بحلب - إنها هى التى سنت الإفطار بعد الغروب فى رمضان للفقهاء بالحلاوية. فكان فى يدها سوران فأخرجتهما وباعتهما وعملت بالثمن الإفطار كل ليلة وتوفيت بمدينة حلب فى سورية.

المرأة طبيبة وممرضة

وهناك مجالات أخرى طبية، نبغت فيها المرأة المسلمة، ووقفت بجوار زوجها، وأولادها، وإخوتها فى المعارك الحربية، تشد من أزرهم، وتعينهم، وتعد لهم الحراب، وتداوى الجرحى، وتعالج المرضى.

ومن هؤلاء:

أم أيمن: وهى «بركة» مولاة رسول الله ﷺ وحاضنته، وقد أعتقها النبى بعد أن ورثها عن أبيه وزوَّجها من زيد بن حارثة بعد النبوة. وولدت أسامة بن زيد، وحضرت معركة أحد، حيث كانت تداوى الجرحى وتسعف المرضى، وتسقى العطشى.

أم سنان الأسلمية: التى جاءت إلى رسول الله ﷺ، وهو خارج إلى خيبر، تسأله الخروج معه إلى المعركة، لمساعدة الجرحى، وتسقى الماء، وتحث على القتال.

ثم قالت للنبى ﷺ: وإلا تكون فانصر الرجل. فقال رسول الله ﷺ:

- «اخرجى على بركة الله تعالى».

وخرجت إلى خيبر فى رفقة أم سلمة زوجة رسول الله.

أم عطية الأنصارية: كانت من أشهر الطبيبات اللائى يعالجن المرضى، وقد انتشرت شهرتها فى الجزيرة العربية كطبيبة ومعالجة وحكيمة ناجحة. وكان ذلك فى الجاهلية ثم بعد إسلامها، وإصرارها على مشاركة النبى فى

غزواته لعلاج المرضى وإسعاف المحتاجين.

رفيدة (كعيبة) بنت سعد الأسلمية: اختارها الرسول كى تعالج الجرحى والمرضى من المسلمين فى المعارك داخل خيمة متنقلة، بحيث تتمكن من التحرك إلى حيث تكون جموع المقاتلين المسلمين، وتستطيع سرعة إسعافهم ومداواتهم وعلاجهم.

وروى مسلم عن عائشة ﵂ أنها قالت: أصيب سعد بن معاذ يوم الخندق حيث رماه رجل من قريش فى الأكحل (عرق فى اليد وهو الوريد المتوسط فيها) فأمر الرسول رفيدة أن تقيم خيمة فى المسجد ليعوده من قريب، وحين أصاب السهم سعد بن معاذ، قال رسول الله ﷺ:

«اجعلوه فى خيمة رفيدة حتى أعوده من قريب».

زينب طبيبة بنى أود: كانت ذات شهرة بين العرب فى علاج أمراض العيون، وفى علاج باقى الجراحات الأخرى، ومداواة المرضى.

ابنة شهاب الدين بن الضائع: تولت مكان والدها مشيخة الطب بدار الشفاء المنصورى ورئاسة الأطباء. فلم ينجب أبوها غيرها ومن ثم تولت مكانه. وكانت طبيبة رائعة، مجيدة، عالمة بكل فنون الطب. أقبل عليها الناس، لمكانتها وقدرتها على علاجهم. فاشتهرت فى زمانها.

* * *

المرأة.. للمتعة فى أوربا

فى سنة ٥٨٦ ميلادية عقد اجتماع فى فرنسا لبحث هل المرأة تعد إنساناً أم غير إنسان؟.

وانتهى الاجتماع، بعد جدل طويل، ونقاش عنيف، أنها خلقت لشىء واحد هو: خدمة الرجل فقط ومتعته!! وبذلك، وطبقاً لهذا القرار، أصبحت خادمة للرجل ومحظيته.

وكان هذا سنة ٥٨٦ ميلادية، وأما من قبل ذلك أيضاً وفى أوربا على وجه التحديد، وحيث الحضارة اليونانية العريقة، وعمالقة الأدب والفلسفة والمنادين بالحرية والديمقراطية للإنسان كأفلاطون وأرسطو وغيرهما. كانت المرأة اليونانية تباع وتشترى، وكأنها بضاعة، لا رأى لها، ولا صفة، ولا حياة، ولا قيمة إنسانية.

وكانوا يعدونها رجساً من عمل الشيطان.

وانحصرت كل مهمتها، على إشباع الرغبات الجنسية، والجسدية، والمتعة، والملاطفة، والملامسة، وإدخال البهجة والسرور، فى الحفلات العامة والخاصة.

وكانت المرأة فى أثينا ملكاً للرجال، يملك منها ما يشاء، وقدر ما يستطيع، وما تملكه من مال أو قدرات.

وكان من حق الرجل الأثينى أن يتزوج منهن أى عدد يريد.

وانحصرت مهمة المرأة إلى جانب الترويح عن الرجل، فى خدمة المنزل، ورعاية الأولاد.

والطريف أن الرجل فى إسبرطة كان لا يستطيع أن يتزوج سوى امرأة واحدة فقط. وأما المرأة فكان من حقها أن تتزوج ما تشاء من الرجال، مثنى وثلاث ورباع، ومائة، وألفا، قدر ما تستطيع وتهوى.

ونفس الحال كان عند اليهود، حيث كانت المرأة عبدة، وخادمة، وتباع وتشترى فى الأسواق. وكان الأب يبيع ابنته لمن يشاء، ولمن يدفع أكثر.

وقد حرمت المرأة فى الشريعة اليهودية من الميراث، ولم يصبح لها الحق فيه إلا فى حالة واحدة فقط، وهى عدم ترك الأب أحدًا من الأبناء بعد وفاته. أما إن كان هناك أبناء حرمت منه. ونجاستها ضعف نجاسة الرجل. (لاويين ١٢: ١ ـ ٥).

وكان من حق الرجال أن يتزوجوا من النساء كما يشاءون، بدون حدود، وكما يرغبون.

وقد تزوج نبى الله موسى عليه السلام من امرأتين، ومن قبله تزوج داود عليه السلام أكثر من عشرين زوجة، وتزوج سليمان عليه السلام من ألف امرأة من بينهن بنت فرعون مصر. وهذا أكبر عدد من النساء تزوجه نبى ورسول من عند الله، وقد يكون أكبر عدد من الزوجات تزوج بهن رجل على وجه الأرض من أبناء وأحفاد أبينا آدم عليه السلام.

وعرفت المرأة الرومانية التعددية فى الزوجات، وكان الرجل الرومانى يتزوج كما يشاء، ومن يريد.

وأصدر الملك الرومانى (فالنتيان) أمراً رسمياً أعطى فيه الحق لكل رومانى فى أن يتزوج من يشاء من النساء، والعدد الذى يريد.

ولم يستنكر رؤساء الدين من الأساقفة تعدد الزوجات، أو انتقدوا أمر

(فالنتيان) وقد اقتدى به كل من أتى من بعده من الملوك والقياصرة.

وعندما تولى (جوستيان) مقاليد الحكم أصدر قانوناً يمنع فيه تعدد الزوجات.

ولكن أحداً من الرومان لم يلتزم به أو يقره، وظل الكل يقتنى أكثر من زوجة.

ولم يستطع رجال الدين وقف هذه العملية، وكان التيار ضدهم قوياً، فلم يستطيعوا الوقوف فى وجهه، وإنما سبحوا مع التيار وتزوجوا هم أيضاً من عشرات النساء، واتخذوهن محظيات وجوارىَ.

وأقرت المسيحية، ما أقرته ديانة موسى ﷺ فى الزواج، واستمر رجال الكنيسة يجيزون تعدد الزوجات حتى القرن السابع، ثم بعد ذلك منعوا التعدد، وتمسكوا بالزوجة الواحدة.

وأما المرأة فى الهند، فكانت تحرق مع زوجها، إذ لا يصح لها أن تعيش وتحيا من بعد موته.

وفى فارس القديمة، كانت جارية، ومحظية، وخلقت من أجل إرضاء الرجل جنسيّاً وعاطفيّاً، ثم رعاية بيته وأولاده.

وفى جزيرة العرب، كانت تعد إرثاً للرجل، يرثها إن مات عنها ولده. فالابن كان من حقه أن يرث نساء أبيه، مهما كان عددهن. وكل ما عليه فعله هو أن يلقى عليهن ثوبه ليصبحن ملكاً ليمينه، يفعل بهن ما يشاء. وأن يقول بعد إلقاء ثوبه:

ورثتهن كما ورثت مال أبى.

فإذا أراد أن يتزوجها، فعل، وإن لم تعجبه باعها وقبض ثمنها، أو زوجها لمن يشاء وأخذ مهرها، أو حرم عليها الزواج كى يرثها بعد موتها.

ثم جاء الإسلام وأعطى المرأة ما لم تكن تحلم به، وأعاد لها حريتها، وكرامتها، وشخصيتها.

ولعل خير شاهد على ذلك أن الله عز وجل اختص النساء بسورة كاملة تحمل اسم (النساء)، تعد من أمهات الكتاب، وتضم أحكام الميراث، وحسن معاملة الزوجات وليقرر من خلالها مبدأ المساواة ووحدة الجنس البشرى والأصل الواحد لهم.

وقد بدأت السورة الكريمة بقول الله عز وجل:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (النساء: ١).

ثم يقول سبحانه: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلاَّ تَعُولُوا﴾ (سورة النساء: ٣).

ويقول سبحانه: ﴿وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا﴾ (الآية: ٤).

وفى الوقت الذى كرم الإسلام فيه المرأة منذ نشأتها وخروجها إلى الدنيا من ظهر آدم، نجد فى التوراة أنها هى المسئولة عن الخطيئة الأولى للبشرية.

تقول التوراة فى قصة الخلق:

أخذ الرب الإله آدم ووضعه فى جنة عدن ليعملها ويحفظها. وأوصى الرب الإله آدم قائلاً: من جميع شجر الجنة تأكل أكلاً. وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها. لأنك يوم تأكل منها موتاً تموت.

وقال الرب الإله: ليس جيداً أن يكون آدم وحده. فأصنع له معيناً نظيره.

أوقع الرب الإله سباتاً على آدم فنام. فأخذ واحداً من أضلاعه وملأ مكانه لحماً. وبنى الرب الإله الضلع التى أخذها من آدم امرأة وأحضرها إلى آدم.

فقال آدم: هذه الآن عظم من عظامى ولحم من لحمى. هذه تدعى امرأة لأنها من امرئ أخذت..

وكان كلاهما عريانان آدم وامرأته وهما لا يخجلان.

وكانت الحية أجمل جميع حيوانات البرية التى عملها الرب الإله.

فقالت للمرأة: أحقاً قال الله لا تأكلا من كل شجر الجنة؟!

فقالت المرأة للحية: من ثمر الجنة نأكل. وأما من ثمر الشجرة التى فى وسط الجنة فقال الله:

- لا تأكلا منه ولا تمساه لئلا تموتا.

فقالت الحية للمرأة: لن تموتا. بل الله عالم أنه يوم تأكلان منه، تتفتح أعينكما وتكونان كالله عارفين الخير والشر..

فأخذت من ثمرها وأكلت، وأعطت رجلها أيضاً معها فأكل. فانفتحت أعينهما وعلما أنهما عريانان.

وسمعا صوت الإله ماشيا فى الجنة عند هبوب ريح النهار. فاختبأ آدم وامرأته من وجه الرب الإله فى وسط شجر الجنة. فنادى الرب الإله آدم وقال له:

- أين أنت؟

فقال: سمعت صوتك فى الجنة فخشيت لأنى عريان فاختبأت.

قال:

- من أعلمك أنك عريان؟ هل أكلت من الشجرة التى أوصيتك الا تأكل منها؟

فقال آدم: المرأة التى جعلتها معى هى أعطتنى من الشجرة فأكلت.

فقال الرب الإله للمرأة:

- ما هذا الذى فعلتِ؟

فقالت المرأة: الحية غرتنى فأكلت.

فقال الرب الإله للحية:

- لأنك فعلت هذا، ملعونة أنت من جميع البهائم.. على بطنك تسعين، وتراباً تأكلين كل أيام حياتك.

وقال للمرأة:

- تكثيرا أكثر أتعاب حبلك - بالوجع تلدين أولاداً - وإلى رجلك يكون اشتياقك وهو يسود عليك.

وقال لآدم:

لأنك سمعت لقول امرأتك.. ملعونة الأرض بسببك. بالتعب تأكل منها كل أيام حياتك.. بعرق وجهك تأكل خبزاً حتى تعود إلى الأرض التى أخذت منها - لأنك تراب وإلى التراب تعود.

وقال الرب الإله:

- هو ذا الإنسان قد صار كواحد منا عارفا الخير والشر. والآن لعله يمد يده ويأخذ من شجرة الحياة أيضاً ويأكل ويحيا إلى الأبد - فأخرجه الرب الإله من جنة عدن ليعمل الأرض التى أُخذ منها - (تكوين ٢).

وهكذا جعل الكتاب المقدس المرأة هى المسئولة عن الخطيئة البشرية الأولى، وأخرجت آدم من الجنة ليجوع ويعرى ويواجه الشقاء والتعب إلى نهاية العمر.

وقد وضع (بولس) المسئولية أيضاً فى رقبة المرأة، ودافع عن الرجل - آدم - واعتبره لم يرتكب إثماً، ولم يخطئ، ولم يغو، فقال:

«آدم لم يغو، لكن المرأة غوت، فحصلت فى التعدى».

ونتيجة لذلك فقد ذاقت المرأة المسيحية الكثير من الذل والهوان، وكان لهذا الاتهام أثر كبير على مكانتها ومنزلتها فى اليهودية ثم فى المسيحية.

وقد برأ الإسلام المرأة من هذا الوزر، ومنحها صك البراءة الأبدية، ونفى عنها شبهة إغواء آدم، وارتكاب المعصية، التى بسببها خرج من الجنة، وخرج من بعده أولاده وأولاد أولاده ليذوقوا عذاب العمل والسعى إلى الرزق، وتوفير حياة كريمة للإنسان.

يقول القرآن الكريم فى سورة طه:

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ (طه: ١١٥ - ١٢٣).

وهكذا حدد القرآن الكريم المسئول الأول عن خروج آدم وحواء من الجنة وهو آدم (فوسوس إليه الشيطان) فآدم هو الذى استمع إلى كلام إبليس ووسوسته وأكل من الشجرة هو وزوجه، فخرجا من الجنة عاقبة عصيانه أمر ربه. ولكن الله تاب عليه من بعد ذلك وهدى.

وقد تضمنت آيات قرآنية كثيرة ومتنوعة فى سور - البقرة والأعراف والحجر والإسراء والكهف وطه وص - الحديث عن معصية آدم وأكله من شجرة الخلد، ومخالفته أمر ربه، فكان جزاؤه الطرد من الجنة.

ففى سورة الأعراف:

﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ (الأعراف: ٢٠ ـ ٢١).

﴿قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (الأعراف: ٢٣).

وقال تعالى فى سورة البقرة:

﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (الآية: ٣٧).

ورغم معصية آدم ومخالفته لأمر ربه هو وزوجه، إلا أن الله عز وجل تاب عليهما، وأنزل عليهما رحمته، بعد أن اعترفا بذنبهما وأنهما ظلما نفسيهما، وإن لم يغفر لهما سيكونان من الخاسرين.

وإذا كانت المرأة قد ظُلمت فى العصور الأولى، وفى الديانات الأخرى. فإن الإسلام أعاد إليها كرامتها، وحريتها، واستقلالها، ومسئوليتها.

فقد أصبحت مسئولة عن نفسها، وعن عبادتها، وعن بيتها، وعن جماعتها.

وسوف نعرض مستقبلاً لبعض هذه الصور.

* * *

خصوصية العلاقة الزوجية

للعلاقة الزوجية خصوصية شديدة، وسرية مطلقة، وحرمة عظيمة يجب ألا يقربها إنسان غريب، أو يعرف عنها شيئاً. فهى سر الأسرار. وهى قدس الأقداس. التى يحرم على أى إنسان مهما كانت درجة قرابته وعلاقته، أن يطلع عليها، أو تكون مجال حوار، وموضع حديث.

فهى علاقة قاصرة فقط على الزوجين. ولا ثالث لهما. وكل ما يدور داخل حجرة النوم المغلقة يجب ألا يتعدى نطاقها، ولا يتسرب من بابها، ولا يطلع عليه غريب آخر، حتى لو كان الأب أو الأم. أو الأخت، أو غيرهم من ذوى الصلات القريبة ورابطة الدم.

فهى علاقة محرم معرفتها على كل الدنيا، ماعدا الزوجين، ثم الطبيب الخاص، إن كانت هناك ضرورة للذهاب إليه لعلاج مرض نسائى ما.

وحتى هذا الطبيب تكون معرفته فى حدود المرض وما يسهل تشخيصه وتحديده، حتى يسهل علاجه والقضاء عليه.

والقاعدة الشرعية تقول: الضرورات تبيح المحظورات.

ويسن عن رسول الله ﷺ أن يلاطف الزوج زوجته، وأن يداعبها، وأن يستثير شهوتها ورغبتها قبل الجماع حتى يكون هناك حسن لقاء، فلا يأتى الزوج زوجته كما تُؤْتَى البهائم.

وفى هذا احترام كبير لرغبة الزوجة، وأن يسمو الزوج برغبات زوجته

حتى تعادل رغبته، فيكون اللقاء متساوياً، وفيه تجاوب ورضاء بين الاثنين.

ويحث الرسـول الأزواج قبل اللقـاء على الدعـاء من الله بتـجنب الشيطان، حتى يبتعد عن ذريته إن أعطاه الله ورزقه منها رزقاً حسناً.

عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ:

«أمـا لو أن أحـدهم يقـول حين يأتى أهله بسم الله. اللهم جنبنى الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا، ثم قدر بينهما فى ذلك، أو قضى بينهما ولد لم يضره شيطان أبداً». (رواه البخارى).

وللزوج أن يستمتع بزوجه أنَّى شاء، طالما أن هناك رغبة مشتركة، حتى ولو كانت حائضاً إنما يستمع بها فى حدود قدرها الشارع.

عن أم سلمة قالت: بينما أنا مع النبى ﷺ مضطجعة فى خميصة، إذ حضت، فانسللت، فأخذت ثياب حيضى، فقال: أنفست؟ قلت: نعم.

فدعانى فاضطجعت معه فى الخميلة.

وقالت السيدة عائشة: كنت أغتسل أنا والنبى ﷺ من إناء واحد، كلانا جنب، وكان يأمرنى فأتزر فيباشرنى وأنا حائض، وكان يخرج رأسه إلى وهو معتكف فأغسله وأنا حائض.

وفى رواية أخرى عنها قالت:

كانت إحدانا إذا كانت حائضاً فأراد النبى ﷺ أن يباشرها، أمرها أن تتزر فى فور حيضها، ثم يباشرها، وأيكم يملك إربه، كما كان النبى ﷺ يملك إربه.

وحث النبى ﷺ الزوجة أن تسارع إلى تلبية رغبة زوجها فى الاجتماع بها. درءاً للفتنة، وتحصيناً للرجل من أن يبغى هدفه فى مكان آخر، فيقع فى حرمة الزنا، حتى ولو بالاشتهاء، أو النظر، أو اللسان.

عن ابن عباس قال: ما رأيت شيئاً أشبه باللمم مما قاله أبو هريرة عن النبى ﷺ:

«إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنا، أدرك ذلك لا محالة، فزنا العين النظر، وزنا اللسان النطق، والنفس تمنى وتشهى، والفرج يصدق ذلك كله أو يكذبه». رواه البخارى.

ومن هنا نتفهم حديث أبى هريرة. قال: قال رسول الله ﷺ:

«إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فأبت، فبات غضبان عليها، لعنتها الملائكة حتى تصبح».

ولا يحق للزوجة أن تصوم غير الفرض دون علم زوجها، حتى يكون على بينة من أمرها، فتطمئن نفسه، ولا تداعبه أحلامه بلقاء زوجته إلا بعد إفطارها، فيكون فى ذلك صون لها واحترام لصيامها، وغض لبصر الرجل وأحفظ لنفسه، وأهدأ إلى شهوته.

وإخبار الزوجة لزوجها بأنها سوف تصوم يومها، فيه احترام وتقدير وتقديس للعلاقة بينهما.

يقول أبو هريرة عن النبى ﷺ أنه قال: «لا يحل لامرأة أن تصوم وزوجها شاهد إلا بإذنه، ولا تأذن فى بيته إلا بإذنه، وما أنفقت من غير أمره فإنه يؤدى إليه شطره».

ونهى الرسول ﷺ أن تقوم الزوجة بوصف امرأة أخرى لزوجها، وصفاً دقيقاً يكاد يعطى صورة حية ومتكاملة لهذه المرأة. سواء من ناحية الجمال والحلاوة، أو ما يميز صوتها، وحركاتها، وسكناتها، وكلماتها.

ذلك أن النساء أنواع، وقد وهب الله كل امرأة، ميزة عن غيرها تتميز بها، وقد يكون فيها ما يثير الشهوة، ويحمس الخيال ويلهبه، أو قد يكون فيها ما يطفئه، فيكون عيباً فيها، ويبعد الرجال عن خطبتها والزواج بها.

عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تباشر المرأة المرأة فتنعتها لزوجها كأنه ينظر إليها».

ولهذا أيضاً نهى ﷺ عن الدخول على النساء دون استئذان.

يقول عقبة بن عامر أن رسول الله ﷺ قال:

«إياكم والدخول على النساء»

فقال رجل من الأنصار: يا رسول الله أفرأيت الحمو؟

«قال: الحمو الموت».

ومن هنا نتفهم قول النبى ﷺ فى الحديث الذى رواه عنه أسامة بن زيد:

«ما تركت بعدى فتنة أضر على الرجال من النساء».

فالنساء تثير فى الرجل شهوة ركبها الله فيه من أجل الحفاظ على النسل، وحببها إليه، كما حببه أيضاً إلى المرأة لكى يتم التواصل والتزاوج.

ولهذا أمرهن الله عز وجل، بأن يدنين عليهن من جلابيبهن، وألا يضربن الأرض بأقدامهن حتى لا يعرف ما يخفين من الزينة فيطمع الذى فى قلبه مرض فقد كانت المرأة تلبس الخلاخيل.

وقد بلغ الحس الإسلامى رقيّاً لم يسبقه إليه شىء فى المطالبة بجعل أسرار الحياة الزوجية سرّاً وأمانة لا يجب أن يفشى بها الزوج أو الزوجة إلى الآخرين.

وفى الحديث الذى رواه مسلم عن أبى سعيد أن رسول الله ﷺ قال:

«إن أعظم الأمانة عند الله يوم القيامة الرجل يفضى إلى امرأته، وتفضى إليه، ثم يفشى سرها».

ويقول الدكتور يوسف الشال فى كتابه «الإسلام وبناء المجتمع».

انه قد روى عن بعض الفاقهين أنه أراد طلاق زوجته فقيل له: ما

الذى يريبك فيها:

قال: العاقل لا يهتك سر امرأته.

فلما طلقها قيل له: لما طلقتها؟

فقال: ما لى ولامرأة غيرى.

ويطالبنا النبى بأن تكون العلاقة بين الزوج والزوجة علاقة ود ومحبة. يقول ﷺ:

«أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً، وخياركم خياركم لنسائهم».

ويقول أيضاً:

«خيركم خيركم لأهله (زوجه) وأنا خيركم لأهلى».

وينهى عن المعاملة السيئة للزوجة، بقوله:

«ما أكرمهن إلا كريم وما أهانهن إلا لئيم».

وعن الإمام أحمد. قال: قال رسول الله ﷺ: «كل شىء يلهو به ابن آدم فهو باطل إلا ثلاثاً: رمية عن قوسه، وتأديبه فرسه، وملاعبته أهله (زوجته) فإنهن من الحق».

ويقول الله عز وجل فى سورة البقرة:

﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ (الآية: ٢٢٨)

وهذه الآية الكريمة تعنى أن كل ما يحق للزوج طلبه وانتظاره من زوجته من أمور مشروعه، يحق أيضاً للزوجة أن تنتظره من زوجها.

* * *

فنــون الحـب

يروى المفسـرون والمؤرخون أن امـرأة مـسلمـة قـدمت إلى رسـول الله ﷺ تسـأله أمراً، ولم تستحِ مما سألت.

كانت المرأة من نسـاء مكة المهـاجرات إلى المدينة، بعد أن تركت زوجهـا فى مكة لأنه رفض أن يعتنق الإسـلام، وحـرمت عليه طبقـاً للشـرع، وتزوجت من أحد الأنصار.

وكان الزوج الجديد على خبـرة كاملة بكل فنون ممارسـة الحب، ويظهر أنه اكتـسبـهـا من خـلال رحـلاته إلى الشـام فى الجـاهليـة حـيث الرومـان، والعلاقات النسائية المباحة، ومواخير الخمر والمحظيات والجوارى.

وقد يكون قد اكتسبها من يهود خيبـر وبنو قينقاع وغيرهـما، حيث كان اليهود على علاقة طيبة بالرومان، ويجيدون فنون الحب.

ووقفت المرأة أمـام رسـول الله ﷺ غيـر خجلة، وهى تسـأله عن حـرمـة ما يفعله زوجها معها خلال معاشرتها جنسيّاً.

وقـالت للنبى: كنا نحن النسـاء لا نعرف فى مكة سـوى الاسـتلقـاء على ظهـورنا، ولكن زوجى فى المدينة يؤتى مـعى أشـكالاً مـتنوعـة وكـثيـرة خـلال المعاشـرة الجـنسيـة، وأخـاف أن يكون فى ذلك حـرمـة فى الدين. فـمـا عـرفنا ذلك من قبل فى مكة.

وكان سؤال رسول الله ﷺ لها محدداً:

هل يقوم زوجها بأعمال محرمة فى الشرع والدين؟.. وهل لا يسلك الطريق الحلال فى العلاقة الزوجية؟

فنفت المرأة ذلك. وأكدت أن زوجها يراعى ما حرم الله، ولكن ما يأتيه من حركات وأوضاع لم تتعود عليها من قبل، هو الذى بعث فى نفسها الريبة والحيرة والقلق، وحتى تكون على بينة من أمرها فى دينها.

فأجاز لها النبى ﷺ هذه العلاقة طالما أنها ليست فى موضع حرمه الله وطالما أنها هى الأخرى تشاطره الرغبة.

وهذه الحكاية تحدث عنها شيخنا الكبير المرحوم محمد متولى الشعراوى فى أحاديثه فى الإذاعة والتلفزيون، وأجازها طالما أنها فى مكان لا يغضب الله وهو المكان الذى يأتى منه الولد فليس من المحرمات، وطالما أن هناك رضاء من الطرفين بها.

كذلك أجازها الدكتور القرضاوى فى أحد برامجه الدينية والتى تبثها أسبوعيا إحدى القنوات الفضائية. وقال بالنص: من حق الزوجة والزوج أن يفعلا مع بعضهما ما يشاءان، إلا فى الموضع الذى حرمه الله. وأن يتمتعا باللذة الحسية والجنسية كما يشاءان. وهو حلال حلال، وتكون حسنة تحسب للزوج، طبقا لحديث رسول الله عندما قال: أرأيت إن وضع فى حرام ألم يكن يحسب سيئة، وكذلك إن وضع فى حلال يأخذ عليه حسنة، لأنه يصون زوجته، ويشبع رغبتها.

كما تحدث عنها أيضا المرحوم الدكتور عبدالله شحاتة فى يومياته عن الأسرة والتى كان يكتبها قبل موته كل يوم جمعة فى الصفحة الأخيرة من جريدة الأخبار المصرية.

وهذه الحكاية التى أجازها رسول الله ﷺ، تبين لنا خصوصية العلاقة بين الزوج وزوجته، وأن من حقهما معاً أن يستمتعا ببعضهما دون خوف أو وجل. بشرط الا يفعلا ما حرم الله. والا تخرج أسرارهما إلى خارج حجرة النوم.

يقول الحق تعالى فى سورة البقرة (٢٢٢)

﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾

ويقول سيد قطب فى شرح هذه الآية فى كتابه (فى ظلال القرآن):

فى منبت الإخصاب دون سواه. فليس الهدف هو مطلق الشهوة، إنما الغرض هو امتداد الحياة، وابتغاء ما كتب الله. فالله يكتب الحلال ويفرضه، والمسلم يبتغى هذا الحلال الذى كتبه له ربه، ولا ينشئ هو نفسه ما يبتغيه. والله يفرض ما يفرض ليطهر عباده، ويحب الذين يتوبون حين يخطئون ويعودون إليه مستغفرين.

ويقول الحق تعالى:

﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ (البقرة الآية ٢٢٣).

وفى هذا التعبير الدقيق ما فيه من إشارات إلى طبيعة تلك العلاقة فى هذا الجانب وإلى أهدافها واتجاهاتها. نعم إن هذا الجانب لا يستغرق سائر العلاقات بين الزوج وزوجه.

وقد جاء ذكرها ووصفها فى مواضع أخرى مناسبة للسياق فى تلك المواضع. كقوله تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾.. وقوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾.

فكل من هذه التعبيرات يصور جانبا من جوانب تلك العلاقة العميقة الكبيرة فى موضعه المناسب.

وأما مناسبة السياق هنا فيتسق معها التعبير بالحرث. لأنها مناسبة إخصاب وتوالد ونماء. ومادام حرثا فأتوه بالطريقة التى تشاءون. ولكن فى موضع الإخصاب الذى يحقق غاية الحرث وهو وجود الثمر (الأولاد)

وأتوا حرثكم أنى شئتم، وفى الوقت الذى تشاءون وبالطريقة السليمة

و: د حيحة والتى تحقق الهدف منه وهو الإخصاب والتوالد والنماء. وهذا لا يكون إلا فى موضعه الصحيح والذى أعده الله له.

واتقوا الله فيما تفعلون، واعلموا أنكم ملاقوه وبشر المؤمنين الذين يراعون الله فيما يفعلون. ويرتقون بهذه العلاقة الجنسية إلى العلاقة الإنسانية مع ربطها بالمشاعر الدينية.

فيمتزجون جميعا فى لحظة واحدة، وحركة واحدة، واتجاه واحد. ذلك المزج القائم فى كيان الإنسان ذاته. خليفة الله فى أرضه، المستحق لهذه الخلافة بما ركب فى طبيعته من قوى وبما أودع فى كيانه من طاقات.

* * *

ثانيا ـ تعدد الزوجات

تعدد زوجات الأنبياء

تعددت زوجات الأنبياء، وكثرن، وبلغ ما تزوجه سليمان عليه السلام ألف امرأة، وما تزوجه موسى عليه السلام زوجتين، وبين هذا وذاك تعددت الزوجات حسب ظروف كل نبى، وطبيعة دعوته، والوطن والمجتمع الذى نشأ به لدرجة أن التوراة التى حرفوها نسبت إلى نبى الله داود، أنه زنى وتسبب فى القتل لكى يحصل على زوجة غيره (عياذا بالله)

فالزواج سنة الحياة، ودرع الأنبياء لمواجهة المصاعب ونشر الدعوة إلى عبادة الله الواحد الأحد، والمشاركة فى إحياء تعاليم الأديان بتوجيهات من الله عز وجل.

فى التوراة «قال الرب لإبرام (إبراهيم) اذهب من أرضك ومن عشيرتك.. إلى الأرض التى أريك فأجعلك أمة عظيمة، وأباركك وأعظم اسمك، وتكون بركة. وأبارك مباركيك ولاعنك ألعنه وتتبارك فيك جميع قبائل الأرض» (تكوين ١٢: ١ ـ ٢).

وفى القرآن الكريم: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة: ١٢٤).

ويقول محمد ﷺ: «تناكحوا تناسلوا فإنى مباه بكم الأمم يوم القيامة».

وفى التوراة: خلق الله الإنسان، ذكرا وأنثى خلقهم، وباركهم الله وقال لهم: «أثمروا، وأكثروا، واملأوا الأرض،واخضعوها، وتسلطوا على سمك

البحر، وعلى طير السماء وعلى كل حيوان يدب على الأرض» (سفر التكوين ١: ٢٧ ـ ٢٨)

ومن هذا المنطلق، وعملا على تكاثر الشعب الإسرائيلى صاغ علماء بنى إسرائيل هذه المهمة فى قوانين ملزمة، مثلما جاء فى كتاب (الأحكام العبرية). يقول الكتاب السابع فى النكاح المادة ٣٩٣:

«النكاح بنية التناسل ودوام حفظ النوع الإنسانى فرض على كل يهودى، ومن تأخر عن أداء هذا الفرض وعاش عزبا بدون زواج، كان سببا فى غضب الله على بنى إسرائيل» (١)

وأن التناسل لا يتم إلا بالزواج، وليس بالخصاء واعتزال النساء، كذلك التكاثر لا يتم إلا بالحض على الزواج وإباحة تعدد الزوجات.

والتناسل والتكاثر كانا منذ البدء مشيئة الله وأمره للناس جميعا.

فالنكاح والتزاوج والتناسل من مشيئة الله عز وجل إلى الناس كافة بما فيهم الأنبياء والرسل، لكى ينتشروا فى الأرض، ويستثمروها، ويتملكوها، وينعموا بخيرات الله ونعمه عليهم، ثم ليعاقب الكافر لأنعمه، ويثيب الشاكر لها.

زوجات خليل الله إبراهيم:

وقد تزوج خليل الله إبراهيم بزوجتين: هما: سارة ثم هاجر ، وكانت سارة أخته من أبيه (تكوين ١٢/٢٠) وإذا كان ذلك حقا فقد يكون ذلك جائزا فى ملته ولكنها لم تنجب، فتزوج من هاجر جارية سارة والتى أهدتها إليه لكى تنجب له الولد، فولدت له إسماعيل، وبعد أربعة عشر عاما، ولدت سارة إسحاق.

وعقب موتهما تزوج إبراهيم من امرأتين من العرب هما: قنطورا بنت يقطان، فولدت له ستة بنين هم: زمران، ويقشان، ومدان، ومديان، ويشباق، وشوحا.

(١) كتاب محمد عبد الوهاب تعدد نساء الأنبياء.

والزوجة الثانية كانت (حجور بنت أرهير) ولدت له خمسة بنين هم: كيسان، وشورخ، وأميم، ولوطان، ونافس. كما يقول الطبرى فى تاريخه[1].

ثم اتخذ إبراهيم عدداً من السرارى زوجات له، يقول المؤرخون إنهن ثلاث سرارى. وبذلك يكون إبراهيم قد تزوج بسبع نساء، أربع زوجات وثلاث سرارى.

وقد ذهب بعض المؤرخين إلى القول بأن إبراهيم قد جمع فى وقت واحد بين ثلاث عشرة امرأة على الأقل. وقد حرص كتبة اليهود على القول بأن جدهم إسحاق هو الوريث الوحيد لإبراهيم، كما جاء فى سفر التكوين ٢٥ : ٦ «أما بنو السرارى اللواتى كانت لإبراهيم فأعطاهم إبراهيم عطايا، وصرفهم عن إسحاق ابنه شرقا إلى أرض المشرق وهو بعد حى».

كما أنهم زعموا أن إسحاق هو الذبيح وليس إسماعيل وجاء فى الإصحاح الثانى والعشرين من العهد القديم:

«وحدث بعد هذه الأمور أن الله امتحن إبراهيم (ومعناها أبو الأمم) فقال يا إبراهيم. فقال هأنذا. فقال خذ ابنك وحيدك الذى تحبه إسحاق واذهب إلى أرض المريا وأصعده هناك محرقة على أحد الجبال الذى أقول لك. فبكر إبراهيم صباحا وشد على حماره وأخذ اثنين من غلمانه معه وإسحاق ابنه وشقق حطبا ليحرقه، وقام وذهب إلى الموضع من بعيد. فقال إبراهيم لغلاميه اجلسا أنتما ههنا مع الحمار. وأما أنا والغلام فنذهب إلى هناك ونسجد ثم نرجع لكما. فأخذ إبراهيم حطب المحرقة ووضعه على إسحاق ابنه. وأخذ بيده النار والسكين. فذهب كلاهما معاً. وكلم إسحاق إبراهيم أباه وقال يا أبتى: فقال هأنذا يا بنى. فقال هو ذا النار والحطب ولكن أين الخروف للمحرقة. فقال إبراهيم: الله يرى له الخروف للمحرقة يا ابنى. فذهب كلاهما معاً.

فلما أتيا إلى الموضع الذى قال له الله، بنى هناك إبراهيم المذبح،

(١) تاريخ الطبرى الجزء الأول صـ ٣١١.

ورتب الحطب، وربط إسحاق ابنه، ووضعه على المذبح فوق الحطب. ثم مد إبراهيم يده وأخذ السكين ليذبح ابنه. فناداه ملاك الرب من السماء وقال: إبراهيم إبراهيم. فقال: هأنذا. فقال: لا تمد يدك إلى الغلام ولا تفعل به شيئا. لأنى الآن علمت أنك خائف الله فلم تمسك ابنك وحيدك عنى. فرفع إبراهيم عينيه ونظر وإذا كبش وراءه ممسكا فى الغابة بقرنيه فذهب إبراهيم وأخذ الكبش وأصعده محرقة عوضا عن ابنه.

ونادى ملاك الرب إبراهيم ثانية من السماء وقال: بذاتى أقسمت. يقول الرب. إنى من أجل أنك فعلت هذا الأمر ولم تمسك ابنك وحيدك، أبارك مباركة وأكثر نسلك تكثيرا كنجوم السماء، وكالرمل الذى على شاطىء البحر. ويرث نسلك باب أعدائه، ويتبارك فى نسلك جميع أمم الأرض».

وزعمهم بذلك باطل. فهم يزعمون أن إسحاق ولده الوحيد، فى حين أن إسماعيل ولد قبله بكثير باعتراف التوراة.

كما ذهب كتبة إسرائيل إلى القول بأن إبراهيم ﷺ قال لفرعون مصر عندما أخبره أن سارة أخته وليست زوجته، حتى يخلصها من أسرها عنده، وقالوا ذات الشىء عندما عاد إبراهيم من أرض مصر إلى الشام ومعه سارة وهاجر، وتنقل بين مدنها لنشر الدعوة.

وذهب إلى جرار لمتابعة دعوته، ولكن (أبيمالك) ملك جرار أعجبته سارة وجمالها فأخذها لنفسه.

وفى الاصحاح العشرين من العهد القديم:

«وانتقل إبراهيم من هناك إلى أرض الجنوب. وقال إبراهيم عن سارة امرأته هى أختى. فأرسل (أبيمالك) ملك جرار وأخذ سارة. فجاء الله إلى أبيمالك فى حلم الليل وقال له: ها أنت ميت من أجل المرأة التى أخذتها، فإنها متزوجة ببعل، ولكن لم يكن أبيمالك قد اقترب منها. فقال يا سيد: أأمة بارة تقتل. ألم يقل هو لى إنها أختى وهى أيضا نفسها قالت هو أخى.

بسلامة قلبى ونقاوة يدى فعلت هذا. فقال له الله فى الحلم: أنا أيضا علمت أنك بسلامة قلبك فعلت هذا. وأنا أيضا أمسكتك عن أن تخطئ إلى، لذلك لم أدعك تمسها. فالآن رد امرأة الرجل فإنه نبى، فيصلى من أجلك فتحيا. وإن كنت لست تردها فاعلم أنك موتا تموت أنت وكل من لك.

فبكر أبيمالك فى الغد ودعا جميع عبيده وتكلم بكل هذا الكلام فى مسامعهم. فخاف الرجل جداً. ثم دعا أبيمالك إبراهيم وقال له: ماذا فعلت بنا وبماذا أخطأت إليك حتى جلبت على وعلى مملكتى خطية عظيمة. أعمالاً لا تعمل عملت بى. وقال أبيمالك لإبراهيم: ماذا رأيت حتى عملت هذا الشىء. فقال إبراهيم: إنى قلت ليس فى هذا الموضع خوف الله البتة. فيقتلوننى لأجل امرأتى. وبالحقيقة أيضاً هى أختى ابنة أبى غير أنها ليست ابنة أمى فصارت لى زوجة. وحدث لما أتهنى الله من بيت أبى أنى قلت لها هذا معروفك الذى تصنعين إلى فى كل مكان نأتى إليه قولى عنى هو أخى.

فأخذ أبيمالك غنماً وبقراً وعبيداً وإماء وأعطاها إبراهيم، ورد إليه سارة امرأته. وقال أبيمالك: هو ذا أرضى قدامك، اسكن فيما حسن فى عينيك. وقال لسارة: إنى قد أعطيت أخاك ألفا فضة. ها هو لك غطاء عين من جهة كل ما عندك، وعند كل واحد فأنصفت. فصلى إبراهيم إلى الله. فشفى الله أبيمالك وامرأته وجواريه فولدن لأن الرب كان قد أغلق كل رحم لبيت أبيمالك بسبب سارة امرأة إبراهيم».

وقد ذهب الكاتب الإسلامى عبد الحميد جودة السحار فى كتابه عن إبراهيم إلى نفى مثل هذه الكذبة عن نبى الله إبراهيم، وعلل ذلك بأنه لا يمكن لنبى أن يكذب. كما قال ذلك أيضاً عندما وقعت سارة أسيرة فى يد فرعون مصر وقالت هو أخى وقال إبراهيم هى أختى، وحدثت المعجزة عندما هم بها الفرعون فأمسك الله يده ولم يطلقها إلا بعد أن دعت له سارة.

وفى رأيى أن إبراهيم عليه السلام لم يكذب، وإنما قال الصدق لأن سارة أخته من أبيه، فهى أخته إذن، وكان من عادة أهل مصر وبلاد ما بين النهرين، أن يتزوجوا من شقيقاتهم. وإذا كان إبراهيم عليه السلام قد قال ذلك لكى يخرج امرأته من الأسر ومن سطوة أبيمالك، فهو قول حسن ورأى صواب لم يجانب الحقيقة من أنها أخته. وقد يكون قال ذلك على سبيل التورية فهى أخته فى الإسلام «إنما المؤمنون إخوة» وقوله إنها أخته ورد فى حديث صحيح.

نساء يعقوب

وتزوج نبى الله يعقوب من أربع نساء، هن ابنتا خاله ليئة وراحيل، ثم تزوج من جاريتيهما: زلفة وبلهة. وأنجب يعقوب منهن اثنى عشر ولدا، هم أسباط بنى إسرائيل.

أنجب من ليئة: رأوبن، وشمعون، ولاوى، ويهوذا، ويساكر، وزبولون.

ومن راحيل: يوسف عليه السلام، وبنيامين.

ومن بلهة جارية راحيل: دان، ونفتالى.

ومن زلفة جارية ليئة: جاد، وآشير.

وترجع التوراة (سفر التكوين ٣٢: ٢٢ ـ ٣٠) سر تسمية يعقوب بإسرائيل، أثناء عودته من بيت خاله فى مدينة (حاران) إلى أرض كنعان (فلسطين): «قام فى تلك الليلة وأخذ امرأتيه وجاريتيه وأولاده.. وأجازهم الوادى، وأجاز ما كان له. فبقى يعقوب وحده. وصارعه إنسان حتى طلوع الفجر، ولما رأى أنه لا يقدر عليه، ضرب حق فخذه. فانخلع حق فخذ (يعقوب) فى مصارعته معه. وقال: أطلقنى لأنه قد طلع النجر. فقال يعقوب: لا أطلقك إن لم تباركنى. فقال له: ما اسمك؟. قال: يعقوب، قال: لا يدعى اسمك فيما بعد يعقوب بل إسرائيل، لأنك جاهدت مع الله والناس وقدرت. وسأل يعقوب وقال: أخبرنى باسمك. فقال: لماذا تسأل عن اسمى؟ وباركه هناك. فدعى يعقوب اسم المكان: فنئيل، قائلاً: لأنى نظرت الله وجهاً

لوجه ونجيت نفسى.

وهناك حكاية أخرى يذكرها بعض المفسرين من أنه نام فى مكان هادئ، تحت ظل شجرة فى مدينة (حاران)، وتوسد حجراً ونام، ورأى فيما يرى النائم سلماً منصوباً إلى السماء والملائكة تنزل وتعرج فيه، وقد أسرى الله به وأطلق عليه لقب إسرائيل (إسرا ـ ئيل) والئيل هو الله، وبذلك يكون معنى اسمه الذى أُسرى به إلى الله وجعله نبيّاً. وكان عمه إسماعيل هو أول من تسمى بهذا الاسم (اسما ـ ئيل) أى من سمع الله دعاء أمه وأبيه.

امرأتا موسى

وتزوج موسى عليه السلام بزوجتين: صفورة. ابنة شعيب كاهن مدين، عندما هرب من مصر بعد أن قتل المصرى إلى أرض مدين (سيناء) ووجد عند البئر فتاتين لا تستطيعان أن ترويا عطش غنميهما، حيث تزاحم الشباب حول البئر، فقام إلى مساعدتهما ونام تحت شجرة، فجاءته إحداهما تسعى على استحياء ليقابل والدها، فعرض عليه أن يتزوج إحدى ابنتيه على أن يؤجره سبع حجج كمهر لها أو يكملها عشرا من عنده.

وتزوجها موسى وأنجب منها ابنه: جرشوم.

ثم تزوج من بعد ذلك من امرأة كوشية (حبشية) وكان عمره نحو تسعين عاماً، وكان ذلك عقب خروجه من مصر.

وقوبل هذا الزواج من قبل هارون وشقيقته بالنقد الشديد، ولكن الله دافع عن موسى وعاقبهما كما تقول التوراة، ولكن موسى تشفع لهما.

نساء جدعون

وتزوج جدعون من نساء كثيرات، ذهب بعض المؤرخين إلى أنهم أكثر من ٢٣ امرأة.

وجدعون هو الذى اختاره الله سبحانه وتعالى بعد ـ موسى ويشوع ـ ليخلص

شعبه من ذل الميديانيين والكنعانيين والذين كانوا يهاجمون الإسرائيليين ويستولون على زرعهم وضرعهم وكل أملاكهم، وكانوا يقهرونهم ويستذلونهم.

تقول التوراة: «إذا زرع إسرائيل كان يصعد المديانيون والعمالقة وبنو المشرق، يصعدون عليهم. وينزلون عليهم، ويتلفون غلة الأرض إلى مجيئك إلى غزة، ولا يتركون لإسرائيل قوت الحياة ولا غنما ولا بقرا ولا حميرا، فذل إسرائيل جداً من قبل المديانيين، وصرخ بنو إسرائيل إلى الرب» (قضاة ٦: ٣ ـ ٢٦).

وتمكن جدعون من تخليص بنى إسرائيل من ذل وسطوة المديانيين والعمالقة والكنعانيين وبنى المشرق.

تقول التوراة: «واستراحت الأرض أربعين سنة فى أيام جدعون». قضاة ٦: ٣٤، ٨، ٢٨.

وتقديرا لمكانته وأعماله الرائعة وبطولاته وتحريره شعب إسرائيل من الطغاة، عرضوا عليه، مكافأة له، أن يكون ملكاً عليهم، وأن يمتد الملك إلى أبنائه وأبناء أبنائه بالوراثة.

ولكنه رفض ذلك وقال: «لا أتسلط عليكم، ولا يتسلط ابنى عليكم. الرب يتسلط عليكم» قضاة ٨: ٢ ـ ٢٣.

ومات جدعون بعد أن ترك سبعين ولداً من صلبه، ويقول المؤرخون إنه تزوج أكثر من ٢٣ امرأة.

تقول التوراة: «كان لجدعون سبعون ولداً خارجون من صلبه، لأن كانت له نساء كثيرات» (قضاة ٨: ٣٠ ـ ٣١).

نساء نبى الله داود

كان من أجمل الأنبياء والرسل، خِلقة وخُلقا، وتواضعاً، وكان شديد الذكاء، لا يلين فى الحق، فصيح اللسان، حلو الصوت لدرجة أن الطيور فى

السماء كانت تعشق الاستماع إليه وتتوقف عن الطيران.

وتروى كتب التفسير أن آدم عليه السلام عندما رأى ذريته، وكان من بينهم داود، سرة جماله وقوامه، واستزاده من عمره خمسين سنة على أن تنقص من عمره هو، وعندما جاء ملك الموت لآدم، قال له: لقد بقى من عمرى خمسون سنة. قال له: لقد وهبتها من قبل لابنك داود.

وكان داود شجاعاً، وهو الذى قتل جالوت وخلص الإسرائيليين من جبروته وسطوته. وكان شاؤل الملك قد وعد من يقتله أن يزوجه من ابنته (ميكال)، ولكنه خاف منّ داود بعد أن رأى حب الشعب له، وتقديره له، بعد أن أظهر شجاعة وبطولة خارقة، وتوجس منه خيفة بأن يستولى على ملكه، ولكنه اهتدى إلى حيلة قد تخلصه من داود وطلب منه ١٠٠ غلف للفلسطينيين. ولكن داود قتل ٢٠٠ فلسطينى وأتى بغلفهم (الجلدة التى تقطع من عضو الذكورة عند الختان) وأعطاها شاول.

وتزوج داود من ميكال. ولكن الأمور ساءت مرة أخرى بين الملك وداود ففسخ زواجه منها وأعطاها لآخر.

واستعاد داود زوجته مرة ثانية بعد موت الملك وأرغم زوجها بالقوة على إعادتها إليه، «وكان رجلها يسير معها ويبكى وراءها» كما تقول التوراة. (صموئيل الثانى ٣: ١٢ - ١٦).

وعمل داود (كما يقولون) فترة قاطع طريق يفرض الإتاوة على الناس، مقابل حمايتهم، وتوفير سبل الراحة لهم.

وكانت عصابته تضم ٦٠٠ عضو، يبعث بهم إلى الأثرياء والتجار والأغنياء لجمع الإتاوة، ومن يرفض دفعها يقتل أو يعاقب عقاباً شديداً.

ورفض أحد الأثرياء (نابال الكرملى) دفع الإتاوة، فخرج إليه داود فى عصابته يريد قتله، لكن زوجة الثرى (أبيجال) منعته من ذلك، وبعد عشرة

أيام مات نابال وتزوج داود من زوجته (أبيجال). (كذا)

تقول التوراة (صموئيل الأول ٢٥: ٢ ـ ٤٢): «كان رجل فى معون وأملاكه فى الكرمل، وكان الرجل عظيماً جداً، واسم الرجل (نابال) واسم امرأته (أبيجال)، وكانت المرأة جيدة الفهم وجميلة الصورة، وسمع داود فى البرية أن نابال يجز غنمه، فأرسل داود عشرة غلمان وقال: قولوا لنابال: حين كان رعاتك معنا لم نؤذهم ولم يفقد لهم شىء كل الأيام التى كانوا فيها فى الكرمل، فأعط ما وجدته يدك لعبيدك ولابنك داود، فأجاب نابال عبيد داود وقال: من هو داود؟..آخذ خبزى ومائى وذبيحى الذى ذبحت لجازى وأعطيه لقوم لا أعلم من أين هم.

فقال داود لرجاله: ليتقلد كل واحد منكم سيفه، وتقلد داود أيضاً سيفه. وصعد وراء داود نحو أربع مائة رجل ومكث مئتان مع الأمتعة.

فبادرت (أبيجال) وأخذت مئتى رغيف خبز وزقى خمر وخمسة خرفان، ووضعتها على الحمير، وإذا بداود ورجاله منحدرون لاستقبالها فصادفتهم.

ولما رأت (أبيجال) داود أسرعت ونزلت عن الحمار وسقطت أمام داود على وجهها وسجدت إلى الأرض، وسقطت على رجليه وقالت: على أنا يا سيدى هذا الذنب، والآن هذه البركة التى أتت بها جاريتك إلى سيدى فلتعط للغلمان السائرين وراء سيدى.

فقال داود لأبيجال: مبارك إله إسرائيل الذى أرسلك هذا اليوم، لأنك منعتنى من إتيان الدماء، وانتقام يدى لنفسى.

وبعد نحو عشرة أيام ضرب الرب نابال فمات.

فلما سمع داود أن نابال مات، أرسل داود وتكلم مع أبيجال ليتخذها له امرأة، فقامت أبيجال وسارت وراء رسل داود وصارت له امرأة.

وأصبح داود ملكاً على إسرائيل. وانتقل من حبرون إلى أورشليم،

وأخذ يدعم ملكه، ويضم إليه زوجات جديدات من كل صنف ولون: معكة بنت تكماى ملك جشور، وحجيث، وأبيطال، وعجلة.

وكان داود ابن ثلاثين سنة عندما أصبح ملكاً على كل إسرائيل. واستمر فى ملكه أربعين سنة أخرى، وضم فيها الكثير من النساء والسرارى.

وتروى التوراة حكاية غريبة بل هى كاذبة قطعاً عن نبى الله داود مع بتشبع امرأة أوريا الحثى، والأنبياء معصومون من مثل ذلك تقول: «وكان فى وقت المساء أن داود قام عن سريره وتمشى على سطح بيت الملك، فرأى من على السطح امرأة تستحم. وكانت المرأة جميلة جداً. فأرسل داود وسأل عن المرأة فقال واحد: أليست هذه بتشبع امرأة أوريا الحثى (أحد جنوده). فأرسل داود رسلاً وأخذها، فدخلت إليه، فاضطجع معها، وهى مطهرة من طمثها. ثم رجعت إلى بيتها. وحبلت المرأة، فأرسلت وأخبرت داود وقالت: إنى حبلى.

فأرسل داود إلى يوآب (قائد الجيش) يقول: أرسل إلى أوريا، فأتى أوريا إليه وقال داود لأوريا: إنزل إلى بيتك واغسل رجليك، فخرج أوريا من بيت الملك، ولم ينزل إلى بيته. فأخبروا داود، فقال لأوريا: أما جئت من السفر، فلماذا لم تنزل إلى بيتك؟ فقال أوريا لداود: إن التابوت وإسرائيل ويهوذا ساكنون فى الخيام وسيدى يوآب وعبيد سيدى نازلون على وجه الصحراء، وأنا آتى إلى بيتى لآكل وأشرب وأضطجع مع امرأتى!!

وحياتك وحياة نفسك لا أفعل هذا الأمر.

ودعاه داود فأكل أمامه وشرب وأسكره، وخرج عند المساء، وإلى بيته لم ينزل.

وفى الصباح كتب داود مكتوباً إلى يوآب (قائد الجيش) وأرسله بيد أوريا. وكتب فى المكتوب يقول: اجعلوا أوريا فى وجه الحرب الشديدة، وارجعوا من ورائه، فيضرب ويموت.

وكان فى محاصرة يوآب المدينة أنه جعل أوريا فى الموضع الذى علم أن رجال اليأس فيه. ومات أوريا الحثى. فأرسل يوآب وأخبر داود، فقال داود للرسول: هكذا تقول ليوآب: لا يسوء فى عينيك هذا الأمر، لأن السيف يأكل هذا وذاك.

فلما سمعت امرأة أوريا أنه قد مات أوريا رجلها، ندبت بعلها. ولما مضت المناحة، أرسل داود وضمها إلى بيته، وصارت له امرأة وولدت له ابنا (سليمان الحكيم)، وأما الأمر الذى فعله داود فقبح فى عينى الرب» (صموئيل الثانى ١١: ١ ـ ٧).

وهذه القصة أنكرها كل علماء المسلمين، لأنها تتنافى مع أخلاق نبى وعصمته، اختاره الله لهداية الناس والحكم بينهم بالحق، مما جعل على بن أبى طالب ـ كرم الله وجهه ـ يقول: لو سمعت رجلاً يذكر أن داود ﷺ قارف من تلك المرأة محرماً، لجلدته ستين ومائة، لأن حد قاذف الناس ثمانون، وحد قاذف الأنبياء الضعف ستون ومائة.

وهناك قصة أخرى ترويها التوراة عن داود ﷺ عندما كبر وشاخ وأصبح مسنا لا يستطيع أن يفعل شيئاً، وأصبح البرد يلازمه.

فقال له عبيده: ليفتشوا لسيدنا الملك على فتاة عذراء فلتقف أمام الملك، ولتكن له حاضنة، ولتضطجع فى حضنك فيدفأ سيدنا الملك.

فتشوا عن فتاة جميلة فى جميع تخوم إسرائيل، فوجدوا أبيشبح الشونمية فجاءوا بها إلى الملك.

وكانت الفتاة جميلة جدا، فكانت حاضنة الملك

وكانت تخدمه، ولكن الملك لم يعرفها. (الملوك الأول ١ : ١ ـ ٤).

ويقول أحمد عبد الوهاب فى كتابه (تعدد نساء الأنبياء) أن زوجات داود ﷺ ٢٩ زوجة، و ٤٠ سرية، ويصبح المجموع ٦٩ امرأة. بل إن حساب ٦٩ امرأة يعد رقماً متواضعاً إذا قورن بما كان عليه الحال فى زمنه وأسرته.

زوجات سليمان عليه السلام

وتزوج نبى الله سليمان ألف امرأة (٧٠٠ زوجة و ٣٠٠ من السرارى) وكان على رأسهن بنت فرعون مصر. وهو أكثر نبى ورسول يتزوج بمثل هذا العدد الكبير والهائل من النساء، لدرجة أن أى إنسان عادى يفكر كيف كان نبى الله سليمان يجتمع بهن؟ ومتى؟ وأين؟.. لولا أن جواب السؤال معلق أمام أى إنسان، فهو نبى الله، أعطاه كل شىء. القوة، والقدرة، والعزيمة، والحكمة التى يستطيع من خلالها أن ينظم حياته المعيشية والزوجية.

تقول التوراة: «وأعطى الله سليمان حكمة، وفهما كثيرا جدا، ورحبة قلب كالرمل الذى على شاطىء البحر. وفاقت حكمة سليمان حكمة جميع بنى المشرق، وكانوا يأتون من جميع الشعوب ليسمعوا حكمة سليمان من جميع ملوك الأرض الذين سمعوا بحكمته». (الملوك الأول ٤ : ٢٩ ـ ٣٤)

ويذكر القرآن الكريم سليمان عليه السلام وحكمته العظيمة فى الآية الكريمة:

﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾

وكان سليمان يأكل فى اليوم الواحد ثلاثين كرّ سميذ، وستين كر دقيق، وعشرة ثيران مسمنة، وعشرين ثورا من المراعى، ومئة خروف، ما عدا الأيائل والظباء والأوز المسمن. كما جاء فى التوراة.

ومن المؤكد أن كل هذه الكمية لم تكن له وحده، وإنما مع زوجاته الألف، وحاشيته، وأتباعه، وباقى أهل بيته.

وذكرت بعض الروايات، وبعض المفسرين والمؤرخين أن سليمان تزوج من بلقيس ملكة سبأ، واختلفت الروايات فى كيفية تعرفه بها.

فى التوراة ـ الأصحاح العاشر ـ أنها سمعت بخبر سليمان لمجد الرب، فأتت تمتحنه بمسائل، فأتت أورشليم بموكب عظيم جدا، بجمال حاملة

أ د . با وذهبا كثيرا جدا، وحجارة كريمة، وأتت سليمان وأخبرته بكل ما كان فى قلبها، فأخبرها سليمان بكل كلامها .. وأعطت الملك مئة وعشرين وزنة ذهب، وأطيابا كثيرة جدا، وحجارة كريمة لم يأت بعد مثل ذلك الطيب فى الكثرة الذى أعطته ملكة سبأ للملك سليمان.

وأعطى الملك سليمان لملكة سبأ كل مشتهاها الذى طلبت عدا ما أعطاها إياه حسب كرم الملك سليمان. فانصرفت وذهبت إلى أرضها هى وعبيدها.

وفى هذا اختلاف كبير عما جاء فى القرآن الكريم، فى التوراة قبل سليمان الهدية، وفى القرآن الكريم رفض قبول الهدية، لأنه كان يدعو إلى عبادة الله الواحد الأحد وترك عبادة الشمس، وأعاد الهدية إليها وقال: ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ صدق الله العظيم.

وقالت بلقيس: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

وآمنت بلقيس، وأسلمت لله، وأسلم معها شعبها.

وقد خشيت الجن أن يتزوج سليمان من بلقيس لأن أمها كانت من الجن فتتسلط عليهم معه. ويقول ابن كثير: إن الجن أرادوا أن يكون منظرها غير حسن عند سليمان، وأن تبدى ساقيها عند سليمان بعد أن حسبت أن الصرح لجة وكشفت عن ساقيها، ذلك أن ساقيها مليئتان بالشَّعر. إلا أن سليمان قيل إنه لما أراد أن يتزوجها سأل الإنس عن زواله. فذكرا له الموسى. فامتنعت عن ذلك. وسأل الجان، فصنعوا له النورة، ووضعوا له الحمام. فكان أول من دخل الحمام. فلما وجد مسه قال: أوه من عذاب الله، أوه أوه، قبل الا ينفع أوه.

وذكر الثعلبى: أن سليمان بعد أن تزوجها أقرها على مملكة اليمن وردها إليه. وكان يزورها فى كل شهر مرة، فيقيم عندها ثلاثة أيام ثم يعود على البساط. وأمر الجان فبنوا له ثلاثة قصور باليمن: غمدان وسالحين وبيتون.

وقال ابن إسحاق، عن وهب بن منبه: إن سليمان لم يتزوجها، بل زوجها بملك همدان، وأقرها على ملك اليمن، وسخر زوبعة ملك اليمن فبنى لها القصور الثلاثة.

وبرغم الألف زوجة، إلا أن سليمان ظل حكيماً، متمتعاً بكل قواه العقلية، والروحية، والجسدية، فلم يفقد منها شيئاً، وكان الله خير حافظ له.

وأصبحت حكمته مضرب الأمثال. يقول القرآن الكريم فى سورة الأنبياء: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ (الآية: ٧٨، ٧٩). صدق الله العظيم.

والآية الكريمة تشير إلى حكاية قوم كانت لهم مزرعة كرم فأكلته أغنام قوم آخرين، فتحاكموا إلى داود عليه السلام، فحكم لأصحاب الكرم بقيمته. فلما خرجوا على سليمان قال: بم حكم لكم نبى الله؟ فأخبروه بما فعل. فقال: لو كنت مكانه لما حكمت إلا بتسليم الغنم إلى أصحاب الكرم، فيستغلونها نتاجاً حتى يصلح أصحاب الغنم كرم أولئك ويردوه إلى ما كان عليه. ثم يتسلموا غنمهم. فبلغ داود عليه السلام ذلك فحكم به.

وعن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «بينما امرأتان معهما ابناهما إذ عدا الذئب فأخذ ابن إحداهما، فتنازعتا على الآخر. فقالت الكبرى: إنما ذهب بابنك. وقالت الصغرى: بل إنما ذهب بابنك.

فتحاكمتا إلى داود فحكم للكبرى. فخرجتا على سليمان فقال: ائتونى بالسكين أشقه نصفين، لكل واحدة منكما النصف. فقالت الصغرى: يرحمك الله هو ابنها. فقضى به لها» أى الصغرى.

وتقص التوراة الحكاية بشكل آخر. ففى الأصحاح الثالث من الملوك:

أتت امرأتان زانيتان إلى الملك، ووقفتا بين يديه. فقالت المرأة الواحدة:

استمع يا سيدى. إنى أنا وهذه المرأة ساكنتان فى بيت واحد، وقد ولدت معها فى البيت. وفى اليوم الثالث بعد ولادتى ولدت هذه المرأة أيضاً، وكنا معاً، ولم يكن معنا غريب فى البيت غيرنا نحن فى البيت. فمات ابن هذه فى الليل لأنها اضطجعت عليه. فقامت فى وسط الليل وأخذت ابنى من جانبى وأمتك نائمة، وأضجعته فى حضنها، وأضجعت ابنها الميت فى حضنى. فلما قمت صباحاً لأرضع ابنى إذ هو ميت. ولما تأملت فيه فى الصباح إذ هو ليس ابنى الذى ولدته. وكانت المرأة الأخرى تقول: كلا بل ابنى الحى وابنك الميت. وهذه تقول: لا بل ابنك الميت وابنى الحى.

فقال الملك: ائتونى بسيف. فأتوا بسيف بين يدى الملك. فقال الملك: اشطروا الولد الحى اثنين، وأعطوا نصفا للواحدة، ونصفا للأخرى.

فتكلمت المرأة التى ابنها الحى إلى الملك لأن أحشاءها اضطرمت على ابنها. وقالت: استمع يا سيدى. أعطوها الولد الحى ولا تميتوه. وأما تلك فقالت: لا يكون لى ولا لك. اشطروه. فأجاب الملك وقال: أعطوها الولد الحى ولا تميتوه فإنها أمه. ولما سمع جميع إسرائيل بالحكم الذى حكم به الملك خافوا الملك لأنهم رأوا حكمة الله فيه لإجراء الحكم.

وتقول كتب الأسفار أن سليمان فى شيخوخته أحب نساءً كثيرات، وأملن قلبه وراء آلهة أخرى، ولم يكن قلبه كاملاً مع الرب إلهه كقلب داود أبيه.

فذهب سليمان وراء عشتورت إلاهة الصيدونيين، وملكوم رجس العمونيين، وعمل سليمان الشر فى عينى الرب ولم يتبع الرب تماماً كداود أبيه. حينئذ بنى سليمان مرتفعة لكموش رجس الموآبيين. وللملوك رجس بنى عمون. وهكذا فعل لجميع نسائه الغريبات اللواتى كن يوقدن ويذبحن لآلهتهن.

فغضب الرب على سليمان لأن قلبه مال عن الرب إله إسرائيل الذى تراءى له مرتين وأوصاه فى هذا الأمر أن لا يتبع آلهة أخرى. فلم يحفظ ما أوصى به الرب.). (الملوك الأول ١١: ١ ـ ١٠).

وهكذا جعل كتبة الأسفار الكاذبون سليمان كافراً فى شيخوخته. ولكن القرآن الكريم برأه من تلك التهمة الظالمة، واعتبرها أحاديث شياطين. قال تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾ (البقرة: ١٠٢).

ومات سليمان بعد أن حكم أربعين سنة ودفن بمدينة داود أبيه، ولم تعرف الجن الذين كانوا فى خدمته نبأ موته وهو فى وسطهم. يقول تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾. (سبأ: ١٤).

وعن ابن عباس أن النبى ﷺ قال:

«كان سليمان نبى الله ﷺ إذا صلى رأى شجرة نابتة بين يديه، فيقول لها:

- ما اسمك؟

فتقول: كذا.

فيقول: لأى شىء أنت؟

فإن كانت لغرس غرست، وإن كانت لدواء أنبتت.

فبينما هو يصلى ذات يوم إذ رأى شجرة بين يديه فقال لها:

- ما اسمك؟

قالت: الخروب.

قال:

- لأى شىء أنت؟

قالت:

- لخراب هذا البيت.

فقال سليمان:

- اللهم عَمِّ على الجن موتى حتى تعلم الإنس أن الجن لا يعلمون الغيب. فنحتها عصا فتوكأ عليها حولا والجن تعمل. فأكلتها الأرضة. فتبينت الإنس أن الجن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا حولا فى العذاب المهين.

ومن حديث رسول الله ﷺ نتبين أن سليمان عليه السلام كان مازال متمتعاً بكل قواه العقلية، والحكمة البليغة التى منحها إياه الله سبحانه وتعالى، حتى فى لحظات موته، وهذا يؤكد أن كل ما جاء على لسان كتبة الأسفار غير صحيح، وأن كل ما التصق بسيرة نبى الله سليمان مجرد أكاذيب وحكايات ملفقة لا ترقى أبداً إلى مرحلة الحقيقة أو حتى الاقتراب منها ولو من بعد، ولكنه - ربما - عنصر الإثارة والتشويق الذى كان يتبعه كتبة الأسفار وساعدهم على ذلك ما تمتع به سليمان من قوة خارقة وسيطرة كاملة على الرياح، ومعرفة كاملة بمنطق الطير، فأعطاهم ذلك فرصة لكتابة ما يريدون.

نساء النبى ﷺ

تعددت زوجات النبى، مما دفع بعض المستشرقين إلى القول بأنه كان يحب النساء، وكان يحب صغيرات السن، كما كان يحب العجائز (خديجة بنت خويلد) لأنه كان يتيماً فنشأ محروماً من حنان الأمومة وعطفها وشفقتها، ومن ثم سعى للزواج منها - رغم أنها هى التى سعت إليه - لكى يسد هذا النقص، ولكى يحصل على أموالها الكثيرة لتساعده فى نشر دعوته، وتكوين مركز اجتماعى كبير يليق به بين تجار مكة الأثرياء، ويضعه فى مصاف علية القوم ووجهائهم.

وأرجعوا زواجه من عائشة وحفصة لكى يدعم مركزه من خلال صداقته بأبى بكر وعمر بن الخطاب، وأما باقى زيجاته فكانت لأسباب أخرى، وليكتسب بها عطف أهل مكة والمسلمين، وليصبح أهلهن سندا له فى المستقبل.

وقد يكون سبب هذا القول أن محمداً عندما تزوج من خديجة كانت تكبره بخمسة عشر عاماً. كان هو فى الخامسة والعشرين وكانت هى فى الأربعين - ومن ثم قال المستشرقون إنه سعى إليها بفعل عطف الأمومة التى حرم منها وكذلك لكى يستولى على أموالها.

وقالوا أيضاً إنه تزوج من عائشة ذات العشر سنوات، ليشبع رغباته الجنسية، وهو قول مريض ومردود عليه بأن من صفات العرب عموماً خطبة البنات والزواج بهن فى سن صغيرة، ذلك أن طبيعة الطقس الحارة تعجل بتفتح البنات فى المناطق الحارة، كما تتفتح الأزهار فى موسم الربيع، كما تساعد على سرعة النضج، والاستواء، والاكتمال الأنثوى.

وربما ولهذا السبب أيضاً تكبر النساء وتشيخ مبكراً فى هذه المناطق، وتعزف عن العلاقات الزوجية، أو تبرد وتخفت رغباتها رويداً رويداً حتى تذبل وتموت ومازال الزوج أو الرجل قادراً على العطاء. ومازال ذلك حادثاً حتى يومنا هذا فى كل هذه المناطق.

وربما كان ذلك وراء السر فى انتشار الزواج بأكثر من واحدة فى منطقة الشرق، حيث يتشابه الطقس فى كل بلاده مع اختلاف بسيط لا يشكل فارقاً يذكر. ولم تحرم ديانة سماوية تعدد الزوجات اللهم إلا المسيحية، وإن كان هناك اختلاف لدى بعض مذاهبها التى أخذت تبيح تعدد الزوجات.

وخليل الله إبراهيم ﷺ، تزوج كثيراً كما ذكرنا من قبل، وتزوج هاجر المصرية وكان عمره ستاً وثمانين سنة، ولم تكن هاجر قد تجاوزت العشرين من عمرها. وبذلك يصبح فارق السن بينهما خمساً وخمسين سنة.

ونبى الله داود ﷺ، توفى وعمره سبعون سنة وزوجوه وهو على فراش المرض من (أبيشج الشونمية) وكانت لم تتجاوز العشرين سنة. وكما جاء فى التوراة: «ولما شاخ الملك داود وتقدم فى الأيام. فتشوا على فتاة

جميلة.. فوجدوا أبيشج الشونمية فجاءوا بها إلى الملك» لتدفئه وتكون حاضنته، أى تحضنه وتدفئه، وتثير داخله الغريزة، حتى يقبل على الحياة، وتسترسل فى داخله الدماء، وتعود إليه الصحوة بعد النشوة.

فمسألة زواجه من عائشة لم تكن لأسباب جنسية كما يقول المستشرق (بودلى) وإنما كانت لأن عائشة بنت صديقه أبى بكر، وأول من أسلم به وصدقه من الرجال، كما أن فكرة الارتباط بعائشة جاءت عندما عرضت (خولة بنت حكيم) على الرسول الزواج منها وقالت له: إن زواجه من عائشة فى ذلك الوقت إن هو إلا خطبة، وبذلك يضمن أن بنت أعز أصدقائه، وأخلصهم تصبح من أسرته. وقبل الرسول الزواج بها.

وفى رأيى أن زواجه منها كان إلهاماً من الله عز وجل لرسوله، ذلك أن السيدة عائشة ـ لصغر سنها وفرط ذكائها، وقدرتها على المحاورة والمداورة ـ كانت وسيلة لإبلاغ المسلمين بما كان يفعله الرسول ويقوله، داخل بيته، ومع نسائه، ومع كل من يزوره أو يلتقى به، أو يسأله فى أمور الدنيا والدين. فتمثل بها المسلمون، لأنها أصبحت سنة من سنن الرسول، وهو يقول ﷺ: خذوا عنى مناسككم. وصلوا كما رأيتمونى أصلى.

فالرسول كان قدوة لكل المسلمين. ومن ثم فإن أى تصرف أو قول أو فعل، يتخذه الرسول أو يقوله أو يعمله، فهو سنة، وهو قدوة، يجب العمل مثله. لأن الرسول إن هو إلا وحى يوحى إليه، وهو الأسوة الحسنة التى يجب أن يتأسى بها المسلمون، ويقتدوا بكل ما تفعله، أو تقوله، أو تصنعه.

وكان رسول الله ﷺ يقول: «خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء ويقصد السيدة عائشة».

فقد كانت شديدة الذكاء، لماحة، سريعة البديهة، حاضرة الكلمة، خفيفة الظل، مرحة، تبعث فيما حولها الحياة، وتجدد الأمل، وتأسو الجراح، وتخفف الآلام.

وكانت عائشة زعيمة مجموعة من الزوجات فى البيت النبوى. فقد كانت مولعة بعمل الطرائف بين زوجات الرسول، زينب بنت جحش وأم سلمة بنت أبى زاد الركب وجويرية بنت الحارث وصفية بنت حيى، وأم حبيبة، ومارية القبطية (وكانت أمة ملك يمين)، وريحانة بنت عمر والتى لم يكمل الرسول زواجه بها بعد الحيلة التى عملتها بها، ثم آخرهن التقية الورعة ميمونة بنت الحارث.

وأدركت عائشة بذكائها الشديد أن حفصة بنت عمر بن الخطاب، شابة وإن كانت قد تزوجت من قبل الرسول من الصحابى الجليل (خنيس بن حذافة بن قيس بن عدى السهمى القرشى) الذى هاجر إلى الحبشة ثم هاجر إلى المدينة فراراً بدينه، وأصيب فى معركة أحد ومات متأثراً بجراحه..

أدركت أنها لن تستطيع مواجهتها، فعملت على كسب رضاها لتكون فى صفها، وبذلك عزلتها فى ذكاء وهدوء عن باقى زوجات الرسول، وأمنت جانبها.

وتمكنت أن تبعد سودة والتى كان الرسول قد تزوج بها بعد موت خديجة لترعى أولاده وأسرته، رغم أنها كانت مسنة ومتعبة، وتنازلت عن ليلتها مع رسول الله لعائشة، حبّاً فى رسول الله ولكى تظل معه أما للمؤمنين، وحبّاً فى عائشة والتى أدركت مدى حب رسول الله لها.

وعندما تزوج النبى من زينب بنت جحش، وكانت شديدة الجمال، لاحظت عائشة أن رسول الله يطيل البقاء عندها، فأرادت أن تصرفه عن ذلك، واتفقت مع حفصة على أن تقولا لرسول الله عندما يقابلانه:

ـ هل أكلت مغافير؟ وهى ثمرة كريهة الرائحة وكان رسول الله لا يطيق الرائحة الخبيثة.

سألته عائشة ذلك، ثم سألته حفصة، ثم سألته سودة ذات السؤال.

فنفى رسول الله.

لكن عائشة قالت له سريعاً:

ـ وما هذه الريح؟

قال:

ـ سقتنى زينب شربة من عسل.

فقالت وكأنها خبيرة بمراعى البادية:

ـ رعت نحله العرفط شجر المغافير.

فحرم النبى على نفسه شرب العسل عند زينب من ذلك اليوم.

وذات يوم سمعت أن النبى سوف يتزوج من (أسماء بنت النعمان) وكانت جميلة، فقررت أن تتخلص منها قبل أن تنضم إلى البيت النبوى.

وفى ليلة عرسها، نصحتها عائشة، بأن تستعيذ بالله عند دخول رسول الله عليها.

فصدقتها المسكينة. وما كادت ترى رسول الله ﷺ يدخل عليها حتى استعاذت بالله.

فصرف النبى وجهه عنها وقال:

ـ لقد عذت بمعاذ.

وتركها وانصرف. وأمر بأن تلحق بأهلها. ولم تفلح كل مساعى أهلها فى إعادتها إليه.

وعندما عرف الرسول من بعد ذلك الحكاية، ضحك وهو يقول:

ـ «إنهن صواحبات يوسف، وإن كيدهن عظيم».

وعندما حدث حادث الإفك، واتهمت فى شرفها، لم تضمن، ولم تهن، حتى أظهر الله براءتها من فوق سبع سماوات، وهبط عليه الوحى ببراءتها: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (النور: ١١).

فبشر النبى أبا بكر ببراءة ابنته عائشة، وطلبت منها أمها أن تقوم إلى زوجها، لكنها قالت فى عزة وإباء:

ـ والله لا أقوم إليه، فإنى لا أحمد إلا الله عز وجل، هو الذى أنزل براءتى.

وتبسم النبى من قولها. فقد كان يعرفها جيداً، شديدة الاعتداد بنفسها، وذكائها، وحسن تصرفاتها.

وكان يقول لها دائماً: «حبك يا عائشة فى قلبى كالعروة الوثقى»(١).

وماتت عائشة فى السادسة والستين، ودفنت فى البقيع، بعد أن ساهمت كثيراً فى نشر التعاليم الإسلامية، كما أرادها رسول الله، وشرحت للمسلمين أصول دينهم، وماذا كان يفعل الرسول أو يقول فى مسألة ما.

ومن هنا ـ أقول ـ إن زواج النبى بعائشة كان لهدف إلهى وهو نشر السنة المحمدية بعد موت الرسول، وإرشاد الناس إلى ما يجب عليهم عمله واتباعه، وكأن الله عز وجل قد اختارها لهذه المهمة الجليلة.

وقال عنها الإمام (الزهراوى): لو جمع علم عائشة إلى علم جميع أزواج النبى ﷺ، وعلم جميع النساء، لكان علم عائشة أفضل.

رحم الله عائشة، ورضى عنها فقد أدت مهمتها خير تأدية، وعملت على نشر السنة المحمدية، وإرشاد الناس إلى الصواب.

وكانت العلاقة الزوجية بين النبى ونسائه، علاقة طبيعية، مثل أى زوج مسلم، يحرص على بيته، وإرضاء زوجاته، وإسعادهن، وملاطفتهن، وتحمل متاعبهن. وكان يتابع الأحداث فى البيت النبوى، ولا تغيب عنه شاردة أو واردة، ولم تشغله مهمة الرسالة الإلهية عن واجباته المنزلية، والأسرية، وعلاقاته مع أزواجه.

---

(١) تفصيلات أخرى كثيرة فى كتاب فوزى شعبان: مكائد النساء فى حياة الرسل والأنبياء. إصدار دار الأحمدى للطباعة والنشر.

كان يؤمن بأن هذه رسالة أخرى، ومهمة لابد لأى زوج، مهما كان، حتى ولو كان رسولا، أن يقوم بها. وكان يسابق زوجاته، ويلاطفهن، ويستمتع بما تعمله عائشة من طرائف، ولكنه كان يتدخل إن تجاوز الأمر مداه، حتى إنه فى إحدى المرات هجر البيت، واعتكف بعيداً لمدة شهر حتى شاع بين المسلمين أن الرسول طلق زوجاته، فأسرع أبو بكر ينهر ابنته عائشة، وأسرع عمر بن الخطاب يلوم ابنته حفصة ويتوعدها. ونفى النبى إشاعة طلاقه لزوجاته. وعاد إليهن بعد أن أدبهن بتركهن، وهجرهن حتى عدن إلى رشدهن.

حكمة تعدد الزوجات

ومما سبق يتبين لنا أن تعدد الزوجات بين الأنبياء كان أمراً واقعاً، وقدراً مقدوراً، أراده الله لرسله وأنبيائه لحكمة لا يعلمها إلا هو، وليكونوا قدوة لغيرهم من بعدهم فيما قد تحمله الأيام والسنوات القادمة للإنسان من آلام أو آمال أو مشاكل. فقد أراد الله أن يضع لنا القدوة من أنبيائه ورسله، حتى نتخذ منهم العظة والعبرة وقت الظلمة والشدة، ونتبع خطاهم، ونسترشد بأفعالهم وأعمالهم، فهم أنوار الهداية إذا عم الظلام ودام.

وليس من المقبول مثلاً أن يتزوج نبى الله سليمان ألف امرأة، ونبى الله داود من ٦٩ امرأة، وجدعون من ٢٣ امرأة، ويعقوب من ٤ نساء، وموسى من امرأتين، ومحمد ﷺ من ١٠ نساء، ومن قبل كل هؤلاء خليل الله إبراهيم عليه السلام من ١٣ امرأة، دون أن يكون فى ذلك حكمة إلهية، قد تكون خافية عنا اليوم، ولكنها سوف تتكشف لنا مستقبلاً.

وقد ضرب الله لنا مثلاً بالأنبياء، لنتخذ منهم قدوة ومثلاً نتدبره فى حياتنا الدنيا. وأرسى لنا مبدأ تعدد الزوجات ليكون وسيلة لتحقيق هدف ما، وهو بالتأكيد صيانة البشرية والحفاظ عليها من الانقطاع.

ففى حالات الحروب الكبيرة، كما شاهدنا فى الحربين العالميتين، يموت رجال كثيرون ـ كما حدث فى ألمانيا مثلاً ـ وأصبحت النساء دون

رجال، لدرجة أن ألمانيا كانت تستورد لهم الرجال من كل العالم لتحافظ على النوع، ولتسد جوع الإناث الجنسى وحاجتهن إلى رجال، وكانت تشجع هجرة الشباب إليها من الدول النامية والفقيرة، وكانت تقدم المساعدات للبنات اللاتى يحملن (من أى شاب) وترعاهن حتى يلدن، ثم تتكفل الدولة بكل شىء من بعد ذلك، سواء فى الغذاء والكساء، والتعليم، والحياة والعمل، وكل ذلك لكى تتواصل الحياة داخل الدولة. ولا تصبح مطمعاً للآخرين، أو أرضاً خربة تنعق فيها الطيور المهاجرة، وتزأر الحيوانات الجائعة.

ومما يؤيد ذلك أيضاً التقرير الذى نشرته الحكومة الإيطالية عام ٢٠٠٦ حول انعدام الزيادة السكانية بها، وتوقف نموها من سنوات، بسبب إصرار النساء على عمل الرجيم وعدم الحمل حتى لا يفسدن جمال أجسامهن، فتوقف نمو شعب إيطاليا، ولم يسجل أى زيادة عددية منذ سنوات، وأخذت الحكومة تطرح خطة جديدة تهدف إلى تشجيع الشباب من دول العالم للهجرة إليها.

حتى لا تموت، أو تزول من الخريطة العالمية.

ومن قبل إيطاليا واجهت أيضاً فرنسا ذات المشكلة، وبادرت هى الأخرى بتشجيع الدول النامية إلى الهجرة إليها.. وأصبح الآن بها خمسة ملايين مسلم أكثرهم من دول غرب أفريقيا العربية المسلمة، ولهذا دارت صيحة الآن فى فرنسا بأنها قد تتحول إلى دولة إسلامية فى غضون عشرين أو ثلاثين سنة فقط، وذلك بمقارنة ما تلده الأسرة المسلمة مع ما تلده الأسرة الفرنسية، ذلك إن ولدت أى شىء.

فتعدد الزوجات أمر شرعه الله سبحانه وتعالى، لمواجهة مثل هذه الحالات، وأن يكون هناك أبناء شرعيون من صلب أبناء الدولة، خير من أبناء مستوردين، لا ينتمون إليها.

ولا أحد يعرف ماذا ستسفر عنه الاكتشافات العلمية الحديثة،

ورحلات الفضاء إلى القمر والمريخ وكل الكواكب الأخرى. وماذا ستسفر عنه حروب القرن القادم بالأسلحة الذرية والهيدروجينية والبيولوجية وما سوف يستجد منها، وما خفى منها عنا كان أعظم. ففى كل يوم نستمع ونشاهد أنواعاً جديدة من أسلحة الدمار الشامل لم نعرفها من قبل، ولم يذكرها لنا رئيس دولة أو عالم من العلماء. فكل شىء فى هذا المجال سرى للغاية، وحتى يقضى على البشرية، كما فعلت القنبلة الذرية فى هيروشيما.

ومن هنا تتجلى الحكمة الإلهية فى تعدد الزوجات للإنسان، وأن يكون أنبياء الله ورسله، هم القدوة للإنسانية فى هذا المجال.

إنها حكمة إلهية، ليست فى حاجة إلى المجادلة والمناقشة. لأنها ليست لليوم فقط، وإنما للعمر كله، وحتى يفنى هذا الكون، ويرجع كل شىء فيه إلى خالقه سبحانه وتعالى.

* * *

ثالثاً ـ الزواج والطلاق فى المسيحية

فى كتاب عن الزواج والحياة الزوجية، أصدرته بطريركية الأقباط الأرثوذكس (بيوت صلاة بيوت طهارة) فى سنة ١٩٩٦، جاء فى الفصل الأول منه: «سر الزيجة، هو السر السادس من أسرار الكنيسة السبعة، وهو من الأسرار الخاصة، وليست العامة، أى أنه ليس من الضرورى ممارسته على الجميع، فهناك البتوليون والرهبان، إلا أنه لا يقل فى أهميته عن الأسرار الأخرى. فهو يتم فى الكنيسة وأمام مذبح رب الصباؤوت (الجنود).

وقد نشأ الزواج منذ البدء على أساس من الحب والوحدة فى أقوى صورها، فلم يخلق الله لآدم أكثر من حواء، رغم أن الله لم تنقصه المادة لصنعها، ولا القدرة على ذلك، لكنه أراد أن يقيم الرباط الزوجى مؤسساً على الحب والوحدة بين الاثنين، لا يدخل بينهما ثالث يفرقهما. فالذى جمعه الله لا يفرقه إنسان.

وفى كتاب القمص يوسف أسعد (أضواء على البيت المسيحى) يقول: فالزواج ليس بديلاً للزنا بالشهوة، إنما هو محاولة إسعاد كل شريك للآخر، بإعطائه جسده وعقله وروحه. لذا فالمضطجع فى البيت المسيحى هو قدس للرب، والمضطجع النقى فى البيت يعرف متى يمنح ومتى يمنع. ملابس النساء فى المضطجع غير عارية لأن المرأة ليست إناء للشهوة وكذلك الرجل.

لذلك فإن الهدف الحقيقى للزواج فضلاً عن أنه ولادة الأولاد لبقاء النوع، فهو أيضاً لدفع ألم الشهوة بالاجتماع.

فالعلاقة الزوجية هنا علاقة مقدسة، وفى نفس الوقت هى احتياج بيولوجى، كما أنه إعانة لكل منهما لآخر لتخفيف متاعب الحياة.

وكذلك فإن الهدف من العلاقة الزوجية ليست وسيلة لطلب الذرية فقط وإيجاد الخلف، كما نسمع فى وصايا الإكليل المقدس، ولكنها وسيلة لضبط شهوات الجسد كما يقول القديس بولس: «لا يسلب أحدكم الآخر إلا أن يكون على موافقة إلى حين لكى تتفرغوا للصوم والصلاة، ثم تجتمعوا

أيضاً معاً لكى لا يجربكم الشيطان لسبب عدم نزاهتكم».

وقد جاء فى قانون الأحوال الشخصية الموحد للمسيحيين فى مصر: أن الزواج المسيحى رباط دينى مقدس دائم. يتم بمراسم دينية على يد رجل دين مسيحى وبشرط رضاء الزوجين وفى سن ١٨ سنة للرجل و ١٦ سنة للمرأة.

ويبدأ الزواج بالخطبة أمام كاهن، وتتم الخطبة علانية ويقدسها الكاهن بكلمة الله.

ثم (عقد الإملاك) وهو مقدمة للإكليل وتعنى عهداً وميعاداً للتزويج، ويقوم به الكاهن باستخدام خاتمى الذهب، علامة الختم المسيحى والمحبة، ويدل على الكرامة التى نالتها المرأة، ويكون الخاتم من الذهب لأنه أثمن المعادن، ويرمز للمحبة التى هى أعظم المواهب.

ثم عقد الزواج ويتم فى الكنيسة وأمام مذبح رب الصباؤوت، ويقوم به الكاهن وفى حضور شهود كثيرين، حيث تجلس العروس على يمين عريسها لأن الله من جنب آدم الأيمن خلق المرأة وأحضرها إليه.

وتضمن مشروع قانون الأحوال الشخصية الموحد والموقع عليه من المجمع المقدس، أن موانع الزواج هى:

- القرابة من الزواج بالنسبة للرجل والمرأة على السواء: بالأصول وإن علوا (الأم - الجدة) والفروع وإن نزلوا (الابنة - الحفيدة).
- فروع أبوية (الإخوة والأخوات ونسلهم).
- فروع جدية (الأعمام والعمات والأخوال والخالات دون نسلهم).
- بعد وفاة الزوجة، لا يجوز للزوج أن يتزوج بأم زوجته أو أختها أو جدتها، ولا بابنتها التى رزقت بها من زوج آخر.
- لا يجوز الزواج بزوجة والده أو زوجة عمه أو خاله أو جده أو أمها أو ابنتها، أو بنت ابنها أو بنت ابنتها.. ولا بزوجة أخيه وأصولها وفروعها.

- بأخت زوجة والده وأخت زوج والدته وأخت زوجة ابنه وأخت زوج ابنته.

وما يحرم على الرجل يحرم على المرأة.

- لا يجوز الزواج بين المتبنٍى والمتبنًى وفروع هذا الأخير. كما لا يجوز الزواج بين الأولاد الذين يتبناهم شخص واحد.
- لا يجوز الزواج الثانى قبل انحلال الزواج القائم، لأن تعدد الزوجات محظور فى المسيحية.
- لا يجوز زواج من طُلق لعلة زناه ولا القاتل عمداً أو شريكه بزوجة قتيله.
- لا يجوز الزواج بمن ينتمى إلى دين آخر أو مذهب غير مسيحى كالسبتيين وشهود يهوه.
- لا يجوز زواج من كان لديه مرض يمنعه من الاتصال الجنسى، كالعنة والخنوثة والخصاء، وكذلك الجنون، وأمراض السيل الزهرى والجذام.

ويبطل عقد الزواج: إذ لم يتوافر فيه رضاء الزوجين، رضاء صحيحاً صادراً عن حرية واختيار. وإذ لم يتم بالمراسم الدينية علناً بحضور شاهدين مسيحيين على الأقل. وإذ لم يبلغ الزوجان السن القانونية، وإذا تم فى وجود أحد موانع الزواج السابقة أو إذا كان أحد طرفيه مرتبطاً بزواج صحيح قائم.

وإذا تزوج القاتل عمداً أو شريكه بزوج قتيله. وإذا تزوج المسيحى بمن ينتمى إلى دين آخر أو مذهب آخر غير مسيحى. أو إذا كان أحد الزوجين سبق تطليقه لعلة زناه.

ويبطل زواج الرجل الذى يخطف امرأة بقصد تزوجها إذا عقد الزواج وهى فى حوزته.

أو إذا وقع غش فى شأن بكارة الزوجة. إذا ادعت أنها بكر وتبين أن بكارتها أزيلت بسبب سلوكها أو فى خلوها من الحمل وتبين أنها حامل.

وينحل الزواج الصحيح إذا مات أحد الزوجين أو الطلاق لعلة الزنا أو ترك الدين المسيحى إلى دين آخر.

ويعتبر فى حكم الزنا: كل عمل يدل على الخيانة الزوجية كما فى: هروب الزوجة مع رجل غريب أو مبيتها معه، وظهور خطابات صادرة من أحد الزوجين لشخص غريب تدل على وجود علاقة آثمة بينهما. ووجود رجل غريب مع الزوجة فى منزل الزوجية بحالة مريبة. أو تحريض الزوج لزوجته على ارتكاب الزنا والفجور. أو إذا حبلت الزوجة فى فترة يستحيل معها اتصال زوجها بها لغيابه أو مرضه. أو لوجود شذوذ جنسى.

والزيجة الثانية غير مستحبة، وليس لها بركة إكليل بل صلاة استغفار، فلا يقول الكاهن: عقد إملاك وزواج الابن المبارك البكر.. وإنما يقول: عقد إملاك وزواج (فلان) على..

وأما الزيجة الثالثة فهى مكروهة، وليس فى الكنيسة بعدها زيجة شرعية.

ويعد من موانع الزواج أيضاً، اختلاف المذاهب، فقد جاء فى قوانين الأحوال الشخصية، أنه لا يجوز الزواج لدى الكنيسة القبطية الأرثوذكسية إلا بين مسيحيين أرثوذكس، وذلك لأنه كثيراً ما يكون اختلاف المذاهب سبباً لنكد العائلة، وتعاسة المعيشة. فكيف يستقيم البيت وهناك واحد منهم يذهب إلى الكنيسة التى لا يذهب إليها الآخر(١).

وقد حددت الكنيسة أن تكون الزوجة واحدة، حيث لا يجوز للمسيحى أن يتزوج بأكثر من واحدة، وإن توفيت أو افترقت عنه شرعاً له أن يتزوج بأخرى. فلا يجوز الجمع بين زوجتين فى وقت واحد. ويعتبر الزواج الثانى باطلاً، ذلك لأن الله لم يخلق سوى معيناً واحداً للرجل «ليكون لكل واحد امرأته وليكن لكل واحدة رجلها» (كو ٧: ٢).

وإذا كان موسى النبى صرح بإمكانية تعدد الزوجات والطلاق، إلا أن النهى كان شديداً لعدم الطلاق واحترام رباط الزيجة بواحدة. فقد جاء فى ملاخى النبى: من أجل أن الرب هو الشاهد بينك وبين امرأة شبابك التى

(١) كتاب القمص صليب سوريال ص ٧٢.

أنت غدرت بها وهى قرينتك وامرأة عهدك.. فاحذروا لروحكم ولا يغدر أحد بامرأة شبابه، لأنه يكره الطلاق. قال الرب إله إسرائيل (ملا ٢: ١٤ ـ ١٦).

فالله لم يخلق إلا معينا واحدا للرجل، ولو كان من الضرورى الجمع بين عدة زوجات، لكان الله خلق العدد المناسب منهم لآدم. لذلك عندما سأل الفريسيون الرب عن ذلك قال لهم: أما قرأتم أن الذى خلق منذ البدء خلقهما ذكراً وأنثى. وقال: من أجل هذا يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته ويكون الاثنان جسداً واحداً، إذا ليسا بعد اثنين بل جسداً واحداً، فالذى جمعه الله لا يفرقه إنسان. (مت ١٩: ٤ ـ ٦).

وقد برر المسيح وصية موسى أن يعطى كتاب طلاق فتطلق أنه من أجل قساوة قلوبهم، أنه من البدء لم يكن هكذا.

وفى عبارة يلتصق بامرأته دليل على وحدانية الزوجة، وعدم السماح بتعدد الزوجات لأن الزواج مكرم فى كل شىء (عب ١٤: ٤).

وإن كان من أغراض الزواج ممارسة العلاقة الجسدية بين الزوجين حسب النظام الطبيعى الذى أوجده الله، فإن مخالفته بتعدد الزوجات، يدل على الشره، والخروج عن دائرة الاعتدال والعفاف، التى يجب أن يتحلى بها أولاد الله.

رأى البابا شنودة

وفى تصريحات صحفية نشرتها وكالة أنباء الشرق الأوسط، وتصدرت صدر الصفحة الأولى من جريدة الوفد يوم الجمعة ١٢ فبراير سنة ٢٠٠٤، أكد البابا شنودة بابا الإسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية، أن جميع الأزواج المسيحيين يعاملون معاملة واحدة فى قضايا الطلاق، وأن هذه المعاملة مرجعها الكتاب المقدس، ووصاياه، وتعاليم المسيحية والتى لا تسمح بالطلاق إلا فى أضيق حدود، وأقل الحالات.

ونفى البابا شنودة وجود أى وساطة أو تمييز فى تعامل الكنيسة مع قضايا طلاق الأقباط.

وقال: إن حصول بعض الأقباط على أحكام قضائية بالطلاق، لا يلزم الكنيسة بالاعتراف بها، بل إن هذه الأحكام تعتبر مجرد طلاق مدنى، وليس طلاقاً دينيّاً.

ذلك أن الطلاق الدينى، له مواصفات معينة، ومرجعه الأساسى الوصايا الدينية، والشريعة المسيحية.

وأكد أن المعايير واحدة للجميع، ولا تفرقة، ولا خواطر، ولا مجاملات، ولا تمييز.

وقال: إنه شخصياً لا يحلل أو يحرم، وليس له أى سلطة فى هذا الشأن.

وقال: إن المجلس الأكليركى للكنيسة القبطية هو الجهة المخولة بدراسة الأحوال الشخصية للأقباط الراغبين فى الطلاق.

وأضاف: أنه يتم دراسة كل حالة على حدة، وبمفردها، وطبقاً لظروفها وأحداثها، والواقع الذى تمثله، ويتم اتخاذ القرار المناسب طبقاً لكل حالة، فإن وافق المجلس الأكليركى على الطلاق فإنه يتخذ القرار المناسب بشأنه، ويمنح تصاريح الزواج مرة أخرى.

وكان الحديث قد كثر فى مصر عقب حصول الفنانة هالة صدقى على حكم المحكمة بطلاقها من زوجها بعد منازعات استغرقت أكثر من عشر سنوات أمام المحاكم، وطالبت فى دعواها بتطبيق مبدأ (الخلع) الذى طبقته المحاكم المصرية منذ سنوات قليلة، ويقضى بحق المرأة المسلمة فى طلب الانفصال والطلاق من زوجها، إذا استشعرت من هذه العلاقة ضرراً كبيراً يعود عليها، أو أن زوجها يسىء معاملتها إساءة بالغة، أو تركها وسافر أو هاجر من سنوات طويلة، أو امتنع عن الإنفاق عليها، وحبسها، فلا هى

تزوجت من غيره، وبحثت عن وسيلة معيشة أخرى مريحة، ولا هو ينفق عليها ويعولها كما يقول الدين الإسلامى الحنيف.

وكذلك إن تزوج الزوج بأخرى دون علمها أو موافقتها، فأصابها الضرر من وجود زوجة أخرى، وكذلك إن دأب على الاستمرار فى الاعتداء عليها بالضرب المبرح والمؤلم والذى يترك آثاراً على الجسد، ويشوه ما خلق الله.

وكانت المحاكم المصرية قد أخذت بهذا المبدأ من سنوات قليلة مضت، أسوة بما اتبعه محمد رسول الله ﷺ عندما جاءته امرأة مسلمة تشكو إليه زوجها، ومعاملته، وهجره، وأنها لم تعد تستطيع الاقتراب منه، أو محادثته، أو لقائه، أو معاشرته المعاشرة الزوجية.

فطلب منها رسول الله أن تعيد إليه كل ما أخذته منه، من عقار وهدايا وعطايا - إن وجدت - مقابل حصولها على الطلاق، وذلك حتى لا يضار الزوج من طلاقه من زوجته. وكذلك حتى لا تطمع بعض الزوجات واللاتى فى قلوبهن مرض، ويطلبن الطلاق والانفصال عن الزوج، بعد أن يستولين على أمواله وعقاراته وكل ما يملك.

وبذلك يتحول الزواج الحلال، إلى وسيلة للابتزاز والسرقة، والاحتيال، والنصب على الأزواج، والقانون بالطرق الشرعية والقانونية.

الزواج العرفى وزواج الضرند
وزواج المسيار والزواج الأبيض

ترفض الديانة المسيحية كل أنواع هذا الزواج، وتصف مثل هذه العلاقة، بأنها علاقة شهوانية، وحب محرم يقوده الشيطان، أساسه حب المال وغايته إشباع شهوات ردية.

وقد عرف القمص صليب سوريال الزواج العرفى فى كتابه «قوانين الأحوال الشخصية» بأنه «عقد يحرره العاقدون، وهو باطل، لأنه لا يقوم به

الكاهن، ولا يتم بمراسم الإكليل».

وعرف الزواج المدنى بأنه: يتم على يد السلطة الإدارية من غير تدخل السلطة الكنسية، وبدون مراسم دينية.

ويقول: إنه فى القانون المصرى عقد باطل، وتعتبر العلاقة فيه بين الطرفين علاقة غير شرعية.

ويتساءل أغنسطس صفوت مقار فى الكتاب الذى أعده (بيوت صلاة):

لماذا نحزن قلب المسيح الذى ابنته الزوجة المسيحية، قد تركت بيت زوجها، أو ابنته التى تركت بيت أبيها، لأن عدو الخير أوقعها فى حباله، وأسقطها فيما يسمى بالحب مع إنسان غير مؤمن؟ وما هذا إلا حب شهوانى شيطانى.

فتقبل الزواج بابن الشيطان فى زواج عرفى مدنى . وللأسف عندما تفيق من سكرتها، ويفتضح أمرها، بدلاً من أن تقدم توبة وندماً، تطلب فى محضر رسمى فى الشرطة، حمايتها من أبيها وإخوتها، وتؤخذ التوقيعات على ذلك.

ويتساءل أيضاً: كيف يرتاح الضمير بهذا العقد المكتوب، لا فى كنيسة، ولا أمام مذبح رب الصباؤوت. والذى لا يتعدى كونه اتفاقاً بين طرفين على المعايشة معاً، فترة من الزمن، قد تطول أو تقصر.

يتفقان خلالها على عدم الإنجاب، أو لا يتفقان، ويسكران بالحب المزيف الشهوانى، ليفيقا وقد وجدا طفلاً بينهما لا يعرف من هو؟ وما هى ديانته؟ فيكون مصيره التشرد غالباً لعدم استمرار هذه الزيجات.

ومما هو جدير بالإشارة أيضاً ما يسمع عن أولادنا فى الخارج، فقد يلجأ البعض منهم إلى ما يسمى «الزواج المؤقت» أو «الزواج الأبيض» أو «الزواج على الورق» أو ما ظهر أخيراً بما يسمى «زواج المسيار» بمعنى

استمرار الزواج لفترة الغربة، بالنسبة للمسافرين للعمل فى الخارج، وعند العودة، ينفصل دون أدنى حقوق أو التزامات. وكل هذه الزيجات شيطانية.

وقد حرص السيد المسيح على إعلان تمسكه بما جاء به الأنبياء من قبله، وقال لبنى إسرائيل:

«لا تظنوا أنى جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء. ما جئت لأنقض بل لأكمل. فإن الحق أقول لكم، إلى أن تزول السماء والأرض، لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل». (متى ١٧ ـ ١٩).

وحين شفى المسيح (أبرصَ) قال له: «اذهب أر نفسك للكاهن، وقدم عن تطهيرك ما أمر به موسى شاة لهم» (مرقس ١: ١٤).

ولكن السيد المسيح حرم الطلاق، رغم أن الشريعة اليهودية أجازته، تقول التوراة: إذا أخذ رجل امرأة وتزوج بها، فإن لم تجد نعمة فى عينيه، لأنه وجد فيها عيب شىء، وكتب لها كتاب طلاق ودفعه إلى يدها، وأطلقها من بيته، ومتى خرجت من بيته ذهبت وصارت لرجل آخر.

فإن أبغضها الرجل الأخير، وكتب لها كتاب طلاق ودفعه إلى يدها وأطلقها من بيته، أو إذا مات الرجل الأخير الذى اتخذها له زوجة، لا يقدر زوجها الأول الذى طلقها أن يعود يأخذها لتصير له زوجة. (تثنية ٢٤/ ١٠٠٤).

يقول متى فى مماحكة الفريسيين حول الطلاق: «وجاء إليه الفريسيون ليجربوه قائلين له: هل يحق للرجل أن يطلق امرأته لكل سبب. قال: أما قرأتم أن الذى خلق من البدء، خلقهما ذكراً وأنثى، من أجل هذا يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته، ويكون الاثنان جسداً واحداً، إذا ليس بعد اثنين، بل جسد واحد. فالذى جمعه الله لا يفرقه إنسان».

قالوا له: فلماذا أوصى موسى أن يعطى كتاب طلاق، فتطلق.

قال لهم: إن موسى من أجل قساوة قلوبكم أذن لكم أن تطلقوا.

وأقول لكم: إن مطلق امرأته إلا بسبب الزنا وتزوج بأخرى، يزنى. والذى يتزوج بمطلقه يزنى.

قال له تلاميذه: إن كان هكذا أمر الرجل مع المرأة فلا يوافق أن يتزوج.

فقال لهم: ليس الجميع يقبلون هذا الكلام، بل الذى أعطى لهم. لأنه يوجد خصيان ولدوا هكذا من بطون أمهاتهم. ويوجد خصيان خصاهم الناس. ويوجد خصيان خصوا أنفسهم لأجل ملكوت السموات.

من استطاع أن يقبل فليقبل. (متى ١٩: ٣ ـ ١٢).

ويقول أحمد عبد الوهاب فى كتابه «تعدد نساء الأنبياء صـ ١٤١»:

بل إنا لنجد الأمثال التى ضربها المسيح ـ من واقع الحياة ـ وأصدر أحكامه فيها صراحة أو ضمنا، ما يؤيد عدم تعريضه بتعدد الزوجات، وذلك فى مثل العذارى:

«يشبه ملكوت السماوات عشر عذارى أخذن مصابيحهن وخرجن للقاء العريس. وكان خمس منهن حكيمات وخمس جاهلات. أما الجاهلات فأخذن مصابيحهن ولم يأخذن معهن زيتاً. وأما الحكيمات فأخذن زيتا فى آنيتهن مع مصابيحهن. وفيما أبطأ العريس نعسن جميعهن ونمن. ففى نصف الليل صار صراخ: هو ذا العريس مقبل فاخرجن للقائه. فقامت جميع أولئك العذارى وأصلحن مصابيحهن. فقالت الجاهلات للحكيمات: أعطيننا من زيتكن فإن مصابيحنا تنطفئ. فأجابت الحكيمات قائلات: لعله لا يكفى لنا ولكن، بل اذهبن إلى الباعة وابتعن لكن.

وفيما هن ذاهبات ليبتعن جاء العريس والمستعدات دخلن معه إلى العرس وأغلق الباب.

أخيراً جاءت العذارى أيضاً قائلات: يا سيد افتح لنا. فأجاب وقال: الحق أقول لكن: إنى ما أعرفكن. فاشهدوا إذن لأنكن لا تعرفن اليوم ولا

الساعة التى يأتى فيها ابن الإنسان». (متى ٢٥: ١ ـ ١٣).

فهذا المثل يقر بتعدد الزوجات الذى سمح به ناموس موسى، ومارسه الآباء والأنبياء، ومارسه الشعب الإسرائيلى، كما مارس الطلاق أيام المسيح، لكنه يندد فقط بتقاعس العذارى الجاهلات وعدم استعدادهن ليوم الزفاف.

ويتساءل عن الوضع الذى كان عليه بعض الناس أيام المسيح، ولهم أكثر من زوجة.

ويقول الذى لاشك فيه، أن مثل هذا الوضع العادى لا يخضع لأى نص من جميع النصوص التى أوردها متى ومرقس ولوقا، وتحت أى صيغة من الصيغ، سواء أكانت حسب التراجم القديمة أو الحديثة. ومن ثم يبقى كل رجل منهم على حاله، يعيش فى مشروعية مع زوجاته وسراريه العديدات.

إن هذا يؤكد مرة أخرى مشروعية تعدد الزوجات.

كما أن موسى حدد أنواع النساء اللاتى يمكن للكهنة الزواج منهن. فقد قال الرب لموسى: كلم الكهنة بنى هارون وقل لهم.. امرأة زانية، أو مدنسة لا يأخذوا، ولا يأخذوا امرأة مطلقة من زوجها (لاويين ٢١: ١ ـ ٧).

وهذا يعنى أن الكاهن يستطيع أن يتزوج من: عذراء، أو أرملة.

وأما الكاهن الأعظم فليس أمامه إلا نوع واحد فقط، «فهذا يأخذ امرأة عذراء» (لاويين ٢١: ١٣).

ومعنى ذلك أنه يحرم على الكاهن الأعظم الزواج من بقية أنواع النساء وهن: الأرملة، والمطلقة، والمدنسة، والزانية. وهذا ما قرره النص فى لاويين ٢١: ١٤.

ويقول: قياساً على ذلك نقرأ تعاليم بولس فيما يتعلق بزواج الأساقفة، والشمامسة. فهو يقول: «يجب أن يكون الأسقف بلا لوم بعل امرأة واحدة، صاحياً، عاقلاً، محتشماً.. غير مدمن خمر.

ليكن الشمامسة كل بعل امرأة واحدة.

إن هذه الصيغة تعنى بداهة، أن الاقتصار على امرأة واحدة، إنما هو متعلق بطبقة الاكليروس. أما الآخرون وبقية الشعب، فلا يخضعون لنظام الزوجة الواحدة، وبالتالى فإن لهم نظاماً آخر يسمح بتعدد النساء، سواء كن زوجات أو سرارى.

وحين تكلم متى عن مماحكة الفريسيين مع المسيح حول موضوع الطلاق، وقوله لهم: «من طلق امرأته إلا لفاحشة (أو: لعلة الزنا) وتزوج غيرها فقد زنى ـ ١٩: ٩».

استصعب التلاميذ هذا الأمر. فقال لهم: «ليس الجميع يقبلون هذا الكلام».

وبعد أن ذكر أمر الخصيان، قال: «من استطاع أن يقبل فليقبل».

ويتساءل: فإذا كان هذا تشريعاً أو تعليماً قصده المسيح، هل يتركه على هذه الصورة التى تعترف بتفاوت استطاعة الناس فى قبوله، أم يضعه فى صورة ملزمة؟!!

إن ما عقب به المسيح قائلاً: «من استطاع أن يقبل فليقبل» يعنى بداهة ترك التقيد بتعاليمه تلك حسب استطاعة الناس. فتعاليمه هذه المتعلقة بالطلاق والزواج، استحسان وليست إلزاما.

ومن الواضح أن استخدام المسيح لما ورد فى سفر التكوين من أن الزوجين صارا جسداً واحداً، إنما كان تدعيماً للحض على منع الطلاق، بدليل أنه عقب على ذلك بقوله: «فالذى جمعه الله لا يفرقه إنسان».

فالحديث عن الرجل والمرأة كجسد واحد ليس إذن حديثا عن نظام الزوجة الواحدة، ولكنه حديث عن استمرارية العلاقة بينهما. ومن ثم فهو حديث يتعلق بالطلاق، وليس بتعدد الزوجات.

لقد جاء المسيح معلماً وواعظاً ورحمة من الله، فإذا كان فى تعاليمه

الأساسية تحريماً للطلاق وتعدد الزوجات، فهل كان يغفل هذا الجانب الخطير فى حياة الناس.

وقد خلا إنجيل يوحنا من ذكره أو الإشارة إليه.

كما أجمع علماء المسيحية على أن ما ينسب للمسيح من منع الطلاق يعتبر نقضاً صريحاً وواضحاً للناموس، وذلك خلافاً لما سبق أن أعلنه فى مثل قوله: «ما جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء». أو قوله: «زوال السماء والأرض أيسر من أن تسقط نقطة واحدة من الناموس».

وفى هذا تقول الترجمة الفرنسية المسكونية فى تعليقها على ما جاء فى لوقا ١٦ : ١٨ : «إن هذا التحريم للطلاق التقليدى يعتبر واحداً من أكثر تعاليم المسيح نقضاً صريحاً لناموس موسى».

إباحة الطلاق فى أوربا

وفى الوقت الذى تتمسك فيه الكنيسة المصرية بعدم إباحة الطلاق، إلا فى الحالات التى يوافق عليها المجلس الإكليركى للكنيسة القبطية ـ كما قال البابا شنودة ـ نجد أن دول أوربا قد تمردت على ذلك من مئات السنين وسمحت لأى من الزوجين فى حالات معينة أن يطلب الطلاق.

ثم تطور الأمر من بعد ذلك إلى منح الطلاق لأى من الزوجين، إذا كان هناك ضرر ما وقع عليه من جراء هذا الزواج.

فالزوجة أو الزوج هو الذى يقدر مدى الضرر الذى تعرض له، وهل يستطيع استمرار المعاشرة الزوجية، أم أن الضرر يحول دون استمرارها، ومن ثم يصبح من حقه طلب الطلاق.

كما يحق للزوجين معاً الاتفاق على الانفصال لاستحالة وصعوبة الحياة بينهما.

فى أمريكا

أخذت الولايات المتحدة الأمريكية أيضاً بإباحة الطلاق بين المسيحيين، بل إن بعض الولايات جعلته أمراً سهلاً ميسوراً، أمام من يرغب فى ذلك.

وحجتهم أن الحياة تصبح مستحيلة، مع شعور أحد الزوجين بالظلم البين، والإهمال من جانب الطرف الآخر.

وبذلك عادت الكنائس الأوربية إلى أصل العقيدة، وما كان معمولاً به فى التوراة (العهد القديم) وفى أيام المسيح عليه السلام، ومن قبله كل أنبياء الله من إبراهيم عليه السلام إلى خاتم الأنبياء محمد ﷺ.

فالطلاق هو الأصل. ولا يمكن إجبار اثنين على المعيشة تحت سقف واحد، وليس بينهما أى تفاهم، أو مودة، أو محبة، أو أدنى درجات التقارب.

وقد تصل الخلافات بين الزوجين إلى درجة القتل، أو الضرب المبرح، أو الخيانة انتقاما من الزوج المهمل، أو الهاجر لزوجته باحثاً عن لذته مع نساء أخريات.

فالحياة تصبح قطعة من الجحيم، الموت أهون منها.

فى فرنسا

وقد بدأ تطبيق الطلاق فى فرنسا بعد الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩ وأجيز الطلاق بقانون صدر فى سبتمبر سنة ١٧٩٢.

ويقول الكاتب والفقيه الإسلامى مولانا محمد على فى كتابه (الطلاق فى الإسلام) إن الأسباب التى أوجبت إصدار هذا القانون هى:

أن الرغبة فى الطلاق تنبعث عن الحرية الشخصية، وأن ارتباط الزوجين مع عدم انحلال رابطة الزوجية معناه فقدان الحرية.. فالطلاق يمكن حصوله فى هذا القانون، تارة بمعرفة القضاء لأسباب مختلفة منها

(الزنا - سوء المعاملة، العقوبة - الجنون - الغياب الطويل).

ويمكن أن يحدث برضا الزوجين المتبادل، بتقديم تصريح لموظف الأحوال الشخصية بإعلان الطلاق، أو عند عدم اتفاق الزوجين بسبب مغايرة الطباع والأخلاق.

وألغى هذا القانون (الهجر) حيث اعتبره تدبيراً ناقصاً لا يوجد ما يبرر بقاءه.

وفى سنة ١٨٠٤ قبل القانون المدنى الفرنسى فكرة الطلاق، ولكنه قيده بالمواد ٢٢٩ وما بعدها، وأصبح الطلاق لا يمكن إيقاعه إلا عن طريق القضاء، والأسباب: الزنا، صدور العقوبة، سوء المعاملة، الإهانة الجسيمة.

وأعيد حق طلب الطلاق لأسباب (الهجر) ليتيح للأشخاص المتدينين طلبه، بدلاً من انحلال الزواج كلياً.

وبعد عودة الملكية إلى فرنسا سنة ١٨١٤ ميلادية، حرم قانون صدر سنة ١٨١٦ الطلاق، وأجاز الفراق مراعياً مبادئ الكنيسة.

وحدثت فى فرنسا ثورة شعبية ضد قانون الطلاق، وطالبت الجماهير بإعادة حق الطلاق للزوجين.

فجاء قانون ٢٧ يوليو سنة ١٨٨٤ ثم قانون سنة ١٨٨٦ ليعيد حق الطلاق.

ولاتزال أحكام القانونين معمولاً بهما فى فرنسا، وإن كانت قد أضيف إليها فى ١٢ أبريل سنة ١٩٤٥ حق المساواة بين الزوجين فى طلب الطلاق.

وبذلك أصبح حق طلب الطلاق فى فرنسا محصوراً فى: زنا أحد الزوجين - الحكم على أحدهما بعقوبة شائنة - سوء معاملة أحد الزوجين للآخر أو تعذيبه أو إهانته إهانة جسيمة، إذا كان من شأنها الإخلال بالواجبات الزوجية وصيرورة البقاء فى الحياة الزوجية صعباً.

فى سويسرا

ويستطيع أى زوج - فى سويسرا - طلب الطلاق فى حالة الزنا، أو إذا وقع عليه اعتداء من الآخر، أو تعذيب، أو إهانة جسيمة.

أو إذا حكم على أحد الزوجين بعقوبة شائنة، أو سلك سلوكاً مخلاً بالشرف من شأنه جعل الحياة الزوجية غير ممكنة بالنسبة لطالب الطلاق.

أو فى حالة هجر الزوج لزوجته عن نية سيئة مدة سنتين، وفى حالة عدم تقديم مسكن شرعى لها بلا سبب مشروع.

وإذا أصاب أحدهما مرض عقلى جعل الحياة الزوجية متعذرة على شرط استمرار المرض مدة ثلاثة أعوام مع ثبوت تعذر شفائه طبيّاً.

فى ألمانيا وإنجلترا

وقد أخذ القانون الألمانى - تقريباً - بنفس الأسباب السابقة لإجازة الطلاق.

وكذلك أخذ بها القانون فى إنجلترا سنة ١٨٥٧ وإن كان قد أضاف إليها بعض الأسباب، كفعل الزنا مع أحد المحارم، أو زواجه بأخرى، أو اغتصابه النساء، أو ارتكابه اللواط.

الزواج والطلاق فى اليهودية

وفى الديانة اليهودية، تطالب التوراة بزيادة النسل، ومن الشعب المختار أن يتزايد، ومن أبناء إسرائيل أن يثمروا ويتكاثروا ويعمروا الأرض.

تقول التوراة: «خلق الله الإنسان، ذكراً وأنثى خلقهم، وباركهم الله وقال لهم: أثمروا، وأكثروا، واملأوا الأرض، واخضعوها، وتسلطوا على سمك البحر، وعلى طير السماء، وعلى كل حيوان يدب على الأرض». (تكوين ١ : ٢٧ ـ ٢٨).

وشجع أحبار اليهود الإسرائيليين على التكاثر والنماء، ووضعوا لذلك كتاباً أسموه (الأحكام العبرية)، وتقول المادة ٣٩٣ من الكتاب السابع من النكاح: (الزواج).

النكاح بنية التناسل ودوام حفظ النوع الإنسانى فرض على كل يهودى. ومن تأخر عن أداء هذا الفرض وعاش عزباً بدون زواج، كان سبباً فى غضب الله على بنى إسرائيل.

والتناسل والتكاثر كانا منذ البدء مشيئة الله وأمره إلى الناس كافة.

وأن التناسل لا يتم إلا بالزواج، وليس بالخصى واعتزال النساء. كذلك التكاثر لا يتم إلا بالحض على الزواج وإباحة تعدد الزوجات(١).

وتتحدث التوراة عن تعدد الزوجات، وكأنه أمر مفروغ منه، ولم يرد فى أسفار العهد القديم تحديد لعدد النساء اللاتى يسمح بالجمع بينهن، وإن

---

(١) ترجمه إلى العربية محمد حافظ صبرى تحت عنوان المقابلات والمناظرات وهو من تأليف المسيو دى بغلى من علماء اللغات القديمة.

كانت قد نظمت الأمور التى تترتب عليه:

«إذا كان لرجل امرأتان: إحداهما محبوبة والأخرى مكروهة، فولدتا له بنين، المحبوبة والمكروهة، فإن كان الابن البكر للمكروهة، فيوم يقسم لبنيه ما كان له، لا يحل له أن يقدم ابن المحبوبة بكراً على ابن المكروهة البكر. بل يعرف ابن المكروهة بكراً ليعطيه نصيب اثنين من كل ما يوجد عنده، لأنه هو أول قدرته، له حق البكورية». (تثنية ٢١ ـ ١٥ ـ ١٧).

«ولقد عدد الأنبياء زوجاتهم قبل التوراة، كما فعل إبراهيم ويعقوب. كما عدد الأنبياء بعد التوراة، كما فعل موسى وجدعون وداود وسليمان، وكما فعل غيرهم، مثل القانة أبو صموئيل النبى، الذى كان له امرأتان: اسم الواحدة حنا (أم صموئيل) واسم الأخرى فننه ـ صموئيل الأول ١ : ٢».

وبهذا يتأكد لنا أن الديانة اليهودية تعطى للرجل الحق فى تعدد الزوجات، حفاظاً على النوع الإنسانى من الانقراض، ولتكاثر الشعب الإسرائيلى، ولم تحدد عدد الزوجات، وتركت الأمر لكل إنسان قدر ما يستطيع ويقتضى الأمر.

ونظم كتاب «الأحكام العبرية» علاقة الزوج بزوجته، وكيفية المعيشة الزوجية، والطلاق، وجعل من المرأة عبدة للرجل، وهو سيدها.

تقول المادة (٢ ـ ٤) منه «ما أسعد من رزقه الله ذكوراً، وما أسوأ حظ من لم يرزق بغير الإناث. نعم، لا ينكر لزوم الإناث للتناسل، إلا أن الذرية كالتجارة سواء بسواء. فالجلد والعطر كلاهما لازم للناس إلا أن النفس تميل إلى رائحة العطر الزكية وتكره رائحة الجلد الخبيثة، فهل يقاس الجلد بالعطر».

وتنص المادة ٤٠٧ من الأحكام العبرية على أنه: إذ لم تدخل الزوجة على زوجها بمال على ذمة الزوجية، فلا يكلف الزوج بأن ينفق عليها فى غير الحاجيات اللازمة التى لابد منها. أما إذا دخلت عليه بمال، فيجب عليه التوسع فى النفقة بقدر حاله.

وأما سلطة الزوج على الزوجة فى تعليم أمور الدين والدنيا فهى مطلقة لا حدود لها، وعليه أن يستعملها فى محلها مع الحكمة والاعتدال. (مادة ٤١٣).

ومتى خرجت الزوجة من بيت أهلها، ودخلت بيت زوجها، صار له عليها حق الطاعة التامة. والامتثال الكلى فى جميع ما يأمرها به، فعليها ألا تخالفه فى شىء مما يطلبه منها، بل تمتثل له كما تمتثل الجارية إلى سيدها.

ومهما بلغت ثروة الزوجة، ومهما كان مقدار المال الذى دخلت به للإعانة على حوائج الزوجية، فإنه يجب عليها القيام بالأعمال اللازمة لبيتها، صغيرة كانت أم كبيرة، لأن البطالة تؤدى إلى فساد الأخلاق. وليس لها مفارقة زوجها لأى سبب كان حتى لو أصيب بعجز أو صار مقعدا، واحتاج إلى السؤال من أجل النفقة عليها (مادة ٤١٨).

وجميع مال الزوجة ملك لزوجها، وليس لها سوى ما فرض لها من المهر فى عقد الزواج تطالب به بعد موته، أو عند الطلاق إذا وقعت الفرقة. فكل ما دخلت به من المال على ذمة الزوجية، وكل ما تلتقطه، وكل ما تكسبه من سعى وعمل، وكل ما يهدى إليها فى عرسها، ملك حلال لزوجها يتصرف فيه كيف يشاء. بدون معارضة أو منازع (مادة ٤١٩).

وإذا ماتت الزوجة، ولم تعقب ذرية من الأولاد فزوجها وارثها الشرعى. (مادة ٤٢٦).

والأسباب التى يحل معها الطلاق ثلاثة: الزنا، والعقم، وعيوب الخِلقة وعيوب الخلق. (مادة ٤٢٨).

وإذا أشيع عن الزوجة الزنا، ولم تزن فعلاً، أو يثبت عليها ذلك، فيحل للزوج أن يطلقها، كما يحل له طلاقها إذا اتضح له بعد الزواج أنها كانت سيئة السلوك. (مادة ٤٢٩).

ومن لم يرزق بأولاد من زوجته بعد زواج استمر عشر سنوات، فله أن يفارقها ويتزوج غيرها (مادة ٤٣٠).

وليس من حق الزوجة أن تطلب الطلاق من زوجها مهما كانت عيوبه، حتى ولو ثبت عليه الزنا. (مادة ٤٣٣).

ومتى نوى الزوج الطلاق حرمت عليه معاشرة زوجته. فبمجرد عزمه على مفارقتها وجب عليه الإسراع إلى طلاقها. (مادة ٤٣٤).

وأقرتِ اليهودية عقوبات خاصة بالمرأة وحدها، ومثال ذلك: إذا تخاصم رجلان بعضهما بعضاً، رجل وأخوه، وتقدمت امرأة أحدهما لكى تخلص رجلها من يد ضاربه، ومدت يدها وأمسكت بعورته، فاقطع يدها ولا تشفق عينك (تثنية ٢٥: ١١ ـ ١٢).

وإذا تدنست ابنة كاهن بالزنا، فقد دنست أباها، وبالنار تحرق.

(لاويين ٢١: ٩).

* * *

رابعاً ـ الإسلام..
حدد عدد الزوجات

لم يأت الإسلام بتعدد الزوجات. وإنما أتى لكى يحددها بعد أن كثرت من قبله، وأصبحت ظاهرة تحتاج إلى تهذيب وإصلاح وتحديد.

فقد كان عرب الجاهلية يعرفون تعدد الزوجات، إضافة إلى ما ملكت أيديهم من السرارى، والعبيد، وأسرى الحرب، وكل ما يقع تحت أيديهم.

كما عرفته كل الديانات السابقة على الإسلام، فإبراهيم عليه السلام تزوج بأكثر من واحدة، وسليمان تزوج بألف امرأة من بينهن ثلاثمائة من السرارى، وعلى رأس زوجاته ابنة فرعون مصر.

وداود عليه السلام تزوج بأكثر من ثلاثين امرأة، ونسبت إليه التوراة (التى وضعها) اليهود أنه زنى، (عياذا بالله) وقتل زوجاً ليتزوج من امرأته، وأن ابنه سليمان من إحدى هذه النساء.

وموسى عليه السلام تزوج بامرأتين، والشريعة اليهودية لم تحدد عدد الزوجات، وأباحت للرجال الزواج بما يشاءون ويقدرون.

ولم يرد فى أسفار العهد القديم تحديد لعدد النساء اللاتى يسمح بالجمع بينهن.

كما أنه لم يرد فى الإنجيل نص صريح يحرم تعدد الزوجات.

وإذا كان بعض شعوب أوربا قد أخذوا بنظام الزوجة الواحدة، فما ذلك إلا أن معظم الأمم الأوربية الوثنية التى انتشرت فيها المسيحية أول الأمر كاليونان والرومان، كانت تقاليدها تحرم تعدد الزوجات المعقود عليهن.

وقد سار أهلها عقب اعتناقهم المسيحية على ما وجدوا عليه آباءهم من قبل.

والطريف أيضاً أن هناك شعوباً مازالت تأخذ بتعدد الزوجات كالهند والصين واليابان وغيرها من دول الشرق الأقصى.

كما أنه مازال متبعاً فى دول أفريقيا حتى اليوم، وقد حاولت بعثات التبشير بالديانة المسيحية والمرسلة من الكنيسة المصرية إلى هذه الدول لنشر المسيحية بها ـ كما أخبرنى أحدهم ـ أن يحثوهم على اعتناق المسيحية والزواج بواحدة فقط، وإطلاق سراح باقى الزوجات. ولكنهم جميعا رفضوا ذلك وتمسكوا بزوجاتهم ورفضوا اعتناق المسيحية لأنها تنادى بزوجة واحدة فقط ولا يجوز تطليقها من بعد ذلك أبداً.

فما كان منهم إلا أن تركوهم على حريتهم فى تعدد الزوجات، مقابل اعتناق المسيحية.

كما عرف الشعب الروسى واللتوانى والتشيكى والسلوفاكى، وكل أبناء هذه المنطقة تعدد الزوجات منذ القدم.

كما عرفته أيضاً الشعوب الجرمانية والسكسونية أهل ألمانيا والنمسا وسويسرا وبلجيكا وهولندا والدنمارك والسويد والنرويج وإنجلترا.

فالتعدد فى الزوجات لم يكن إذن بدعة إسلامية، وإنما كان واقعاً معمولاً به فى كل شعوب الأرض تقريباً، ومن بينهم أهل الجزيرة العربية. وكان على الدين الإسلامى أن ينظمه ويحدده ويضع القواعد والشروط والقوانين التى تبيحه.

ومن رأى الدكتورة زينب رضوان عميدة كلية دار العلوم جامعة القاهرة فرع الخرطوم ورئيس قسم الفلسفة الإسلامية:

إن نظام تعدد الزوجات لم يبد فى صورة واضحة إلا فى الشعوب المتقدمة فى الحضارة على حين أنه قليل الانتشار أو منعدم فى الشعوب البدائية المتأخرة، كما قرر ذلك علماء الاجتماع ومؤرخو الحضارات وعلى رأسهم وستر مارك وهوبهوس وهيلير وجنوبرج.

فقد لوحظ أن نظام وحدة الزوجية كان النظام السائد فى أكثر

الشعوب تأخراً وبدائية وهى الشعوب التى تعيش على الصيد أو جمع الثمار التى تجود بها الطبيعة عفواً، وفى الشعوب التى تتزحزح تزحزحاً كبيراً عن بدايتها، وهى الشعوب الحديثة العهد بالزراعة.

على حين أن نظام تعدد الزوجات لم يبدُ فى صورة واضحة إلا فى الشعوب التى قطعت مرحلة كبيرة فى الحضارة، وهى الشعوب التى تجاوزت مرحلة الصيد البدائى إلى مرحلة استئناس الأنعام وتربيتها ورعيها واستغلالها، والشعوب التى تجاوزت جمع الثمار والزراعة البدائية إلى مرحلة الزراعة.

وطبقاً لهذه الملاحظة فإنه يتضح لنا أن تعدد الزوجات جاء مع تقدم الإنسان واستقراره، وزيادة موارده، وزيادة ثروته، ومن ثم استقرار حياته.

ونحن نلاحظ انتشار هذه الظاهرة وإلى الآن سواء فى الدول الإسلامية والعربية، أو حتى فى الدول الأوربية المسيحية وغيرها من الدول اللا دينية.

ففى بلادنا نلاحظ أن الأثرياء والأغنياء سواء فى القرى أو المدن يكثرون من تعدد الزوجات، لإمكاناتهم المادية، والجسدية حيث الراحة، ووجود الخدم والحشم والعمال الذين يزرعون ويجمعون ويحصدون ويبيعون. وكذلك الحال مع الأثرياء من التجار.

وفى البلاد الأوربية المسيحية وغيرها نجد أن هناك - رغم التزام الكنيسة بزوجة واحدة - أكثر من صديقة ومحظية وخليلة للرجل، وخاصة الأثرياء والأغنياء منهم لقدرتهم على الإنفاق عليهن.

كما يمكنهم أن يعيشوا معهن دون زواج مع إنجاب ما يشاءون من الأولاد، وحتى لا يكون هناك ارتباط رسمى مع الكنيسة، حتى لا تترتب عليه حقوق وواجبات. ولا نزال نتذكر جيداً عندما تزوج لاعب كرة القدم الأرجنتينى الشهير (مرادونا) من خليلته، وكان وراءه فى حفل الزواج أبناؤه

منها يشاركونه الاحتفال بعقد قرانه عليها. وهناك صور أخرى كثيرة مشابهة لهذا.

فإذا كان تعدد الزوجات أو النساء والخليلات موجوداً فى أوربا وعند المسيحيين وغيرهم حتى اليوم.

فإن الإسلام وضع حداً لكل هذا، وعمل على تنظيمه بحيث لا يخرج عن إطاره الصحيح.

يقول عز وجل:

﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ (النساء: ٣).

وقال سبحانه:

﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾ (النساء: ١٢٩).

يقول سيد قطب فى شرح هذه الآيات فى تفسيره (فى ظلال القرآن):

إن الإسلام لم ينشىء التعدد إنما حدده. ولم يأمر بالتعدد إنما رخص فيه وقيده. وأنه رخص فيه لمواجهة واقعيات الحياة البشرية، وضرورات الفطرة الإنسانية.

وكان تعدد الزوجات بدون حد أقصى موجوداً عند العرب. وروى البخارى بإسناده - أن غيلان بن سلمة الثقفى أسلم وتحته عشر نسوة - فقال له النبى ﷺ - «اختر منهن أربعاً».

وروى أبو داود - بإسناده - أن عمير الأسدى قال: أسلمت وعندى ثمانى نسوة، فذكرت ذلك للنبى ﷺ فقال: «اختر منهن أربعاً».

وقال الشافعى فى مسنده: أخبرنى من سمع ابن أبى الزناد يقول: أخبرنى عبد المجيد عن ابن سهل بن عبد الرحمن، عن عوف بن الحارث،

عن نوفل بن معاوية الديلمى، قال: أسلمت وعندى خمس نسوة، فقال لى رسول الله ﷺ: «اختر أربعاً أيتهن شئت وفارق الأخرى..».

ولكن لماذا أباح الإسلام هذه الرخصة؟

إن الإسلام نظام للإنسان. نظام واقعى إيجابى يتوافق مع فطرة الإنسان التى خلقه الله عليها وتكوينه النفسى والجسمانى. وهو يتوافق أيضاً مع واقعه وضرورات الحياة المتغيرة فى شتى البقاع، وشتى الأزمان، وشتى الأحوال.

إنه نظام لا يقوم على الحذلقة الجوفاء، ولا على التظرف المائع، ولا على المثالية الفارغة، ولا على الأمنيات الحالمة، التى تصطدم بفطرة الإنسان وواقعه، وملابسات حياته، ثم تتبخر فى الهواء.

فهناك حالات فى بعض المجتمعات تزيد فيها النساء عن الرجال بأعداد كثيرة. وهذا يعنى وجود حالات عنوسة كثيرة بين النساء، إذا كان هناك التزام بزوجة واحدة فقط. مما سيدفع بلا شك باقى النساء إلى البحث عن العلاقات المحرمة. وهذا يتنافى مع طبيعة الإسلام. لأنه جاء للكافة. ولعلاج الثغرات التى كانت ضاربة فى أعماق المجتمعات السابقة. والثغرات التى ستضرب المجتمعات الحالية والقادمة.

فهو دين ودنيا. أتى لإصلاح المعوج من تقاليد وعادات الماضى البالية، وليضع قواعد وشروطاً وأصولاً للعلاقات الزوجية القادمة، ويحدد مسارها فى الطريق الصحيح، ويحدد عدد الزوجات بأربع زوجات فى حالة الضرورة القصوى، ولا يزيد عن ذلك كما كان متبعاً من قبل فى إسرائيل ومع الأنبياء، وفى الهند وأوربا وبلاد الشرق الأقصى.

ودرءاً للفتنة، وصونا للأعراض، وحفظا لسلامة المجتمع، وإرضاءً للرغبات. أباح الإسلام الزواج بأربع، حتى تكون العلاقة بين الرجل والمرأة علاقة شرعية وقانونية ويحترمها المجتمع.

فإذا تم تقييد حق الزواج بواحدة فقط. فماذا تفعل باقى النساء فى البلاد التى يكثر عددهن فيها بدرجة كبيرة.

من المؤكد أن الفتنة سوف تستشرى، والعلاقات غير الطبيعة سوف تنتشر، وجرائم الزنا سوف تكثر.

وقد رأينا مثالاً على ذلك فى الدول التى اشتركت فى الحرب العالمية الثانية. رأيناه واضحاً فى ألمانيا، وفى فرنسا، وفى إيطاليا. وفى كثير من دول أوربا.

فقد قضت الحرب على زهرة شبابها من الرجال، وبقيت ملايين الفتيات يبحثن عن زوج. واضطرت هذه الدول ـ وحتى يومنا هذا ـ إلى استيراد شباب من الخارج وتشجيع هجرتهم إليها، مع تقديم كافة المساعدات الممكنة.

فأيهما خير، أن نسمح لرجال الوطن بالزواج بأكثر من واحدة لفك الأزمة، وإرضاء الكل، أم نستورد رجالاً لا يعرف أحد مدى صلاحيتهم للعيش فى هذا البلد أم يترك الأمر مباحاً للزنا والعلاقات غير الشرعية، وأن تتولى الدولة رعاية أبناء الزنا، وحمايتهم ومنحهم ألقاب الأم، لكى يكون لهم أسماء. وكل من سافر إلى أوربا يعرف هذه الحقيقة تماماً. فهى ليست خافية على أحد. فالأطفال غير الشرعيين يحصلون على لقب الأم لأن الأب عادة ما يهرب ويرفض الاعتراف به لأنه قيد عليه.

أيضاً فإن من أسباب إباحة تعدد الزوجات، طبيعة الرجل الذى تمكنه من الإنجاب حتى الموت، ولكن المرأة تقف عادة عند سن الخمسين ولا تنجب. ومعنى ذلك أن هناك أكثر من عشرين سنة يمكن للرجل خلالها أن يكون له نسل.

فإذا كانت زوجته مريضة، أو عاقراً، كان فى إمكانه حرصاً عليها، وتقديراً لها، أن يحتفظ بها زوجة مكرمة له، وأن يتزوج أخرى من أجل

الأبناء واستمرار الحياة الإنسانية.

وهناك رجال أعطاهم الله قوة جنسية زائدة، وهى فى حاجة إلى تصريف، ولا تستطيع الزوجة أن تفى باحتياجات زوجها الجسدية. فهل يذهب إلى الحرام؟ لقد أباح له الدين الإسلامى أن يتخذ زوجة أخرى له.

وقد أجاز النبى ﷺ لرجل جاءه يسأله عما يفعل وزوجته تدوم عندها فترة الحيض مدة طويلة، فلا تكاد تنتهى حتى تبدأ من جديد. فأجاز له الرسول الزواج بأخرى حرصاً عليه وعلى سلامة ونظافة العلاقات الزوجية والاجتماعية.

فتعدد الزوجات إنما شرع لأنه ضرورة تواجه ضرورة، وحل يواجه مشكلة. وهو ليس متروكاً للهوى، بلا قيد ولا حد فى النظام الإسلامى الذى يواجه كل واقعيات الحياة.

وفى كتابه (روح الإسلام) يقول الكاتب الهندى السيد أمير: إن تعدد الزوجات كان منتشراً فى الشعوب الشرقية القديمة قبل الإسلام. وكان الملوك يمنحون أنفسهم الحق فى أن يتزوجوا أكثر من واحدة، بلا قيد أو شرط. وذكر أن الهنود فى قديم الزمان، كانوا يتزوجون أكثر من امرأة، وأن المرأة الهندية كان لها الحق فى أن تتزوج أكثر من رجل.

وكانت هذه العادة منتشرة قديماً فى الهند ولدى البابليين والأشوريين وقدامى الفرس. ولم يكن هناك حصر لعدد الزوجات اللاتى يباح للرجل أن يتزوجهن. وللبراهمة فى الهند - حتى وقتنا الحاضر - الحق فى أن يتزوجوا من يريدون من غير تحديد للعدد.

ويقول: إنه بعد انتشار المسيحية فى العالم الرومانى كان تعدد الزوجات منتشراً ومعترفاً به فى أيام المسيح عليه السلام. ولم يمنع تعدد الزوجات إلا بالقوانين المدنية التى وضعها (جستنيان) لا بالقوانين الدينية.

وبعد أن صدرت تلك القوانين الوضعية التى تحرم تعدد الزوجات، استمر

تعدد الزوجات منتشراً ومنفذا بطريقة عملية لدى الرومانيين المسيحيين، واستمروا على تلك العادة حتى أصدر المجتمع الحديث قانوناً يعاقب كل من يتزوج أكثر من واحدة، ويحرم على المسيحى الزواج بأكثر من واحدة.

وكانت الزوجات مع ضعفهن الجسمى يكلفن أعمالاً قاسية، ماعدا الزوجة الأولى، فإنها كانت تستثنى من الأعمال المرهقة. فقد كانت الزوجة الرومانية الأولى بعد اعتناق المسيحية - سعيدة الحظ - يحميها القانون. أما الزوجات الأخريات اللاتى يتزوجن الرجل الرومانى المسيحى بعد زوجته الأولى فقد كن يعاملن معاملة العبيد، ويعشن تحت رحمة أزواجهن، وأهوائهم وميولهم وخواطرهم.

فلهم الحق فى بيعهن، والتنازل عنهن لغيرهم، وتأجيرهن لمن يرغب فى استئجارهن. فالزوجات كن خاضعات لسيطرة الرجل الذى تزوجهن.

وكان أطفال الزوجة الثانية والثالثة وغيرهما يعاملون معاملة أبناء الزنا واللقطاء. ويحرمون من أن يرثوا آباءهم.

فإذا انحرف بعض الناس بإباحة تعدد الزوجات عن الطريق الصحيح والسليم الذى شرع له، واتخذوا منه وسيلة وغاية لإشباع رغباتهم الحيوانية، والتنقل بين النساء كما ينتقل الفاجر بين خليلاته. فإنه بذلك يكون قد أساء استغلال هذه الرخصة التى أعطاها الله عز وجل للرجال والنساء، من أجل الحفاظ على النوع، أو لدرء خطر ما، أو لتقويم حياة أسرية سوف تضل طريقها إذا استمر الحال كما هو عليه - والزوجة عاقر لا تنجب - فأباح للرجل أن يحتفظ بها وأن يتزوج ليرضى رغبته وأمنيته فى وجود أولاد قرة عين له فى الحياة الدنيا.

وأما الذين يحولون (الرخصة) إلى مقاصد أخرى وإعادة عصر (الحريم) فليس ذلك من الإسلام، وليس هؤلاء هم الذين يمثلون الإسلام.

وكما يقول - سيد قطب - إن هؤلاء إنما انحدروا إلى هذا الدرك لأنهم

بعدوا عن الإسلام، ولم يدركوا روحه النظيف الكريم.

والسبب أنهم يعيشون فى مجتمع لا يحكمه الإسلام، ولا تسيطر فيه شريعته. مجتمع لا تقوم عليه سلطة مسلمة، تدين للإسلام وشريعته، وتأخذ الناس بتوجيهات الإسلام وقوانينه، وآدابه وتقاليده.

إن المجتمع المعادى للإسلام، المنفلت من شريعته وقانونه، هو المسئول الأول عن هذه الفوضى. هو المسئول الأول عن (الحريم) فى صورته الهابطة المريبة. هو المسئول الأول عن اتخاذ الحياة الزوجية مسرحاً للذة بهيمية.

فمن شاء أن يصلح هذا الحال فليرد الناس إلى الإسلام، وشريعة الإسلام، ومنهج الإسلام، فيردهم إلى النظافة والطهارة والاستقامة والاعتدال. من شاء الإصلاح فليرد الناس إلى الإسلام، لا فى هذه الجزئية، ولكن فى منهج الحياة كلها. فالإسلام نظام متكامل لا يعمل إلا وهو كامل شامل.

واشترط الدين الإسلامى لتعدد الزوجات توفير العدل بينهن فى كل شىء، فى المعاملة والنفقة والمعاشرة والمباشرة.

يقول عز وجل:

﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾.

ويقول تعالى:

﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾.

وقد اتخذ بعض الناس من هذه الآية الأخيرة - كما يقول سيد قطب - دليلاً على تحريم التعدد. والأمر ليس كذلك. وشريعة الله ليست هازلة، حتى تشرع الأمر فى آية، وتحرمه فى آية، بهذه الصورة التى تعطى باليمين وتسلب بالشمال.

فالعدل المطلوب هو العدل فى المعاملة والنفقة والمعاشرة والمباشرة، وسائر الأوضاع الظاهرة، بحيث لا ينقص إحدى الزوجات شيئاً منها، وبحيث لا تؤثَر واحدة دون الأخرى بشىء منها.

وأما العدل فيما تكنه القلوب فهذه مسألة فى يد الله سبحانه وتعالى، وليس لمخلوق عليها من سلطان.

فالحب والهوى، خارج عن نطاق وسلطة أى إنسان ولا يصدر بأمر ملكى، أو أمر جمهورى، أو بانقلاب عسكرى، وإنما هو يصدر من انبعاث رغبات وإشارات وإفرازات جسدية معينة فى الإنسان أثناء لقائه بإنسان آخر فيشعران أنهما جزء واحد، وكيان واحد، وفكر واحد، ويكتشفان أن ما يفكر فيه أحدهما يفكر فيه الآخر، وأن ما يحبه أحدهما يحبه الآخر.

إنه توافق فى الروح والقلب والمشاعر، لا دخل لأى إنسان به. لأنه يأتى فجأة وكأنه القدر المقدر على الإنسان.

وهذا الإحساس والشعور والحب المتبادل، لا يشترط أن يكون طرفاه رجلا وامرأة، بل قد يكون بين رجلين وامرأتين. ومن هنا تنشأ الصداقة الحميمة بين الرجل وصديقه وبين المرأة وصديقتها.

ويمكن لنا أن نتذكر ما قاله رسول الله ﷺ معبراً عن علاقته الوطيدة وحبه الكبير لأبى بكر الصديق من أنه لو كان متخذاً خليلاً لاتخذ أبا بكر خليلاً.

فالقلوب يحركها خالقها. وليست ملكاً لأصحابها.

وكان النبى يؤثر السيدة عائشة ﷺ دون نسائه، وكان يقول لها: «حبك فى القلب يا عائشة كالعروة الوثقى».

ومع ذلك كان يعدل بين كل زوجاته فى كل شىء، حتى فى الابتسامة والضحكة والكلمة الحلوة، حتى لا يختص بها أحدا من نسائه دون الأخرى.

وكان النبى يقول عن حبه لعائشة: «اللهم هذا قسمى فيما أملك، فلا

تلمنى فيما تملك ولا أملك» أو كما قال.

فالعدل المطلق بين الزوجات مطلوب. والمساواة بينهن فى تحمل المسئولية مطلوب أكثر، والمساواة بين أبناء وبنات زوجاته أكثر إلحاحاً فى الطلب، حتى لا تحدث فرقة بين الأبناء، ويشعر البعض دون البعض الآخر أنه مميز عنه. ويحصل على كل مستحقاته ومطالبه دون الآخرين. فيحدث انشقاق فى الأسرة، وعداء بين الأبناء قد يوردها مورد الهلاك، وخاصة إذا حدث وتوفى الزوج. وكثيراً ما نقرأ فى الصحف عن حوادث كثيرة مثيرة لهذا السبب.

وكان النبى ﷺ يقول:

«لعن الله الذواقين والذواقات».

أى الذين يتزوجون كثيراً رجالاً ونساء طلبا للشهوة لاغير، وهو هدف لا يمكن أن يبنى أسرة، أو يقيم حياة سعيدة، كما أنه لا يمكن أن يكون سبباً فى تعدد الزوجات، وإنجاب الأولاد، واستقرار الأسرة.

ويقول عز وجل:

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ (النساء: ٣).

وفى هذه الآية الكريمة يحذرنا عز وجل من عدم قدرتنا على تحقيق العدل بين الزوجات مهما حرص الزوج على فعل ذلك.

ويقول سبحانه: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ (النساء: ١٢٩).

فهو تأكيد من الله بعدم القدرة الإنسانية على تحقيق العدل بين الزوجات. ذلك أن العدل اسم من أسماء الله وصفة من صفاته. فإن كان قد أضفى منها على الإنسان خليفته فى الأرض بعضاً من صفات العدل فهى صفات تظل قاصرة. لأن الكمال لله وحده عز وجل.

ثم خيرنا عز وجل - إذا لم نستطع العدل بينهن - أن نكتفى بزوجة واحدة، أو ما ملكت أيمانكم.

وقد شجع على الزواج بمن ملكت الأيمان وهن من العبيد والسرارى والأسرى، وذلك تشجيعاً لإزالة الرق والقضاء على العبودية من السجل البشرى.

وكان نظام الرق معروفاً فى كل المجتمعات القديمة سواء العربية منها أو الأوربية، ومازلنا نذكر ثورة العبيد بقيادة (إسبارتكوس) فى روما القديمة.

فالإسلام ما كان يجد ثغرة صغيرة أو كبيرة لإطلاق سراح العبيد والأسرى، إلا حث وشجع على الولوج إليها، واتخذ منها طريقاً وهدفاً للإفراج عنهم، وتحقيق إنسانيتهم، وإعادة الحرية والكرامة لهم.

وكانت الأسيرة أو الأمة (العبدة) إذا حملت من سيدها أصبحت ذات وضع خاص، ومكان مميز بين أقرانها، وأطلق عليها (أم ولد) ويمتنع على سيدها بيعها، وتصبح حرة بعد موته.

وإضافة إلى هدف إطلاق سراح الإماء وتحريرهن، كذلك فإنهن أيضاً نساء، لهن احتياجات خاصة مثل غيرهن من النساء، وفى أعماقهن رغبة وشهوات جنسية، فإن لم تنظم وتعالج وتحاصر، انطلقت إلى الخارج لتفسد الشباب، ويصبح هناك حالة من الانحلال الخلقى، والفوضى الجنسية، لا ضابط لها، ويمارسن البغاء والانحلال. ويتحول المجتمع إلى نظام فاسد، سرعان ما يستشرى فساده فى كل شىء.

فالطاقة الجنسية، طاقة مدمرة، كالطاقة النووية، إن لم يحسن استخدامها وتوجيهها الوجهة الصحيحة والسليمة. تحولت إلى طاقة مدمرة، لا تبقى ولا تذر، وتقضى على الأخضر واليابس. وكم من مجتمعات انحلت وضاعت بعد أن استشرى فيها الفساد الجنسى والانحلال الخلقى.

ولعل ما نراه هذه الأيام من ظهور أمراض، لم نكن نسمع بها من قبل،

أو نعرفها (كالإيدز) مثلاً، خير مثال على ما يفرزه الانحلال الجنسى من أمراض قد تورد المجتمع مورد الهلاك. وكما حدث لقوم لوط من قبل عندما مارسوا الشذوذ الجنسى (اللواط) مع الرجال دون النساء.

إن ما يفعله بعض الشباب المسلم من انحلال لا يمثل الإسلام والمسلمين، كما يدعى الأوربيون وغيرهم، أبداً، فإنهم صورة سيئة، وبقعة سوداء فى الثوب الإسلامى الأبيض.

فإن من يبحث عن النساء والسهرات والليالى الحمراء والعربدة والسكر والرقص واللهو والغناء، ليس من الإسلام فى شىء، اللهم إلا الاسم فقط. فليس ما يفعله من فعل الإسلام ومبادئه وأخلاقه وسلوكه. ولا يجوز أن يحسب على الإسلام والمسلمين.

إن الواقع التاريخى (الإسلامى) هو الذى ينشأ - كما يقول سيد قطب - وفق أصول الإسلام وتصوراته وشِرعته وموازينه.

هذا وحده هو الواقع التاريخى «الإسلامى».. أما ما يقع فى المجتمع الذى ينتسب إلى الإسلام، خارجاً على أصوله وموازينه، فلا يجوز أن يحسب منه، لأنه انحراف عنه.

إن للإسلام وجوده المستقل خارج واقع المسلمين فى أى جيل، فالمسلمون لم ينشئوا الإسلام، إنما الإسلام هو الذى أنشأ المسلمين. الإسلام هو الأصل، والمسلمون فرع عنه، ونتاج من نتاجه. ومن ثم فإن ما يصنعه الناس أو ما يفهمونه ليس هو الذى يحدد أصل النظام الإسلامى، أو مفهوم الإسلام الأساسى. إلا أن يكون مطابقاً للأصل الإسلامى الثابت المستقل عن واقع الناس ومفهومهم، والذى يقاس إليه واقع الناس فى كل جيل ومفهومهم، ليعلم كم هو مطابق أو منحرف عن الإسلام.

الطلاق.. تحت الطلب!!

إذا استشعرت الزوجة ضرراً من جراء تعدد نساء زوجها، كان فى إمكانها طلب الطلاق للضرر. فليس هناك إجبار أو إكراه للزوجة أن تبقى فى عصمة زوجها كارهة ومتضررة مما أصابها من تعدد زوجاته. فإن الطلاق يصبح ضرورة لازمة لتحقيق الاستقرار لكل منهما بعيداً عن الآخر. بعد أن سادت الكراهية والبغض وحلا محل الحب والمودة وهما أساس العلاقات الزوجية الناجحة.

وليس من الحكمة إكراه المرأة وإجبارها على البقاء مع زوج لا تحبه ولا يحبها، وقد يتمنى كل منهما قتل الآخر كى يتخلص منه. كما هو واقع الحال مع المسيحيين، وما نسمع وما نراه منهم وهم لا يستطيعون الانفصال والطلاق (لأن ما جمعه الرب لا يفرقه إنسان) كما يدعون أنه قول المسيح عليه السلام.

وهو قول فيه نظر، لأن كل الكنائس الغربية وفى العالم المسيحى أقرت حق الطلاق للزوج والزوجة لاستحالة العشرة الزوجية بينهما.

مما دعا المفكرين النصارى إلى طلب إقرار حق الطلاق للأقباط فى مصر أسوة بغيرهم فى كل دول العالم، وأن حياة اليوم بما فيها من صعوبات ومشاكل، ليست كحياة الأمس بما فيها من هدوء واستقرار ورتابة.

كما أن الشريعة المسيحية جاءت مكملة للشريعة اليهودية والتى تقر هذا الحق.

ورغم أن الطلاق هو أبغض الحلال إلى الله. كما يقول رسول الله ﷺ. لأنه يهدم بناء أسرة مسلمة، إلا أن الله سبحانه وتعالى أجازه للزوجة كما اجازه للزوج إذا استشعرت الكره لزوجها واستحالة المعيشة معه.

يقول تعالى: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلاًّ مِّن سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا﴾ (النساء: ١٣٠).

ويقول سبحانه فى سورة البقرة:

﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾ الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَن يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يَتَرَاجَعَا إِن ظَنَّا أَن يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٢٢٦ ـ ٢٣٠).

وقد جعلت الشريعة الإسلامية الطلاق مرتين، كى تعطى الزوجين فرصة للتروى والتفاهم وإزالة الخلافات وإعادة التفكير فى أمرهما، ومستقبل الأسرة والأولاد. كما تعطى فرصة للتحكيم بين الزوجين، وإصلاح أمرهما والصلح خير. فإن عادا كان بها. وإن أصرا على الطلاق ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾.

وبعد ذلك يسقط حق الزوج والزوجة فى العودة إلى بعضهما واستئناف حياتهما الزوجية السابقة. ولابد للزوجة أن تتزوج من آخر قبل أن تعود إليه. وأن تمارس معه العلاقة الزوجية كاملة كما شرعها الله عز وجل. وذلك بنية الزواج الدائم.

وعن عائشة أن امرأة رفاعة القرظى جاءت إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله إن رفاعة طلقنى فبت طلاقى، وإنى نكحت بعده

عبدالرحمن بن الزبير القرظى، وإنما معه مثل الهدبة (تعنى أنه لا يستطيع معاشرتها معاشرة الأزواج).

قال رسول الله ﷺ: «لعلك تريدين أن ترجعى إلى رفاعه؟ لا. حتى يذوق عسيلتك وتذوقى عسيلته».

وقد حرم الإسلام نظام (المحلل) والذى يقوم بزواج الزوجة على الورق فقط دون دخول بها وأن تذوق عسيلته ويذوق عسيلتها - كما قال النبى - وذلك إرضاء لهما، أو مقابل مبلغ من المال أو الهدايا.

يقول رسول الله ﷺ:

«ألا أخبركم بالتيس المستعار؟

قالوا: ما هو يا رسول الله؟

قال: هو المحلل.. لعن الله المحلِّل والمحلَّل له..».

* * *

حق الخلع للزوجة الكارهة

وإذا كان الطلاق أساساً من حق الرجل، فقد أجاز الإسلام للزوجة أن تكون العصمة فى يدها وتطلق نفسها من زوجها.

كما أن من حق الزوجة أن تطلب الطلاق مقابل التنازل عن حقوقها المالية وإعادة كل ما أخذته منه إليه، وهذا ما أخذ به المشرع المصرى أخيراً، وهو ما يسمى (بالخلع) تنفيذاً لقوله تعالى:

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾ (البقرة: ٢٢٩).

وعن ابن عباس قال: إن امرأة ثابت بن قيس أتت النبى ﷺ فقالت: يا رسول الله ما أنقم على ثابت فى دين ولا خلق، إلا أننى أبغضه، وإنى أخاف الكفر فى الإسلام.

فقال رسول الله ﷺ: أتردين عليه حديقته.

- وكان قد أعطاها لها مهراً - فقالت: نعم.

فقال للزوج: اقبل الحديقة وطلقها تطليقة». (رواه البخارى).

كما يؤكد مبدأ الخلع فى الشريعة الإسلامية، ما رواه البخارى ومسلم فى صحيحيهما، والترمذى، وابن ماجه فى سننهما، وأحمد فى مسنده عن الرسول ﷺ أنه قال: «إن بنى هاشم بن المغيرة استأذنونى أن ينكحوا ابنتهم على بن أبى طالب. فلا آذن لهم، ثم لا آذن لهم. اللهم إلا أن يحب ابن أبى طالب أن يطلق ابنتى وينكح ابنتهم، فإن ابنتى بضعة منى، يريبنى ما رابها، ويؤذينى ما آذاها، وإنى أتخوف أن تفتن فى دينها».

فقد أعطت الشريعة الإسلامية بهذا المبدأ (الخلع) حقّاً للمرأة، تستطيع أن تستخدمه فى أى وقت شاءت إذا شعرت بأن حياتها الزوجية لم تعد كما أرادت لها، وأنها أصبحت مكرهة على المعيشة بها، مما قد يتسبب فى كراهية للزوج قد لا ترضاها، كما حدث مع امرأة ثابت بن قيس، فقد شهدت لزوجها بالفضل والخير فى خلقه ودينه وحسن معاشرته لها، إلا أنها تطلب الطلاق لبغضها له، وخشيتها من أن تأتى من الأفعال ما يخرجها إلى حيز الكفر إن هى استمرت فى الحياة معه.

فلم يعنفها الرسول، ولم يرغمها على الاستمرار فى الحياة مع زوجها، وإنما احترم رأيها وأجابها إلى طلبها، وحكم لها بالطلاق.

وفى الحديث الثانى نجد أن النبى ﷺ يطلب الطلاق لابنته فاطمة، لأن عليا أراد الزواج بأخرى، ورغم أنه أمر مألوف وشائع بين العرب، إلا أن النبى ﷺ وجد فيه إيذاءً لابنته فاطمة قد يفتنها فى دينها. فخير النبى عليا بين أن يمسك عليه زوجه فاطمة، وبين أن يتزوج ابنة هشام بن المغيرة.

فاختار على أن يبقى مع زوجته فاطمة ﵂ ولم يتزوج عليها حتى وفاتها.

وبهذه التسهيلات التى أقرها الإسلام للزوجة كى تنفصل عن زوجها بالطلاق، انفرط عُقد تعدد الزوجات، وأصبح من حقها فى أى وقت أن تتركه.

وإذا أضفنا إلى هذا الحق ما اشترطه الإسلام فى تعدد الزوجات إلى جانب المقدرة المالية والرعاية النفسية والتربوية تطبيق العدل بين الزوجات، والذى يشمل كل شىء، وأخص شىء بما فيها العدل فى البيات عند كل الزوجات على السواء.

وبذلك أحاط الإسلام تعدد الزوجات بسياج منيع من الشروط حتى لا يتم التوسع فيه، وأن يتقلص إلى أقل مدى، ويختفى تدريجيّاً حتى يصبح قاصراً على زوجة واحدة. تطبيقاً لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ (النساء: ٣).

وبذلك يصبح اللجوء إلى تعدد الزوجات أمراً مقصوراً فقط على الضرورات والاستثناءات التى لها ما يبررها.

ويعارض الإمام الشيخ محمد عبده تعدد الزوجات ويرى أنه أمر يتعارض مع الطبيعة.. وأن فيه احتقارا شديدا للمرأة لأنك لا تجد امرأة ترضى أن تشاركها فى زوجها امرأة أخرى. كما أنك لا تجد رجلاً يقبل أن يشاركه غيره فى محبة امرأته.

ويرى أن يقتصر الأمر على حالتين: إذا كانت الزوجة مريضة أو عاقراً..

ويقول: أما فى غير هذه الأحوال فلا أرى تعدد الزوجات إلا حيلة شرعية لقضاء شهوة بهيمية وهو علامة تدل على فساد الأخلاق، واختلال الحواس وشره فى طلب اللذائذ(١).

* * *

(١) الأعمال الكاملة للشيخ محمد عبده. تحقيق د. محمد عمارة.

حق تقويم الزوجة

وإذا كان من حق المرأة أن تختار زوجها أو أن ترفض الزواج به. فإن من حق الزوج عليها من بعد ذلك أن يقومها إن هى أخطأت، أو تجاوزت فى أمرها كل ما هو متعارف عليه.

يقول سبحانه وتعالى فى سورة النساء:

﴿وَاللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ (الآيات: ٣٤ ـ ٣٥).

وقد حدد القرآن الكريم هنا الخط البيانى للصعود والهبوط فى معاملة الزوجة، حرصاً على العلاقات الزوجية واستمراراً لها، من أجل الأسرة والأولاد، ولأن أبغض الحلال إلى الله هو الطلاق.

فقد بدأ الإصلاح بالوعظ والإرشاد وتوجيه الزوجة نحو الصواب والحكمة بالمعاملة الحسنة.

فإذا لم تمتثل فعلى الزوج أن يهجر زوجته فى المضاجع، حتى تفئ إلى رشدها. وقد هجر رسول الله ﷺ زوجاته بعد أن كثرت مشاكلهن وأحاديثهن، حتى اعتقد المسلمون أنه طلقهن.

وذهب إليه أبو بكر وعمر بن الخطاب لكى يتبينا الحقيقة، وكل منهما

يعتقد أن ابنته (عائشة أبو بكر - حفصة عمر) هى سبب غضب رسول الله ﷺ، وحتى يقوم بتأديبها. واستمر هذا الغضب فترة حتى عدن إلى رشدهن، وسرى الخبر السعيد بين المسلمين أن رسول الله لم يطلق زوجاته أمهات المؤمنين.

فالهجر فى المضاجع، وسيلة فعالة وقوية، لإصلاح مسيرة الحياة الزوجية.

ثم تأتى المرحلة الثالثة التصاعدية فى الخط البيانى للإصلاح الأسرى وهو الضرب، بشرط أن يكون خفيفاً، ولا يؤذى، ولا يترك أثراً، أو يسبب جرحاً أو ألماً عظيماً. وأيضاً ليس على الوجه الذى شرفه الله.

وهذا يذكرنا بما أوحى به الله عز وجل إلى نبيه أيوب عليه السلام بأن يضرب زوجته ضرباً خفيفاً بأعواد ما يسمى (رعراع أيوب) وذلك حتى لا يحنث فى حلفه بأن يضربها مائة ضربة، وفى نفس الوقت لا يؤذيها.

فإن أطاعت الزوجة من بعد ذلك وعادت إلى طريق الصواب والرشاد، فليس للزوج أن يتعرض لها بأى نوع من أنواع الأذى.

فإن استمرت الزوجة فى غيها، واستمرأت الخلاف وتمسكت به، وعملت على تأكيده، فليس أمامهما إلا الوصول إلى خط النهاية وأن يختار كل منهما حكماً من أهله عسى أن يجد إصلاحاً ويعيد الحياة الزوجية ويقضى على كل الخلافات. قبل أن يصلا إلى خط النهاية وهو الانفصال والطلاق.

وفى هذه الآيات الكريمة كل الوسائل والطرق الحكيمة لإصلاح العلاقات الزوجية واستمرارها، وتجنب الطلاق.

وهى وسائل متدرجة، وضعها الله تعالى الخبير لإصلاح حال الأزواج. وفيها تدرج منطقى، وعلاج نفسانى ربانى، ولا أحد يستطيع الاعتراض على الضرب الخفيف، وإنما هى الحكمة التى تؤخذ من قول رسول الله ﷺ: «ضع سوطك حيث يراه أهلك».

ومن الغريب أن بعض المستشرقين يعترضون على القول (بالضرب) ويعتبرونه من الأعمال التى تؤذى المرأة ولا تتفق مع قواعد الدين وأصوله

وما يدعو إليه.

وفى إحصائية نشرت مؤخراً فى الولايات المتحدة الأمريكية أن أكثر من ٢٥٪ من زوجات أمريكا، يتم الاعتداء عليهن بالضرب المبرح من قبل أزواجهن، لدرجة أنه فى معظم الحالات يسبب ضرراً ويترك أثراً كبيراً يصعب أن يمحى بمرور الأيام والسنين.

وقالوا إن هناك زوجات أمريكيات رفضن إبلاغ رجال الشرطة عن أزواجهن خوفاً منهن، أو حتى لا يعلم الأقارب والأصدقاء بما هو عليه حالهن.

فإذا كان لابد من الوصول إلى خط النهاية فى العلاقات الزوجية، فلابد أن يكون الانفصال بالمعروف، وكما بدأ الزواج بالمعروف والكلمة الطيبة، ينتهى أيضاً بهما.

يقول عز وجل فى سورة النساء:

﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ (الآية: ١٩).

ومن هذه الآية نتبين أنه سبحانه وتعالى يحث الأزواج على الحرص على زوجاتهم، حتى ولو كان هناك كره لهن، فعسى أن يكون فيهن خيراً كثيراً لا يدركه الزوج أو غاب عن عقله وفكره.

والرسول ﷺ يحث الأزواج على حسن معاشرة زوجاتهم، وملاطفتهن حتى لا تصل الأمور إلى مرحلة الخصام والطلاق.

يقول النبى: «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلى».

وكان الرسول ﷺ، يلاطف زوجاته، ويتباسط معهن، ويضحك مما كانت تفعله عائشة من ضرائرها من أمهات المسلمين. وتحكى عائشة رضي الله عنها أنها كانت تسابق النبى فسبقته، وعندما حملت لحماً سابقته فسبقها فقال لها: (هذه بتلك).

أبغض الحلال

كلمة الطلاق، مأخوذة من الإطلاق ، وهو الإرسال والترك. نقول مثلاً أطلقت الأسير أى تركته حرّاً بعد حل قيده.

وهى فى الزواج إطلاق حرية كل منهما عن الآخر. بحيث يصبح الزوج مطلق الحرية، والزوجة أيضاً حرة مطلقة القيد، فلم تعد مرتبطة، أو مقيدة برجل. وكذلك الزوج لم يعد مرتبطاً بها، مشدوداً إليها، مسئولاً عنها، إلا فيما يجب عليه من نفقة وغيرها.

والطلاق مكروه فى الإسلام.

وهو أبغض الحلال إلى الله وهو تشريع استثنائى لا يباح إلا عند الضرورة القصوى، وهى استحالة العشرة الزوجية بعد استنفاد جميع وسائل الإصلاح.

فالزواج نعمة من نعم الله على الإنسان، وتمزيق هذه العلاقة، يعد كفراً بها. ومن هنا كان مكروهاً إلا فى حالات الضرورة القصوى. واستحالة المعاشرة الزوجية، مما قد ينتج عنه مساوئ ومفاسد أكثر، تضر بالزوجين، ويكون فى الطلاق والانفصال خير لهما.

وقد امتلأت الصحف والمجلات بحكايات كثيرة عجيبة ومثيرة، نتجت عن عدم قبول أحد من الزوجين للطلاق، وخاصة الزوج - وذلك قبل أخذ المشرع المصرى بمبدأ الخلع. للزوجة - وكانت الزوجة الناشز تدبر له المكائد التى قد تصل إلى حد القتل، وتقطيع الزوج إلى قطع صغيرة، ووضعه فى

أكياس البلاستيك وإلقائه فى صناديق القمامة.

وهى حكايات معروفة، ونشرت كثيراً فى الصحف المصرية.

ومن هنا كان الطلاق هو الضرر الذى لابد منه.

والإنسان الذى يسعى إلى خراب البيوت وطلاق زوجة من زوجها لأمر فى نفسه، محرم فى الإسلام، ومنهى عنه، لأنه يسعى إلى تقويض أسرة إسلامية، وهدمها، مما قد يؤثر على المجتمع الإسلامى كله.

فالأسرة تعنى مجموعة من الأفراد، الزوج والزوجة والأولاد. فإذا انفرط عقد النكاح، وانحل عقد الزواج تمزقت الأسرة، وضاع الأولاد بين تمزق الزوجين، مما يؤدى إلى فساد المجتمع المسلم.

ومن هنا نفهم قول رسول الله ﷺ:

«ليس منا من خبب (أفسد) امرأة على زوجها» (رواه أبو داود والنسائى).

وعن ثوبان أن النبى ﷺ قال:

«أيما امرأة سألت زوجها طلاقاً من غير بأس فحرام عليها رائحة الجنة». (رواه أصحاب السنن وحسنه الترمذى).

وقال ﷺ: «أحق الشروط أن توفوا به ما استحللتم به الفروج».

فالطلاق تشريع استثنائى.

ولا يشجعه الإسلام، وإنما يدعو دائماً الزوج إلى قبول أمور زوجته، وأن يتحمل منها ما قد يظهر من سلوك أو تصرفات منفرة، فقد تكون مصدر رزق له.

يقول سبحانه وتعالى:

﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ (النساء: ١٩).

ويقول رسول الله ﷺ:

«لا يفرك مؤمن مؤمنة، إن كره منها خلقا رضى منها خلقاً آخر».

فإذا استحالت المعاشرة والحياة الزوجية، وكان الطلاق أمراً واقعاً لا محالة، فإن هناك قواعد وأسس يجب العمل بها، حتى نصل إلى هذه النتيجة.

وأوجب الإسلام على المرأة التى ترى أن زوجها يسعى إلى الطلاق، أن تكاشفه، وتصارحه بما قد يجول فى نفسه من أفكار، قد تكون غير صحيحة عنها وعن مدى احترامها له وتقديرها له، وخاصة إذا كانت هناك حساسية ما من الزوج تجاه زوجته وأسرتها وشعوره بأنها من أسرة أعرق من أسرته وأغنى وأرفع قدراً، أو أن زوجته أكثر منه علماً ومنزلة ومكانة فى المجتمع، وهو دون ذلك.

وكل ذلك قد يترسب فى عقل الزوج مع الأيام، دون أن تشعر به الزوجة، أو تدركه. وقد يدفعه دفعاً إلى طلب الطلاق والانفصال حتى يستريح ويستعيد توازنه أمام نفسه وأولاده وأهله وأصدقائه.

ومن هنا نتفهم الآية الكريمة فى سورة النساء:

﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ (النساء: ١٢٨).

فالآية الكريمة تدعو الزوجة وتحثها إن شعرت نشوزاً وبعداً من زوجها ومجافاة فى تعاملاته، أن تصارحه، وتكاشفه بما يدور فى أعماقها. وأن تكون هذه المصارحة (بينهما) فقط. دون تدخل أى طرف آخر من قريب أو بعيد، وذلك صيانة للأسرار العائلية، وحتى لا تتوسع الهوة بين الزوجين، نتيجة تسرب أخبار أسس الخلاف إلى الأهل والأصدقاء، فيركب الزوج رأسه حرصاً على كرامته ويسعى إلى طلاق قد يكون غير راغب فيه بصورة جدية.

ومن هنا حث القرآن الكريم الزوجة أن تسعى فى سرية لمكاشفة زوجها ومصارحته.

فإن أصر على موقفه. كان لابد من تدخل طرفين أجنبيين عنهما، ويفضل أن يكونا من أهليهما، حرصاً على حفظ سرية وضعهما وخلافاتهما، وما قد يدور بينهما من ألفاظ وكلمات تخرج فى ساعات العسرة والشدة ونفاد الصبر.

يقول تعالى:

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ (سورة النساء: ٣٥).

ولابد أن يكون الحكمان عاقلين، بالغين، عدلين، مسلمين. حتى يستطيعا أن يوفقا بينهما بما لهما من خبرة وتجارب فى الحياة الدنيا.

وفى الآية الكريمة لفتة طيبة، فهى تشترط أن يكون الحكمان، أحدهما من أهل الزوج والآخر من أهل الزوجة، لأنهما أحرص الناس على إبقاء العلاقة الزوجية.

والآية أيضاً توجه الحكمين إلى طريق واحد فقط. هو الإصلاح بينهما.

وبذلك وضعت لهما أسس المباحثات، وما يجب أن يكون عليه جدول الأعمال فى الجلسات العائلية للمصالحة.

أن يكون الإصلاح هو الهدف الأول.

وبذلك غرست فى نفسيهما بذرة الحب والمودة، وأن الله سبحانه وتعالى سيكون معهما فيما يقومان به من عمل طيب، يهدف إلى إعادة ترميم أسرة وصيانتها قبل أن تنهار وتقع كل حوائطها وجدرانها على كل من فيها. ويصاب الجميع بمساوئ وأضرار شديدة.

فلا يتسرعان، ولا يضيق صدراهما بما يسمعان بل يحتملان كل ما يعترضهما فى سبيل الإصلاح، إلى أن تذوب كل الخلافات، ولا يبقى لها فى القلوب جذور أو رواسب، وتعود المياه إلى مجاريها نقية طاهرة.

وإذا لم تنجح هذه الطريقة أيضاً، فإن الشيخ محمد أبو زهرة يقول فى كتابه (الأسرة والمجتمع فى الإسلام): إن للمرأة الحق فى أن تطلب من القاضى تأديب زوجها إذا لم يعاملها بالمعروف. والقاضى يعظه، فإن لم يُجْدِ الوعظ، أمر لها بالنفقة ولا يأمر له بالطاعة وقتاً مناسباً لتاديبه، فإن لم يجد ذلك عاقبه بالضرب بالعصا.

وأما إذا كان النشوز من الزوجة. فإن القرآن يحثنا على التدرج فى معاقبتها. يقول سبحانه:

﴿وَاللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيراً﴾ (النساء: ٣٤).

فالموعظة الحسنة والكلمة الطيبة أولاً، ثم الهجران فى المضاجع، ثم الضرب الخفيف، كما يقول القرطبى: ضرب الأدب غير المبرح الذى لا يكسر عظماً ولا يشين جارحة، فإن المقصود هو العلاج لا غير.

فإذا استحال الأمر بينهما. كان الطلاق شرّاً لابد منه. ومن حق المرأة أن تشترط فى عقد زواجها أن يكون لها الحق فى أن تطلق نفسها إما مرة واحدة أو أكثر من مرة.

وهذا الحق للمرأة، يقابل حق الطلاق للرجل.

وقد استحدث المشرع المصرى قانوناً ينظم إجراءات الخلع بالنسبة للزوجة التى تريد الطلاق من زوجها ولكنه يرفض ذلك، بهدف استغلالها أو إجبارها على دفع مبالغ معينة، أو دفع فدية يتفق عليها، أو تقديم هدايا وعطايا، مقابل أن يفكها من أسرها، وأن يمنحها حريتها وأن تعيش حياة كريمة، وأن تختار بعد ذلك ما يناسبها وترضى عنه زوجاً لها.

فقد نصت المادة ٢٠ من القانون رقم (١) لسنة ٢٠٠٠ والتى تنظم بعض إجراءات التقاضى فى مسائل الأحوال الشخصية، على ما يلى:

للزوجين أن يتراضيا فيما بينهما على الخلع فإن لم يتراضيا عليه، أقامت الزوجة دعواها بطلبه وافتدت نفسها، وخالعت زوجها بالتنازل عن جميع حقوقها المالية الشرعية وردت عليه الصداق الذى أعطاه لها حكمت المحكمة بتطليقها منه.

ولا تحكم المحكمة بالتطليق للخلع إلا بعد محاولة الصلح بين الزوجين وندبها لحكمين لموالاة مساعى الصلح بينهما خلال مدة لا تتجاوز ثلاثة أشهر وعلى الوجه المبين فى الفقرة الثانية من المادة ١٨ والفقرتين الأولى والثانية من المادة ١٩ من هذا القانون وبعد أن تقرر الزوجة صراحة أنها تبغض الحياة مع زوجها، وأنه لا سبيل لاستمرار الحياة الزوجية بينهما، وتخشى ألا تقيم حدود الله بسبب هذا البغض، ولا تصلح أن يكون مقابل الخلع إسقاط حضانة الصغار أو نفقتهم أو أى حق من حقوقهم، ويقع الخلع فى جميع الأحوال طلاقاً بائناً، ويكون الحكم فى جميع الأحوال غير قابل للطعن بأى طريقة من طرق الطعن.

وأما المادة ١٨ من القانون فتنص على أنه: فى دعاوى الطلاق والتطليق لا يحكم بها إلا بعد أن تبذل المحكمة جهداً فى محاولة الصلح بين الزوجين، وتعجز عن ذلك، فإن كان للزوجين ولد تلتزم المحكمة بعرض الصلح مرتين على الأقل، تفصل بينهما مدة لا تقل عن ثلاثين يوماً ولا تزيد عن ستين يوماً.

وتنص المادة ١٩ على أنه:

فى دعاوى التطليق التى يوجب فيه القانون ندب حكمين يجب على المحكمة أن تكلف كلا من الزوجين بتسمية حكم من أهله قدر الإمكان فى الجلسة التالية على الأكثر، فإن تقاعس أيهما عن تعيين حكمه أو تخلف عن حضور هذه الجلسة، عينت المحكمة حكماً عنه، وعلى الحكمين المثول أمام المحكمة فى الجلسة التالية لتعينهما ليقررا ما خلصا إليه معاً.

فإن اختلفا أو تخلف أيهما عن الحضور تسمع أقوالهما أو أقوال الحاضر منهما بعد حلف اليمين، وللمحكمة أن تأخذ بما انتهى إليه الحكمان أو بأقوال أيهما أو بغير ذلك تستبين من أوراق الدعوى.

وقد تأخر المشرع المصرى فى إصدار هذا القانون لأكثر من اربعمائة وألف سنة هجرية، ومنذ هبوط الوحى على النبى ﷺ بالقرآن، ليعلم الناس، ويرشدهم إلى أسلوب حياتهم الصحيح والسليم.

فحق المرأة فى الخلع من زوجها قررته الآية الكريمة (٢٢٩) من سورة البقرة فى قورله تعالى:

﴿وَلا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلاَّ أَن يَخَافَا أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا﴾.

وقد ذهب جمهور الفقهاء إلى أنه لا يجوز للزوج أن يأخذ من زوجته فدية أكثر مما أخذت منه، وذلك استناداً إلى ما رواه البخارى والنسائى عن ابن عباس قال:

أن امرأة ثابت بن قيس أتت النبى ﷺ. وقالت: يا رسول الله، ما أنقم على ثابت فى دين ولا خلق، إلا أنى أخاف الكفر فى الإسلام.

فقال لها رسول الله ﷺ:

ـ ماذا أمهرك؟

قالت:

ـ حديقة.

وكان قد أعطاها لها مهراً.

فقال ﷺ:

- أتردين عليه حديقته.

فقالت:

- نعم وزيادة.

فقال النبى ﷺ:

- أما الزيادة فلا.

ثم دعا ثابت وقال له:

- أقبل الحديقة وطلقها تطليقة.

وبهذا أكد رسول الله ﷺ حق الزوجة فى الانفصال عن زوجها مقابل إعادة ما أخذته دون زيادة.

وطلب الخلع بذلك أصبح حقاً للمرأة. فإذ لم يتم بتراض مع الزوج، أصبح من حق الزوجة أن تلجأ إلى المحكمة لكى تحصل على حقها. وعلى القاضى إلزام الزوج بالخلع، لأن ثابتاً وزوجته رفعا أمرهما إلى رسول الله ﷺ، فألزمه الرسول بأن يقبل إعادة الحديقة إليه مقابل أن يطلق زوجته.

والخلع الذى أباحه الإسلام مأخوذ من خلع الثوب إذا أزاله. ويسمى الفداء (فيما افتدت به) كما تقول الآية الكريمة ذلك لأن المرأة تفتدى نفسها بما تقدمه لزوجها.

ويعرفه الفقهاء بأنه «فراق الرجل زوجته ببدل يحصل عليه».

ومنذ أن أخذ المشرع المصرى بمبدأ الخلع، واندفعت كثير من النساء إلى المحاكم يطلبن الخلع، وقد بلغ عدد هذه القضايا فى جلسة واحدة ٦٧١ قضية، ثم بدأ العدد يقل تدريجياً حتى أصبحت نادرة الآن.

فقد استراحت النساء إلى إقرار حقهن هذا والذى غاب عنهن سنوات طويلة، مما هدأ من نفوسهن، بعد أن شعرن أنهن يمكن أن ينفصلن عن

أزواجهن فى أى وقت.

كما دفع ذلك أيضاً الأزواج إلى حسن معاملة الزوجات حتى لا يلجأن إلى المحكمة (وتخلعه) على مرأى ومشهد من الناس، ورغماً عنه.

وهكذا يؤكد التشريع الإسلامى المساواة بين المرأة والرجل فى الحقوق والواجبات. وأنها على قدم المساواة معه فى كل شىء، وليست عبدة له، أو جارية عنده، وأنها طرف مساوٍ له فى العقد الذى تم بينهما، على عكس ما هو فى الديانات الأخرى.

واتفق الفقهاء على أنه لا يقبل فى عقد الزواج استخدام أى لفظ يحمل معنى الهبة أو العطية أو أى لفظ آخر يحمل معنى الملكية، وأنه لا ينعقد إلا إذا استخدم فى صياغته لفظ النكاح (الزواج) ولفظ التزويج. كما قال الإمام الشافعى.

وشيخ الإسلام ابن تيمية يقول: إن الزواج عقد وبالتالى يخضع لنظرية العقود العامة مع احتفاظه بخصائص نوعية. فالنية لا غنى عنها لصحة عقد الزواج، وكذلك رضا الزوجة أمر ضرورى لانعقاده.

فمن حق المرأة أن تشترط على زوجها المقبل - على سبيل المثال - أن تستمر فى التعليم أو العمل وأن تقيم فى بلدها أو دارها، وأن تحصل منه على تعهد بألا يتزوج عليها زوجة شرعية أو من فى معناها على ضوء أوضاع العصر الحديث. وأن يكون أمرها إلى نفسها تطلق نفسها وقتما شاءت وكلما شاءت إلى غير ذلك من الشروط التى تدور فى دائرة المحللات.

فعقد الزواج رهين باتفاق الطرفين عليه وذلك شأن أى عقد من العقود.

وعن النبى ﷺ أنه قال:

«أحق ما أوفيتم من الشروط أن توفوا به ما استحللتم به الفروج». (فتح البارى صـ ١٢٤ - ١٢٦)،

وعلى المقابل - كما تقول الدكتورة زينب رضوان فى كتابها (المرأة بين

الموروث والتحديث) ليس من حق الزوج أن يشترط فى العقد أنه سيطلق زوجته بعد فترة محددة، حتى لا يكون فى ذلك عودة إلى زواج المتعة المحرم.

ويكفينا ما قاله الرسول ﷺ: «مازال جبريل يوصينى بالنساء حتى ظننت أنه سيحرم طلاقهن».

ولنا رأى فى مسألة (الخلع) وإعادة ما حصلت عليه الزوجة. فقد يكون الزواج قد مضى عليه خمسون سنة أو أكثر وكان الصداق وقتها لا يتجاوز بضع جنيهات قليلة، ذلك أن قيمتها فى هذا الوقت كبيرة. ومن هنا نرى ضرورة أن يكون تقدير ما حصلت عليه الزوجة يناسب وقت طلبها للخلع، وأن يقدر ذلك بالذهب تسهيلاً للأمر. فإذا كان الجنيه المصرى يساوى وقتها جنيهاً ذهبيّاً فيعاد إلى الزوج ما قيمته جنيهات ذهبية. فإن كان سيعاد إليه عشرة أو خمسة أو أكثر فيحسب الأمر على أساس قيمة عشرة أو خمسة جنيهات ذهبية فى أيامنا هذه. وهكذا. أما أن يعاد إلى الزوج خمسة جنيهات مصرية كما تم الاتفاق عليه من خمسين سنة أو أكثر فهذا ظلم بين للزوج. لأن قيمة الجنيه المصرى فى تناقص شديد. ويكفى أنه فى خلال سنة واحدة فقط أصبح الدولار الأمريكى يساوى ثمانية جنيهات مصرية. فى الوقت الذى كان فيه الدولار الأمريكى فى الأربعينات يساوى عشرين قرشاً مصرياً فقط، والجنيه الاسترلينى يساوى تسعين قرشا مصريا فقط. والفرنك الفرنسى خمسة قروش.. وهكذا.

فكيف نسوى بين قيمة الجنيه فى هذا الوقت بقيمته الآن.

كذلك نرى أنه من الضرورى تحقيق العدالة، وإلزام الزوجة طالبة الخلع بأداء اليمين لإعادة ما أخذته، فى حالة عدم وجود ذكر للصداق الحقيقى أو كتابة مبلغ صغير منه خوفاً من الضرائب التى تؤخذ عن عقد القران، فيلجأ الأزواج عادة إلى كتابة (الصداق المسمى بيننا) تهرباً من الضرائب.

ذلك أن (الخلع) لم يكن مأخوذاً به من قبل وطبق حديثاً فقط، فلم يكن الأزواج على علم به، ولم يتخذوا حيطتهم من ذلك فوقعوا فى المصيدة، وحكمت بعض المحاكم فى الإسكندرية برد جنيه واحد فقط إلى الزوج، لأن هذا هو الصداق والذى كتب فى عقد الزواج من زمان. بل إن بعض المحاكم أمرت بإعادة مبلغ (ربع جنيه) فقط لأن هذا ما كتب فى العقد طبقاً للحد الأدنى للصداق. وبالطبع - كما قلنا من قبل - كان الهدف منه التهرب من الضرائب.

ومن ثم نرى ضرورة أن ترد الزوجة ما حصلت عليه فعلاً بقيمته وقتها. وإن ثبت كذبها توقع عليها عقوبات مضاعفة ردعاً لهن لعدم إساءة استخدام حق (الخلع) فى الإضرار بالزوج. وذلك تطبيقاً للقاعدة (لا ضرر ولا ضرار) وأن يحصل كل على حقه بما يرضى الله ورسوله.

* * *

«فيتو» على رأى الدكتورة زينب!!

طالبت الدكتورة زينب رضوان عميد كلية دار العلوم جامعة القاهرة فرع الخرطوم فى كتابها (المرأة بين الموروث والتحديث) بأن يكون الصداق أو المهر حقاً خالصاً للزوجة، لأنه حقها الشرعى الذى خصصه لها سبحانه وتعالى:

وهذا حق لا اعتراض عليه.

ويبقى السؤال.. من سيزوجها؟.. أهلها، ومعظم أهل مصر فقراء وموظفون غلابة، العريس؟. ومن أين له بعد أن دفع (دم قلبه وتحويشة عمره) مهراً للعروس؟.. ونفس الحال تقريباً فى كل الدول العربية والإسلامية.

ومعنى ذلك أن حال البنات فى الزواج (سيقف) أكثر مما هو موقوف ومعطل (٩ ملايين بنت عانس فى مصر الآن).. وسوف تضر منه البنت وأهلها قبل الولد فى مجتمعنا الشرقى.. وإذا أردت أن تطاع فأمر بما هو مستطاع.. فليس من المعقول أو المقبول أن تستولى العروس على كل المهر.. ثم يبحث العريس عن شقة ويشترى العفش كله والكهربائيات والسجاد.. باختصار كل شىء.. فهل يسير فى طريق الشقاء هذا أم يتزوج عرفياً أسهل وأرخص ثم يحدث ما يحدث، وهذا أمر واقع وحادث حالياً فى مصر (٢٥٪ من بنات الجامعة يتزوجن عرفياً) فهل تريد الدكتورة أن يصل عددهن إلى ١٠٠٪ أم نحل المشكلة.

والرأى عندى أن ناخذ بما دلنا عليه نبينا محمد ﷺ وأن يكون الزواج

بخاتم من حديد أو بآيات من القرآن الكريم، وأن ما يقدمه الشاب من مهر أو صداق أو أى مسمى آخر يكون مساعدة منه واشتراكاً معها ومع أسرتها لشراء الجهاز وإعداد الشقة التى هو أيضاً مكلف بتوفيرها.

فيكفى على العريس أن يدفع الصداق (المهر)، ويحضر الشقة، وأن يقدم من قبل ذلك شبكة العروسة، وأسعار الذهب أصبحت نارا تحرق جيوب وعقول كل من يفكر فيه.

وعلى العريس أيضاً أن يشترى الجهاز كله (حجرة نوم + صالون + طعام + مطبخ + أدوات كهربائية كلها + أدوات كمالية + ما يستجد من طلبات أهل العروسة).

وهذا فى أبسط حالات الزواج، ويمكن أن تتسع لتشمل أضعاف أضعاف ذلك عند الأثرياء والمقتدرين ومن أعطاهم الله من وسع.

ولكن حديثى هنا قاصر على الموظفين الذين ينتظرون العلاوة (أربعة جنيهات) كل ١٢ شهرا مع هذا الغلاء الفظيع. وعندهم أولاد وبنات فى سن الزواج وأكثر ومطالبين بإعداد أبنائهم وبناتهم.

والمشكلة الأخطر، هى مشكلة الشباب الذى يبحث عن عمل منذ تخرجه ولا يجده، ويمر قطار العمر وهو لا يزال يبحث، ثم لا شىء يحدث سوى سرقات لأموال البنوك والوزارات والمؤسسات.

فإذا كان معظم الشباب هكذا، فاته قطار العمل، وقطار الشباب، ودخل فى مرحلة الرجولة والكهولة وهو لايزال يبحث عن عمل وعن الاستقرار فى حياته.. فكيف لمثل هذا الشاب وأهله معه أيضاً أن يوفروا كل متطلبات الزواج من (مجاميعه) شقة وعفش وجهاز وغيره..

والمنطق يقول إذا أردت أن تطاع فأمر بما هو مستطاع.

وكان الأجدى والأجدر بالدكتورة زينب بصفتها (امرأة) وأما قبل كل

شىء أن تدعو إلى تبسيط الزواج إلى أدنى درجة له. حتى لا نجد عندنا ملايين البنات وقد أصبحن فى سن (العنوسة) وضاع حلمهن فى أن يتزوجن، ويصبح لهن أسرة وبيت وزوج تحبه ويحبها وأولاد إن رزقها الله.

ولهذا فإن الزواج العرفى قد كثر بين شباب الجامعات، هروباً من مثل هذه الآراء الجافة، ومن مطالب الزواج المادية، وطبقاً لإحصائية وزارة الشئون الاجتماعية فإن ٢٥٪ من شباب الجامعات يتزوجون عرفياً.. «ببلاش يعنى» كى يشعروا بالحياة وممارسة حياتهم الجنسية بشكل طبيعى، حتى ولو كان فى ذلك كسر لكل القواعد والتقاليد والقيم التى يقوم عليها المجتمع، ذلك لأن الحديث عنها فى ظروفهم هذه يصبح عبثا ولا طائل منه.

فللشباب آراؤه، وأفكاره، طبقاً لمجريات وظروف حياته. والأيام والزمن الذى يعيشه. ولن يستطيع الآباء ـ مهما عملوا ـ أن يغيروا منها لأنها سنة الحياة منذ بدأت.. وتمرد الأجيال الجديدة مع معتقدات وعادات الأجيال السابقة.

وهذا يحدث فى كل الدنيا وليس فى مصر وحدها.

ومن هنا فإننى أدعو إلى الاقتداء بما قاله لنا سيد الخلق أجمعين والأسوة الحسنة محمد ﷺ بأن يكون الزواج بخاتم من حديد أو بمهر من آيات القرآن الكريم أو بما تيسر من المال.

فهل هناك أيسر أو أسهل أو أكرم من مثل هذا الحل لكى يصون الشباب، وأن نعمل على أن تكون علاقاتهم فى إطار إسلامى صحيح، ومن خلال الدين، ومنهجه.

وأما دعوتها بأن يكون المهر أو الصداق حقاً للبنت وحدها دون حتى أهلها.. فإن فيه تمسكا رهيبا بالأصول والحقوق.. إلا أنه يتنافى تماماً ويتعارض مع الحياة الحديثة، وما يسره لنا رسول الله ﷺ بالزواج ولو بخاتم من حديد، ولم يقل بخاتم من ذهب أو الماس أو من اللؤلؤ والمرجان، وقوله ﷺ:

«خير نساء أمتى أصبحهن وجها، وأقلهن مهرا».

فإذا كان النبى قد سهل علينا أمورنا فلماذا نضع نحن الصعاب أمامها، بدلاً من العمل على إزالتها لمواجهة أزمة عدم الزواج، أو الانحراف به إلى طرق أخرى ملتوية.

وقد كتبت من سنوات فى جريدة «الأخبار» المصرية والتى أعمل بها مقالات مطالباً بفتح مكاتب رسمية لعقد القران بدلاً من المأذون الشرعى والذى يحصل على مبالغ مالية كبيرة وأصبحت مهنة المأذون من المهن التى تثرى صاحبها ثراء كبيراً.

وطالبت بأن يكون عقد القران بها مقابل رسم محدد (عشرون جنيهاً مثلاً) حتى نيسر الأمر على الشباب وعلى أسرهم، ولا تتزايد حالات الزواج العرفى أو البوى فرند فى مصر وغيرها، لأنها لا تكلف أى شىء.

إن الزواج مشاركة ومسئولية مشتركة بين الزوج والزوجة، ولابد وأن يتحملا معاً هذه المسئولية منذ لحظة إعلان ارتباطهما معاً.

وأولى خطواتها هى أن يشتركا معاً فى تأسيس عش الزوجية حتى يشعروا بأن كل جزء فيه قد ساهموا فيه معاً واشتروه من (دم قلبهم) ومن حبهم، ومن ترابطهم، ومن نيتهم الصادقة فى بناء بيت جديد وأسرة سعيدة.

ولعلنا جميعاً نعرف أن زواج الفتى والفتاة فى الغرب لا يكلف شيئاً على الإطلاق، لأنهما يقومان معاً بتجهيز وإعداد كل شىء. حيث تنتهى مسئولية الأهل مع بلوغهم سن الشباب أو انتهاء المرحلة الدراسية.

ونحن أحق بتطبيق هذه التسهيلات طبقاً لما قاله رسول الله ﷺ من أن خير المهور أيسرها وأسهلها وأبسطها..

وأن نتزوج بخاتم من حديد أو بآيات من القرآن الكريم. حتى نحقق حلم رسول الله ﷺ بقوله:

«النكاح من سنتى، فمن لم يعمل بسنتى فليس منى».

وقوله: «تزوجوا فإنى مكاثر بكم الأمم يوم القيامة».

ولو أنك سألت أى فتاة: هل تحتفظين بالصداق لنفسك؟ أم تساعدى به زوجك لإعداد شقة الزوجية؟..

لسمعت أصواتاً تصرخ بالإجابة منهن جميعاً المشاركة فى إعداد شقة الزوجية، قبل أن يهرب الزوج من مسئولية إعدادها وحده، أو قد يموت أو يمرض وهو مازال يعدها، وتكون العروس قد بلغت المشيب، أو اقتربت منه.

الحياة تعاون، والزواج تعاون ومشاركة، خاصة فى هذه الأيام الصعبة والتى ندعو أن تمر على الأمة العربية والإسلامية بالخير.

والمهم أن يحدث، وأن نوفر له سبل النجاح بأى طريقة مشروعة وفى إطار الدين الإسلامى الحنيف.

وإن كنت أقترح، ألا يتم عقد القران إلا مع شهادة تأمين أو شهادة ادخار للزوجة لتحفظ لها حقوقها إذا حدث طلاق - لا قدر الله - بعد سنوات، وتكون قد بلغت من العمر عتيا ولم تعد تستطيع أن تفعل شيئاً. فمن حقها أن يكون لها معاش يكفيها مؤونة السؤال، سواء كان من شهادات تأمين أو ادخار أو من أى شىء يتحمله الزوج. وذلك حتى نحل هذه المشكلة، وأن تحكم المحاكم المصرية للزوجة المسنة بنفقة شهرية محترمة تستطيع أن تعيش منها، وأما أن تطلق، وتلقى فى الشارع مسنة، مريضة، فى حاجة إلى الرعاية والعناية، فإن هذا حرام وظلم، لا يرضاه المشرع ولا فقهاء الدين الإسلامى، ولا كل إنسان صاحب ضمير.

نحن فى حاجة إلى قانون يحمى المرأة المسنة المطلقة ويحفظ لها ماء وجهها، وألا تصبح مثل خيل الحكومة تضرب بالنار بعد أن نفقد الأمل فى الاستفادة منها.

من حقها الحصول على معاش، ومشاركة زوجها فى بيته وعفشه، وكل ثروة حصل عليها عقب زواجه منها لأنها شاركت فى صنعها. وأما ما يأتيه من ميراث عائلى، فهو شأن يخصه وحده.

لابد من حماية المرأة مسنة، وألا ندع بعض الأزواج يلقون بها إلى الطريق من أجل فتاة صغيرة لعوب. وهذا ما يحدث وما تمتلئ به المحاكم.

للمرأة حق مشاركة زوجها فيما اكتسبه خلال زواجهما.

* * *

خامساً ـ ألوان من الزواج

- زواج «الفرند».
- زواج المسيار.
- الزواج العرفى.
- زواج المتعة.

زواج البوى فرند (زواج الفرند)

تعبير جديد، استخدمه الشيخ عبد المجيد الزندانى أمين عام حزب الإصلاح بدولة اليمن، لتسهيل مهمة الزواج بين أبناء وبنات المسلمين فى الدول الأوربية والأمريكية، وإضفاء الشرعية الإسلامية على هذه العلاقة، وأن تكون مقبولة نفسيًا، واجتماعيًا، ودينيًا، وليس عليها اعتراض من قبل الأسرة.

وهو - فى رأيى - اجتهاد مقبول ومعقول، لأنه منح الراحة النفسية والأسرية والدينية للكل. الأب والأم، ثم الأولاد، أصحاب المصلحة.

فقد وضع هذه العلاقة فى الإطار الإسلامى الصحيح لها. حتى لا تخرج إلى دائرة الانحراف أو التأويل، إن تركت دون رابط، أو تنظيم، أو تنسيق، أو تحجيمها حتى تظل داخل الحيز الإسلامى المسموح لها به دون أن تتجاوزه إلى أكبر منه وأكثر.

والشيخ عبد المجيد - بهذه الفتوى، قد عايش مشاكل الشباب المسلم فى دول أوربا وغيرها، وهم يرون العلاقات، والصداقات، واللقاءات، جهاراً نهاراً، دون خجل أو وجل من أحد، وتحت نظر وبصر أولياء الأمور وبمباركة منهم.

فهو قد دخل إلى قلب الجرح، ووضع أصابعه داخله، لكى يحول دون أن ينزف الدم منه كثيراً، ويصاب شباب المسلمين - بنين وبنات - بالضعف والإحباط، وهم يرون الشباب من حولهم، يعيشون حياتهم بالطريقة التى ارتضوها، وارتضاها آباؤهم لهم أيضاً.

وهى بالطبع تتعارض تماماً مع مبادئ الشريعة الإسلامية، لأنها زنا واضح وفاضح، وفى الطريق العام وغير العام، وفى كل مكان. وذلك طبقاً للمبدأ الأوربى بألا تخفى مشاعرك وغرائزك وأحاسيسك، كى تعيش سليماً معافى، دون عقد نفسية، ومشاكل عاطفية، ومتاعب جسمانية.

إنها طريقتهم فى الحياة التى ارتضوها، وقبلوها.

وإنما من حقنا أن نبحث عن طريقة تقنن هذه العملية وتدخلها فى الإطار الشرعى والإسلامى لها، بحيث يرضى عنها الجميع، آباء وأبناء، وخاصة الذين هاجروا إلى أوربا وأمريكا وأصبحوا جزءاً من نسيجها وحياتها.

ومن هنا قلت إن فتوى الشيخ عبد المجيد الزندانى، جاءت فى وقتها بالضبط، خاصة مع الضغوط الأمريكية الآن لتغيير واقع العالم العربى، والشرق الأوسط كله، وإدخال العادات الأمريكية فى مجتمعنا، وعلى رأسها العلاقات الجنسية المباحة بين الشباب دون حرج ودون قيود أو شروط، كما يسعون أيضاً إلى ترسيخ حق الإجهاض للفتيات، كما هو حادث عندهم، لتكتمل الصورة، وتضيع كل معالم الدين الإسلامى، وحتى المسيحى أيضاً، والذى يرى أنها زنا واضح وصريح ولا جدال فيه.

وقد وجدت هذه الفتوى تأييداً من بعض رجال الدين الإسلامى، ووجدت من بعضهم معارضة أيضاً(١).

فيرى الدكتور منيع عبد الحليم محمود عميد كلية أصول الدين: أن مصطلح (زواج الفرند) الذى نصح به الشيخ عبد المجيد الزندانى أمين عام حزب الإصلاح بدولة اليمن، يقوم على شروط الزواج المعتادة فى عقد القران من إيجاب وقبول، ووجود شهود وإعلان. وأن فكرة هذا الزواج تقوم على أساس أن المعاناة التى يجدها كثير من الشباب فى بلاد الغرب، من جراء الإنفاق على الأسرة والسكن.

وأن الروابط المعتادة، لا تمثل عائقاً أمام الزواج، إذا كان يتم بقواعد الشريعة التى أمر بها الإسلام. فهو زواج قائم على القواعد الشرعية من ناحية العقد.

وأما بالنسبة لبقية أموره، من انفصال الزوجين كل فى سكن، أو كل فى مكان، ويتقابلان بين الحين والآخر فهذا أمر بطبيعته يتم بالتراضى بين الزوجين.

(١) جريدة الوفد فى ٢٣ يناير ٢٠٠٤.

وكم من حالات كثيرة مشابهة لهذا الزواج ودون أن يطلق عليها (فرند) تتم حتى فى بلاد المسلمين، حيث يقيم الزوج فى مكان والزوجة فى مكان آخر، ويتقابلان فى محل مختار بينهما.

وهذا أمر ليس فيه ما يضر من الناحية الشرعية، لأنه قائم على التراضى والاتفاق بين الزوجين على هذا.

وإن كان الدكتور منيع عبد الحليم محمود يرى أن الزواج على هذه الصورة، لا يقيم أسرة على النطاق السليم، رغم شرعيته.

فالزواج عادة ما ينتج عنه نسل، وهذا النسل فى حاجة إلى إعداد وتربية جيدة، فهل يحقق مثل هذا الزواج هذه الرعاية للأبناء.

وهل يحقق ما يرضى عنه الله ورسوله، بأن يكون الرجل راعياً ومسئولاً عن رعيته، وأن تكون المرأة راعية ومسئولة عن رعيتها.

إنها أمور يجب أن توضح عند عقد القران أو بعد الزواج. أما إذا كان الأمر لن يترتب عليه إنجاب وإقامة الأسرة بوضعها المعتاد، فهو مقبول وعادى مع كم المشاكل التى تواجه الشباب وتحيط به من كل جانب.

ويقول: إنه لا توجد أنواع من الزواج فى الإسلام غير الزواج الذى يعقد بالطريقة المعروفة، وإن كان يباح فى بعضها أن تشترط فيها الزوجة، أو يشترط فيها الزوج، كأن تشترط الزوجة مثلاً ألا يتزوج عليها الزوج، أو أن تشترط أن يكون لها محل إقامة معين، أو خدم، أو ألا تغادر البلاد.

وهذا النوع لا غبار عليه، وهو موجود فى أغلب الدول الإسلامية.

وقال: إن الشيخ الزندانى، شيخ فاضل، وعالم جليل، أحب أن يضفى على هذا التعبير كلمة أجنبية تجعله مقبولاً عند الشباب، وبعيداً عن الالتزامات الزوجية التى أصبحت فى كثير من الأحيان نوعاً من الابتزاز فى كثير من الأسر.

فكثير منها تضخم حفلات الزواج، وتشترط شقة من نوع معين، أو فى مكان معين يفوق طاقة العريس، إضافة إلى فرض شروط معينة على الجهاز والأثاث، والكهربائيات، والكماليات، وغير ذلك مما يرهق كاهل أى شاب يريد الزواج.

وتفادياً للتعبيرات التقليدية، ذكر هذا التعبير، ولعله عندما ذكر الغرب فى ذلك كان هذا تمهيداً منه لإباحته فى الدول الإسلامية نفسها.

فليس هناك إسلامان وإنما هناك إسلام واحد فقط، ونوع واحد بطريقته المعهودة التى أقرها الشرع، وجاءت فى كتب الفقهاء.

ويرى الدكتور منيع عبد الحليم محمود: أن الأمر فى الدول الإسلامية أكثر بشاعة فى نفقات الزواج والتزاماته وشكلياته.

فزواج (الفرند) بهذه الطريقة يعتبر نوعاً من التقريب بين وجهات النظر لاتقاء الشبهات والبعد عن الحرام والمكروهات، والبعد عن معصية الله ورسوله.

وطالما أن أركان الزواج كلها متوافرة، وتم العقد بمعرفة الأهل وموافقتهم فلا مشكلة، بل العكس فإن هذا الزواج بهذه الطريقة يعتبر حلاً لكثير من المشكلات فى هذه الأيام.

ويرى الشيخ شوقى عبد اللطيف أيوب وكيل أول وزارة الأوقاف لشئون الدعوة والشباب: أن فتوى الشيخ عبد المجيد الزندانى، قد أضيف عليها من قبل بعض وكالات الأنباء وغيرها، وهو ربما ما ضخم القضية، وجعل الحديث فيها كثيراً، حيث تمت زيادة كلام على لسانه لم يقله، ولم يقصده.

فقد أصدر الشيخ (زندانى) فتوى بأنه فى إمكان الشباب والشابات الزواج بعلم ذويهم، على أن يبقى كل منهما فى دار أهله حتى يتسنى لهما توفير مسكن زوجية، وأباح لقاءهما خلال هذا الوقت إذا أمكن، حيث يكون الزواج شرعياً فعلاً.

ولا يمكن التشكيك فى الشيخ (زندانى) أو فتواه، وأن الزواج على هذه الصورة، زواج صحيح شرعاً، ولا غبار عليه.

ويؤكد الدكتور على فهمى الأستاذ بمركز البحوث الاجتماعية والجنائية: أن الزواج بهذه الصورة زواج شرعى ومقبول ولا غبار عليه، وفيه تسهيل على الشباب إزاء كل الضغوط النفسية، والظروف الاقتصادية الخانقة التى تسببت له فى كثير من الكبت والاكتئاب.

كما أن الزواج بهذه الصورة قد توافرت كل شروطه. والحقيقة أن الدين الإسلامى، دين يسر ولابد أن يسعد الآباء أبناءهم فى تحقيق التوازن والاستقرار النفسى فى ظل ظروف قاسية لا تسمح بسبل الزواج العادى، والذى كان يتم من قبل بمنتهى اليسر والسهولة والبساطة.

وهناك من اعترض على زواج (الفرند) كالأستاذ جمال رجب أستاذ العقيدة والفلسفة بجامعة قناة السويس ويقول: إن الزواج فى الإسلام له مقاصد وأهداف عليا، أهمها إقامة حياة اجتماعية متماسكة، ولبنة اجتماعية متمثلة فى الأسرة.

والزواج فى الإسلام له أركان أساسية، وشروط من حيث الرضا والقبول، والإيجاب وشاهدى عدل، ثم موافقة الولى. حيث قال رسول الله ﷺ: (كل نكاح بلا ولى حرام حرام حرام).

وأنه إذا كانت هناك اجتهادات أو فتوى، إلا أن ذلك يخشى معه أن تصبح المسألة عبثية.

فالزواج أساسه الاستقرار، كما قال المولى عز وجل: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾ (الروم: ٢١). ومن ثم فإن الزواج ليس أمراً عارضاً، ولكن كلمة (السكن) لها مدلول فلسفى عميق، على المستوى النفسى والاجتماعى والمعاشرة البيولوجية. وهو أعمق بكثير من لقاء ذكر وانثى.

كما أن القرآن الكريم، قد فاضل بين الرجل والمرأة ـ ولم يمايز ـ فى قوله تعالى: (بما أنفقوا) حتى ولو كانت الزوجة غنية. فإن الأصل فى الإنفاق يكون على عاتق الرجل. أما كون المرأة تنفق من مالها تبرعاً فلا غضاضة.

ويتساءل الدكتور جمال رجب: هل زواج (الفرند) يتحقق فيه مبدأ القوامة!!.

إن ضوابط النجاح فيه غير متوافرة، فكيف لشاب لا يستطيع أن يحصل على قوت يومه، أن يكون مسئولاً عن إنسانة ارتبط بها من حيث الطعام والشراب والملبس والعلاج، وفى ذلك قول الله تعالى: (وأخذنا منكم ميثاقاً غليظاً).

وبهذا الأسلوب من الزواج، لا نربى رجالاً، بل على العكس نحن بذلك ندعو الشباب للتواكل.

كما أن هذه العلاقة لابد وأن تثمر عن أولاد. فهل يصح أن نترك هؤلاء الأطفال للآباء حتى يتجشموا عناء تربيتهم، كما قاموا بتربية الأبناء من قبل.

قد تكون المسألة لها دليل شرعى، ومنظور اجتماعى، إنما هى فى الحقيقة مسألة غير مقبولة واقعياً.

وإذا كان الإسلام اعتنى بجانب الرغبة فى الزواج. فإنما هى محور من محاوره، ولكن الزواج ليس قائماً عليها، ولكنها لمجرد الحفاظ على النوع البشرى، كما أنها من أنواع السكن النفسى، غير أن الفلسفة الحقيقية للزواج بعيدة عن المعنى المجرد السابق.

ويرى الدكتور (جمال) أن زواج (الفرند) يفتح الباب على مصراعيه للتحايل على الفتيات، وانهيار أكثر للمجتمع الذى أصبح فى حالة توجع من البعد عن القيم والأخلاقيات، كما أن الوضع يزداد سوءاً يوماً بعد يوم بعد الانفتاح.غير المقنن على العالم.

حقيقة قد توجد مشكلة كبيرة فى الزواج، ولكن هذه المشكلة يمكن حلها عن طريق التيسير على الشباب، فلا مانع أن يتزوج الشاب حتى ولو إمكاناته بسيطة، ويقوم الأهل بمساعدته. أو أن يسكن مع زوجته فى دار أحدهما حتى تتحسن الأوضاع، وترضى الأسرة بالدخل البسيط الذى يتقاضاه طالما أنه يتحمل المسئولية، وأن يبسط الأهل من المظاهر الزائدة للزواج، ويكفوا عن المغالاة فى طلباتهم. وبالتالى يستقيم وجه المجتمع، ونحفظ للفتاة كرامتها، ونحفظ للأبناء - فيما بعد - حقوقهم ووضعهم الاجتماعى.

ويحدد الدكتور على جمعة مفتى جمهورية مصر الشكل السليم للزواج استناداً إلى القواعد الشرعية، والقرآن والسنة، وأن الزواج المستوفى لأركانه وشروطه هو الحلال، وماعدا ذلك حرام.

وقال: إن أهم شروط الزواج الإعلان، وأن أقل ما يفعله المسلم ليخرج من دائرة الزنا شاهدان على العقد. وأن أى زواج شهد عليه شاهدان حلال، ولا يعد زنا.

أما الزواج الذى يتم بين طلبة وطالبات الجامعة بالصورة التى هم عليها، فهو حرام. وإن كانت هذه الحرمة لا تعفى الشاب من مسؤلية أن يصلح ما أفسده كحمل الفتاة، غير أن زواجهما بهذه الطريقة لا يعد زنا.

زواج المسيار

وقد انتشر وشاع هذا الزواج فى الجزيرة العربية، وأقره الفقهاء ورجال الدين بها.

ويرى الدكتور منيع عبد الحليم محمود: أنه عقد شرعى، مع عدم الارتباط بمكان أو اشتراط، أو إنفاق الزوج والزوجة، أو مطالبة الزوج بالأمور المعتادة فى مسائل الإنفاق على الأسرة.

ويقول الدكتور على جمعة مفتى جمهورية مصر العربية: أنه لو تم عند

المأذون، وشهد عليه شاهدان. وقد استوفى شروطه فى الزواج، كان حلالاً، حتى ولو عاش كل من الزوجين فى بيت على حدة. ومادام العقد قد استوفى شروطه فى الزواج، كان حلالاً والعكس يكون حراماً. وقد يكون الزواج صحيحاً لكنه حرام إذا ترتبت عليه أضرار لأحد الطرفين.

الزواج العرفى

وقد انتشر هذا النوع من الزواج بين الشباب وطلبة وطالبات الجامعة، وفى إحصائية أعدتها وزارة الشئون الاجتماعية منذ مدة، أن حوالى ٢٥٪ من طلبة وطالبات الجامعة فى مصر متزوجون عرفياً.

وهى نسبة كبيرة، لم يكن يتوقعها أحد، بل إن الكثيرين لم يكونوا يتصورون حدوثها أصلاً.

ولكن الظروف الاقتصادية، والسياسية، والاجتماعية، وانعدام الأمل فى المستقبل، دفعت الشباب إلى فعل أشياء ليست فى حساب أحد. وكأنهم بذلك يفرغون كل طاقاتهم وإمكاناتهم فى مثل هذه الظاهرة، أو كأنهم يتحدون بها الحصار المفروض عليهم من قبل المجتمع فأرادوا أن يكسروا هذا الطوق الذى فرض عليهم، وحاصرهم، فلم يجدوا منه مخرجاً إلا بتحطيم كل قواعده، ومبادئه، وقيمه. وفرضوا لأنفسهم أسلوب حياة جديد، وطريقة جديدة للزواج. سوف يتقبلها المجتمع شاء أم لم يشأ، فقد أصبحت واقعاً ملموساً، وحقيقة مؤكدة. لدرجة أن عقود الزواج العرفى تباع الآن داخل الجامعات، وفى المكتبات، كما تباع عقود التمليك والإيجار للشقق.

ولم يعد أحد من الشباب يشعر بالخجل أو الكسوف وهو يبحث عنها ويشتريها.

كذلك فإن الإنترنت، والتليفون المحمول، إضافة إلى أفلام الفيديو، والأغانى الجنسية والتى تعرض كل لحظة من خلال القنوات الدولية. كل ذلك ساعد على انتشار مثل هذا النوع من الزواج بين الشباب لأنه لا يكلف

شيئاً، ويتم عادة فى بيت صديق، أو بيوت خاصة تؤجر لذلك، أو فى غيبة من الأهل فى بيت الأسرة. حيث يتم تفريغ الطاقات الزائدة.

ويقول الدكتور منيع عبد الحليم: إن الزواج العرفى، هو نفس عقد الزواج الشرعى السليم.

ويتوافر فيه الإيجاب والقبول بين الرجل والمرأة، ويتم فيه الإشهار، والإعلان، وحضور الشهود.

لكن هذا الزواج لا يسجل فى وثيقة رسمية، ومهمة الوثيقة الرسمية حفظ حقوق الطرفين.

وهذا الزواج قد كرهه العلماء، وبعضهم رفضه، لأنه لا يُطمأَنَّ فى عصرنا الحاضر إليه، وقد كرهه بعض العلماء خوفاً من عدم حفظ حقوق الزوجة بإنكار الزواج فيما بعد، أو عدم إثبات النسب.

غير أن قوانين المحاكم حالياً أصبحت لها تشريعات فى مسائل الطلاق، وأصبح الزواج العرفى شبه معترف به فى القوانين والمحاكم.

ويؤكد الدكتور منيع أن عدداً كبيراً من العلماء رفض الزواج العرفى نتيجة لأن أغلب حالات هذا الزواج لا تتم بوجود ولى للزوجة، يقوم بعقد قرانها، وهو ما أمر به رسول الله ﷺ فى حديثه: (لا نكاح إلا بولى).

وقد رفض جمهور الفقهاء وعلماء المسلمين هذا الزواج، ماعدا (أبو حنيفة) الذى اشترط هذا الشرط. ولكن تلامذته فيما بعد اشترطوا وجود الولى لإتمام الزواج العرفى.

شروط للزواج العرفى

وللدكتورة زينب رضوان دراسة عن الزواج العرفى وأسبابه، أوردتها فى كتابها (المرأة بين الموروث والتحديث)، نقتطع بعضا منها:

فمن رأيها أن الزواج العرفى، هو زواج شرعى طالما توفرت فيه الشروط التى حددها الشرع، وهى: الإيجاب والقبول. أى رضاء الطرفين بالزواج. وتوافر المقدرة المالية والاجتماعية والنفسية والتربوية لرعاية الأسرة والقيام بحقوقها.

يقول رسول الله ﷺ: «من استطاع منكم الباءة فليتزوج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء».

كما يشترط الكفاءة فى الزواج، بمعنى أن يكون الزوج مكافئا فى المكانة للزوجة.

كما يشترط وجود ولى أمر الزوجة، إضافة إلى وجود الصداق، والشهود العدول، والإعلان.

وكانت هذه هى الصيغة المتبعة منذ فجر الإسلام وحتى سنوات مضت، عندما بدأ بعض ذوى الضمائر المريضة التلاعب بها، فاشترطت الدولة - حماية للمرأة وأولادها - أن يتم توثيق ورقة الزواج هذه.

ولأن الزواج العرفى صحيح من الناحية الشرعية - إذا التزم بالقواعد السابقة - فقد أقرت الدولة بحق الأطفال فى النسب، وما يترتب عليه من التزامات.

وقد نصت المادة (٩٩) من القانون ٧٨ لسنة ١٩٣١ (على أنه لا تسمع عند الإنكار دعوى الزوجية، أو الإقرار بها إلا إذا كانت ثابتة بوثيقة زواج رسمية).

وهذا يعنى أن القانون لم يشترط لصحة عقد الزواج أن يكون بوثيقة رسمية، وإنما اشترط ذلك بسماع الدعوى بين الزوجين، فى الزوجية وآثارها كالطاعة والنفقة وغيرها، ماعدا النزاع بين الزوجين فى النسب وذلك فى حالة إنكار الزوجية وجحودها.

وأما من ناحية الإقرار بالزوجية، فلا يشترط لسماع الدعوى هذا بشرط، بل تسمع الدعاوى الخاصة بالزوجية وآثارها، ولو كان عقد الزواج

عرفيًا، بورقة عرفية أو بدون ورقة مطلقاً.

وقال المشرع تفسيراً لذلك: بأن غرضه من هذا النص - كما جاء فى المذكرة الإيضاحية - هو حمل الناس على توثيق عقد الزواج، إظهاراً لشرفه، وتقديساً له من الجحود والإنكار، ومنعاً لهذه المفاسد العديدة وصيانة للحقوق واحتراماً لروابط الأسرة.

ذلك أن اللجوء إلى الزواج العرفى لا يكون إلا إذا حرص أحد الزوجين أو كلاهما على إخفائه مع تنوع الدوافع والأسباب.

وهناك آراء مختلفة للفقهاء، فمن رأى الإمام الشافعى والإمام أبى حنيفة أنه إذا تم عقد الزواج فأسرُّوه، وتواصوا بكتمانه.

وفى هذا كراهة لمخالفته الأمر بالإعلان.

بينما ذهب الإمام مالك إلى أن العقد يفسخ. وكان قد سئل عن رجل يتزوج المرأة بشهادة رجلين ويستكتمهما. وقال: يفرق بينهما بتطليقة، ولا يجوز النكاح، ولها صداقها إن دخل بها، ولا يعاقب الشاهدان.

وتقول الدكتورة زينب رضوان: إن المشكلات المترتبة على الزواج العرفى بدأت بشكل واضح فى الحقبتين الأخيرتين، حينما تزايد عدد الممارسين له، خاصة من الشباب، نتيجة لتغير الظروف الاقتصادية والاجتماعية، وصعوبة توافر الشروط المالية اللازمة للزواج الرسمى، بالإضافة إلى ظاهرة الزواج التجارى التى بدأت بعد الانفتاح بين الشابات المصريات وأثرياء من خارج مصر، والتى تحولت إلى الشكل العرفى تهربا من القيود التى وضعتها الدولة المصرية لحماية هذه الفئة من المصريات ضد الزواج غير المتكافئ ولتأمين حقوقهن فى مواجهة هذا الزواج.

ولهذا الضرر الواقع على المرأة، جاء قانون إجراءات التقاضى فى مسائل الأحوال الشخصية رقم (١) لسنة ٢٠٠٠ ليقر فى مادته ١٧/ ٢ حكماً

جديداً يقضى بقبول دعوى التطليق فى الزواج العرفى إذا كان ثابتاً بأية كتابة: (ولا تقبل عند الإنكار دعوى الزوجية فى الوقائع اللاحقة على أول أغسطس ١٩٣١ ما لم يكن الزواج ثابتاً بوثيقة رسمية ومع ذلك تقبل دعوى التطليق إذا كان الزواج ثابتاً بأى كتابة).

ومن رأى الدكتورة زينب: أن هذا النص يواجه واقعاً ظالماً للنساء، يتمثل فى تعليقهن على ذمة زوج عقد عليهن عرفيّاً، ثم غاب عنهن أو هجرهن أو مارس عليهن الابتزاز، دون أن يستطعن الفكاك من هذا الزواج المعلق بإرادة الزوج فقط، حيث لم تكن المحكمة تقبل أية دعاوى خاصة بالزواج العرفى، إلا دعوى نسب الطفل، ففتح القانون بهذا النص بابا للمرأة للحصول على الطلاق من عقد عرفي. إلا أنه وطبقاً للقانون لا يترتب على الحكم بتطليق الزوجة فى عقد عرفى سوى إنهاء رابطة الزواج العرفى دون الآثار التى ترتبت على الحكم بالتطليق فى زواج رسمى موثق.

وهناك مجموعة من الأسباب دفعت إلى الأخذ بالزواج العرفى، سواء من قبل المرأة أو من قبل الرجل. منها:

- رغبة المرأة فى الاحتفاظ بالمعاش الذى تحصل عليه، سواء من والدها أو من زوجها المتوفى. وقد انتشر هذا الأمر وشاع عقب حرب اليمن ثم حرب ٦٧ لكثرة الشهداء من ضباط وجنود القوات المسلحة من الشباب خاصة المتزوجين حديثاً. حيث منحت القوات المسلحة لزوجاتهم معاشاً كبيراً تقديراً لبطولات أزواجهن، وكذلك حتى يمكنهن تربية أطفالهن تربية صحيحة وسليمة.

وكان فى ذلك حسن تصرف من القوات المسلحة، ولكن أكثر الشهداء كانوا من الشباب، ومن ثم فإن زوجاتهن كانت شابات، وكانت تحصل على معاش كبير وضخم، مما دفعهن إلى قبول الزواج عرفيّاً، حتى لا يخسرن هذا المعاش الكبير.

• كذلك رغبة المرأة المطلقة أو الأرملة فى الاحتفاظ بحضانة أطفالها فى حالة زواجها مرة ثانية.

• ورغبة بعض النساء فى الاحتفاظ بوظائفهن، حيث كانت بعض الوظائف تشترط أن تكون غير متزوجة، كما كان الحال عليه فى عمل المضيفات الجويات.

• ورغبة بعض الرجال فى الزواج بأخريات مع الاحتفاظ بهذه العلاقة سرّاً عن زوجته السابقة.

وتقول: لقد انحرف البعض بالزواج العرفى انحرافاً خطيراً، نال من شرعية هذه العلاقة، حتى أصبح ظاهرة خاصة بين الشباب الذين تحول ظروفهم المادية والاجتماعية دون إتمام الزواج بالشكل الذى تعارف عليه المجتمع.

فقد استقر فى أذهانهم - نتيجة التضليل الذى شاع بينهم - أنه يكفى للزواج قبول الطرفين به ووجود شاهدين، مسقطين جميع الشروط الأخرى اللازمة، مما خرج بهذه العلاقة المشبوهة عن دائرة الزواج العرفى الشرعى الحلال إلى دائرة العلاقة المحرمة.

وتقترح - وأنا أثنى على رأيها هذا - أن تكون هناك صيغة واحدة للزواج الشرعى المعترف به من الدولة والدين، وهو المستوفى لجميع أركان الزواج الصحيح كما نص عليه الإسلام، وهى:

المقدرة الكاملة على القيام بمسئوليات الزواج، عملاً بقول رسول الله ﷺ: «أيما امرأة تزوجت بغير ولى، فنكاحها باطل، فنكاحها باطل، فنكاحها باطل».

مع تحديد مهر، وتوفر شروط الكفاءة فى الزواج وأن يتم عقد الزواج فى مجمع من الناس، ولا يكتفى بوجود شاهدين على العقد فى غرفة مغلقة قد لا يعلم به أحد. لأن الهدف الذى يرمى إليه الإسلام هو الإعلان عن الزواج لقول رسول الله ﷺ: «إن ما يفرق الحلال عن الحرام هو الإعلان».

وأوصى باستخدام الدفوف للإعلان عن الزواج.

وإذا خالف أحد الصيغة الصحيحة للزواج، والمتمثلة فى (الولى الشهود، المهر، الكفاءة والمقدرة المالية) توقع عليه عقوبة الزنا، بشرط أن تكون العقوبة المقررة على المرأة هى نفسها العقوبة الموقعة على الرجل.

كذلك يعاقب كل من ساهم أو عاون فى إتمام هذه العلاقة المخالفة بعقوبة المحرض على الفسق والدعارة.

وأن تغلظ العقوبات، إذا كانت الفتاة أقل من ٢١ سنة وقت إنشاء هذه العلاقة المخالفة.

وإذا ترتب على إنشاء هذه العلاقة المخالفة حصول أطرافها على أموال لاحق لهم فيها، يعاقب بالعقوبة المقررة لاختلاس المال العام.

وإذا ترتب على هذه العلاقة الإضرار بحقوق الغير المادية أو المعنوية أو الانتقاص من حقوق كانت مقدرة لهم قبل إنشاء هذه العلاقة، يحرم المخالف من أى حق حصل عليه، بسبب إنشاء هذه العلاقة، سواء كان حصوله عليها بسببها أو فى زمن لاحق على إنشائها، وتقرر له عقوبة الحبس مدة لا تزيد عن ثلاث سنوات.

وهذه العقوبات لتفادى حالات الزواج السرى وغير المعلن والذى تفاجأ به الزوجات بعد وفاة الزوج وما يترتب على هذا الأمر من التزامات وتبعات. فمن حق الزوجة أن تعلم، وأن تكون على بينة من أمرها. ذلك أن الإسلام قائم على الوضوح والاستقامة. والرسول الكريم يقرر أنه (من غشنا فليس منا).

وللكاتب الصحفى الساخر أحمد رجب رأى فى الزواج العرفى نشره فى جريدة أخبار اليوم ٧ فبراير سنة ٢٠٠٤ يقول فيه: هل يكفى أن ترتفع كل يوم صيحات الاستنكار لأن الزواج العرفى انتشر فى الجامعات. إن

مجتمعنا يعانى البطالة التى تدمر أحلام الشباب فى بيت وعروسة وأسرة، ويزداد الأمر صعوبة فى مجتمع أصابه سعار المال، وأصبح «كتب الكتاب» تتم كتابته على دفتر شيكات.

إن الشباب الفوار فى أحلى سنوات العمر، له متطلبات لا يمكن إنكارها، ولقد حاول الشباب حل هذه المشكلة فى إطار الشرع بالزواج العرفى، وصحيح أن قانون الأحوال الشخصية (رقم١ لسنة ٢٠٠٠) نص على عدم سماع الدعوى عند إنكار الزواج، لكنه اعترف بالزواج العرفى، عندما أعطى الزوجة المتزوجة عرفياً الحق فى سماع دعواها عند طلب الطلاق، أى اعترف ضمنا بالزواج العرفى الذى يقره جميع فقهاء الشريعة، بل إن أباحنيفة ذهب أبعد من ذلك وقال: إنه يجوز إيصاء الشهود بالكتمان.

إن الدراسات التى أجراها مركز الدراسات الاجتماعية تشير إلى أن الفتيات اللاتى تأخرن عن سن الزواج بلغ عددهن تسعة ملايين فتاة، وبدلاً من أن ترتفع صيحات الاستنكار للزواج العرفى علينا أن نعالج أساس المشكلة لا أن نكتفى باستنكار نتائجها، وهو الزواج العرفى.

ولا ينبغى أن ننظر بخفة إلى قنبلة زمنية اجتماعية، ولا أن يفتى فيها الذين ينعمون بحياة أسرية مستقرة بعيداً عن عذاب الشباب.

فالزواج العرفى، أو البوى فرند، أو أى مسمى آخر، أساسه هو الجنس، وإشباع الرغبة الجنسية عند الشباب، حيث لا توجد طريقة أخرى للتنفيس عنها، وقد وجد الشباب فى هذا النوع من الزواج حلاً لمشاكله العاطفية وشهواته الجنسية التى خلقها الله فى الرجال والنساء على حد سواء. فهى شهوة مشتركة، وعاطفة صادقة تحرق الاثنين معاً، ولابد من إيجاد مخرج شرعى له، يرضى عنه الله ورسوله، وفى إطار من الدين والأخلاق والقانون.

فالزواج العرفى إذن هو نتاج وإفراز المجتمع الذى نعيشه الآن. فلا

عمل للشباب، ولا مسكن، والبطالة تقتل كل أمل عندهم. وليس هناك من حل قريب وسريع عند الذين انشغلوا بالنهب من البنوك والحكومة من كل مكان. ليزداد الغنى غناً، وليزداد الفقير فقراً.

لماذا الزواج العرفى فى الجامعات؟

وفى دراسة أجرتها الباحثة دينا البرنس لتحصل بها على درجة الماجستير من قسم علم النفس بكلية الآداب جامعة الزقازيق، واستغرقت ثلاث سنوات، عن لماذا يلجأ الشباب إلى الزواج العرفى؟ وما هى النتائج المترتبة على مثل هذا الزواج؟(١).

وقد أجرت فيها اختبارات نفسية على عينة من طلبة الجامعات المتزوجين عرفياً لمعرفة سماتهم الشخصية.

وكان الزواج العرفى قد بدأ يعرف طريقه إلى شباب الجامعة والانتشار بينهم سنة ١٩٩٨، والغريب أنه كان أكثر انتشاراً بين شباب الجامعات الإقليمية.

ومن النماذج التى التقت بها الباحثة صيدلانية عمرها (٤٠ سنة) متزوجة عرفيّاً من طبيب عمره (٤٥ سنة) كان قد تقدم لها للزواج فى بداية عمرها، ولكنها رفضته لفقره، وتزوجت من شاب آخر، ولكنها اختلفت معه ولم تدم العشرة. بينهما طويلاً، فطلبت الطلاق منه، لكنه رفض تطليقها، واضطرته الظروف إلى الهروب إلى خارج مصر، فانتهزت الفرصة ورفعت دعوى طلاق، وحكمت لها المحكمة غيابيّاً، ولأنها كانت تقيم مع أهله، فقد جعلت أمر هذا الطلاق فى طى الكتمان. وعندما تقدم لها الطبيب مرة أخرى بعد أن أصبح غنيّاً، تزوجته عرفيّاً، واستأجرا شقة يقيمان بها لبعض الوقت، ومازالت تقيم مع أهل طليقها دون أن يعلموا بذلك.

وقد تبين من الدراسة النفسية للذين يتزوجون عرفياً، أنهم جميعاً

(١) مجلة الشباب عدد فبراير سنة ٢٠٠٤.

نشأوا فى أسر مفككة وغير مترابطة، والأب مهزوز وغائب عن دوره فى تربية أولاده، ومراقبتهم، ورعايتهم، وحل مشاكلهم، والتقرب إليهم.

وكذلك الأم، إما غائبة هى الأخرى ومشغولة بأشياء أخرى، وإما أنها متسلطة، والمعاملة بينها وبين زوجها غير لائقة، وبالتالى يوجد خلل واضطراب داخل الأسرة.

وبقياس الأمراض النفسية لدى الأبناء المتزوجين عرفيّاً اتضح وجود ما يعرف (بالانحراف السيكوياتى) الميل إلى العدوانية، أى أنهم شخصيات مضادة للمجتمع، وغير متسقة مع عاداته وتقاليده وأعرافه.

والدليل هو لجوؤهم إلى الزواج العرفى، وهو نظام يرفضه المجتمع، ولا يعترف به.

والقانون لا يحرم هذا النوع من الزواج، وربما تكون المشكلة الوحيدة فى الزواج العرفى من الناحية القانونية هى الإرث.

والمتزوجون عرفيّاً يعانون من بعض الأعراض الهيستيرية والميل للنرجسية. وتضخم الذات، ووجود نية للانحراف لديهم.

وهناك عامل آخر وراء انتشار ظاهرة الزواج العرفى، يتمثل فى الظروف الاقتصادية الصعبة التى يعانى منها الشباب، والتى تحرمه من وجود وظيفة أو عمل يدر له دخلاً مناسباً يساعده على تكوين أسرة والزواج الطبيعى.

وإن كانت هذه الظروف الاقتصادية لا تشكل وحدها عامل الضغط النفسى على الشباب لدفعهم دفعاً تجاه اختيار الزواج العرفى كحل وحيد أمامهم.

وإنما يلجأ عادة لمثل هذا الزواج العرفى من تنطوى نفسه على سمات غير طبيعية. ذلك أن الظروف الاقتصادية الصعبة تواجه كل الناس، وكل الشباب، وهناك من يصمد أمامها ويواجهها، ويكافح لتذليلها والانتصار عليها.

وقد لاحظت الباحثة فى العينات التى أجرت عليها دراستها من

البنات. أنهن أكثر استهتاراً من الأخريات، وأنهن صاحبات جرأة حتى فى أسلوب الكلام، والتصرفات، وعدم الشعور بالذنب.

وبصراحة شديدة. ليس عندهن أى التزام أو انضباط. كما أنهن يستخدمن ألفاظاً غريبة، ويرتدين ملابس غير محتشمة.

وقالت لها إحدى الطالبات: إن سمعتها فى الجامعة أصبحت سيئة من تعدد علاقتها مع الزملاء. وكل زميل يستمر معها فترة ثم يتركها. وعندما تعرفت على زميل لها تمسكت به كى تتزوجه عرفيّاً لأنه الأمل الوحيد الباقى أمامها.

كما لاحظت الباحثة أن كل حالات الزواج العرفى متشابهة، وأنه ليس لديهم شقة زوجية، بل يتقابلون فى أماكن متعددة، مثل شقة صديق، أو شقة الأسرة فى حالة عدم وجود أحد.

كما أنه من الملاحظ أيضاً أن هذه الحالات معروفة فى الجامعة، وسمعتها سيئة، سواء من الشباب أو الفتيات.

والوحيد الذى يمكن أن يطلق عليه (آخر من يعلم) هو الأسرة.

وهذه الأسر عادة متوسطة، فلا هى غنية ثرية ولا هى فقيرة معدمة.

ولكن الأمر المحير واللافت للنظر هو أن جامعات الأقاليم وليس جامعات المدن الكبيرة كالقاهرة والإسكندرية وعين شمس. باعتبار أنها جامعات منفتحة هى التى تنتشر فيها هذه الظاهرة، رغم أن جامعات الأقاليم أو «جامعات الفلاحين» كما يطلق عليها المفروض أن يكون بها قيود شديدة، وأن يكون طلبتها وخاصة طالباتها أكثر تماسكاً بالقيم والأخلاق والمبادئ، وأن أى شىء غير أخلاقى يعود على الأسرة وأفرادها بالكامل.

ولكن ما حدث عكس ذلك - وأظهر البحث - أن شباب المدن الكبيرة أكثر حرصاً وتمسكاً بالأخلاق من شباب الفلاحين وجامعاتهم.

وقد لاحظت من واقع عملى الصحفى والتجول فى مدن وقرى كثيرة فى مصر،

أن أجهزة التليفزيون والفيديو ثم الدش قد أثرت عليهم كثيراً، وغيرت من عاداتهم وتقاليدهم وموروثاتهم. وأصبح من الممكن أن ينطبق عليهم المثل المصرى القائل: (كان فى جرة وطلع لبرة).

فقد كانوا محصورين ـ طوال عمرهم ـ بين الدار والزرع والغيط ثم النوم مبكرا للعمل مع الفجر. ولكن الأجهزة الحديثة والتليفزيون والدش غير مجرى حياتهم، واتخذت لها رافداً جديداً بعيداً عن قيم وأخلاق زمان الحلوة.

وأصبحت قصص الحب والغرام والهيام، تعشش فى رؤوس وعقول شباب القرية بنات وبنين، وقد سهل لهم ذلك، انتشار الزراعة حول القرية، حيث تعد بيتاً خاصاً، وشقة (جرسونيره) خاصة يملك مفتاحها الشباب فى أى وقت.

وسوف يلاحظ المهتم انتشار أفلام الجنس مع الڤيديو فى القرى، وهى ظاهرة لم تكن معروفة من قبل، كما انتشرت أيضاً (الفياجرا) وأصبحت من المبيعات التى تدر دخلاً كبيراً على بعض تجار القرية وصيدلياتها. وكل هذه المزايا لا يملكها شباب المدينة.

زواج المتعة

وهذا الزواج كان قد أباحه رسول الله ﷺ لجند المسلمين فى الغزوات والحروب، ثم أعلن عن إلغائه.

وبهذا الرأى أخذ أهل السنة وحرموه.

ولكن أصحاب المذهب الشيعى يقولون إن الذى ألغى هذا النوع من الزواج هو عمر بن الخطاب وليس النبى ﷺ.

ويسوقون الكثير من الأمثلة، والحكايات المدعمة بالأحاديث النبوية، على أن النبى ﷺ أبقاه وحافظ عليه حتى مماته، ثم جاء عمر بن الخطاب وألغاه.

ولكن أهل السنة حرموا هذا النوع من الزواج لأنه محدد المدة، وهذا يعارض أهم أهداف الزواج وهو الديمومة والاستقرار فى الحياة. ويؤكدون أن النبى هو الذى ألغاه.

عن جابر بن عبد الله ومسلمة بن الأكوع قالا:

كنا فى جيش فأتانا رسول الله ﷺ فقال: «إنه قد أذن لكم أن تستمتعوا فاستمتعوا». (قد نسخ ذلك. رواه البخارى).

وعن على بن أبى طالب أن رسول الله ﷺ نهى عن متعة النساء يوم خيبر، وعن أكل الحمر الإنسية.

ويرى الشيعة أن هذا الزواج يحل مشكلة المسلم الذى يسافر إلى بلاد بعيدة، ويصونه من الانحراف أو الإصابة بالأمراض. كما أنه طريقة للتخفيف عن كبار السن من النساء والفتيات اللاتى فاتهن قطار الزواج، لكى يمارسن حياة الزواج ولو لفترة وربما تدوم.

فزواج المتعة عند الشيعة، كالزواج العادى، بمهر وشهود ومؤخر صداق وعقد محدد المدة. ومن حق الزوج أن يحوله إلى عقد دائم.

ويترتب عليه ما يترتب على الزواج العادى من حقوق وواجبات خلال مدة العقد. فإن أثمر الزواج عن أولاد نسبوا إلى أبيهم ويرثون منه كأبناء الزواج العادى. وإن مات الزوج خلال الزواج ترثه زوجته أيضاً.

فزواج المتعة - كما يقول فقهاء الشيعة - كالزواج العادى تماماً فى آثاره ونتائجه غير أنه محدد بمدة معينة، ينتهى بنهايتها. طالما لم ينتج عنه أولاد، أو لم يطلب الزوج تمديده.

وهم يرون فيه خير وسيلة للقضاء على مشاكل الشباب لأنه خير من الزواج العرفى، وزواج البوى فرند، وباقى أنواع الزواج الأخرى.

وأذكر أن الأديب المرحوم يوسف السباعى كان قد نادى بتطبيقه فى

مقال كتبه فى مجلة آخر ساعة عندما كان رئيساً لتحريرها فى الستينيات، وطالب بتطبيقه فى مصر، للتخفيف به عن الشباب، وعن الأرامل، والزوجات اللاتى تركهن أزواجهن ويحملون مسئولية تربية الأبناء دون معين يساعدهم. ولكن رأيه قوبل بالرفض الشديد.

والدكتور منيع عبد الحليم محمود يقول: إن هذا النوع من الزواج غير مقبول من علماء المسلمين على الإطلاق، وهم مسلمو السنة.

لأن له توقيتاً محدداً، ومدة منصوصا عليها فى العقد، وصحيح أنه عقد بشهود وإعلان، لكن مسألة التوقيت فى الزواج محرمة فى الإسلام، ولا يجب اشتراطها حين العقد.

ويقول: إن علماء الشيعة يبيحون زواج المتعة بمقابل مادى، وقد يصل إلى يومين أو أسبوعين أو شهرين.

وبذلك فإن الفارق الوحيد بين الزواج العادى، وزواج المتعة، هو تحديد المدة فقط.

ومن هنا فإن الشيخ شوقى عبد اللطيف أيوب وكيل أول وزارة الأوقاف يرى أن الهدف من الزواج هو السكن والاستقرار، وتكوين الأسرة، عملاً بقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ (النحل: ٧٢).

والزواج من سنة الأنبياء والمرسلين، لذلك كان من دعاء الصالحين: «ربنا هب لنا من أزواجنا وزرياتنا قرة أعين، واجعلنا للمتقين إماما».

كما أن الزواج ميثاق قوى، حيث وصفه الله تبارك وتعالى بأنه: «وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً».

وقد وضع الفقهاء للزواج عدة شروط، لابد من توافرها حتى يكون

الزواج صحيحاً.

ومن هذه الشروط. الإشهار عملاً بقوله ﷺ: «أعلنوا عنه بالدف».

ولابد أيضاً من الولى الذى يزوج الفتاة، عملاً بقوله ﷺ: «لا نكاح إلا بولى».

ولابد أيضا من المهر، عملا بقول الله عز وجل ﴿وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً﴾

ولابد أيضاً من شاهدى عدل.

كما لابد أن يكون النكاح (عقد الزواج) على التأبيد غير مرتبط بمدة محددة.

* * *

سادساً ـ حكايات من رسائل القراء
حول الزواج العرفى والمسيار

حكايات من رسائل القراء
حول الزواج العرفى والمسيار

أنقل هنا بعض الرسائل التى وصلتنى بصفتى المشرف على صفحة (إلى المحرر) بجريدة الأخبار المصرية، وهى الصفحة المخصصة يومياً لنشر مشاكل الناس وهمومهم، ومساعدتهم فى إيجاد حل لها، وذلك على مدار سنوات طويلة.

وسوف يلاحظ القارئ أن فى بعض الرسائل حديثا صريحا عن العلاقات الجنسية التى نشأت بين الفتى والفتاة فيما يسمى بالزواج العرفى أو زواج (البوى فرند)، وأن العلاقة بدأت سهلة، وانتهت بمشكلة كبيرة تقع فيها الفتاة عادة، ويتركها الشاب وينصرف إلى حال سبيله، باحثاً عن زوجة أخرى، تحافظ على تقاليد الحياة والمجتمع، ولا يخاف منها أو يشك فيها، وفى إمكان قيامها بتأدية نفس الدور الذى لعبته معه من قبل، مع شخص آخر، قد يكون أكثر منه غناً، أو أجمل مظهراً.

ذلك أن الشك فيها، وفى كل تصرفاتها سوف يلازمه طوال عمره. ومن هنا يسعى إلى التخلص منها إلى الأبد لكى يبدأ حياة جديدة مع إنسانة أخرى تحافظ على الأخلاق والتقاليد والدين. وقد حاولت جهدى أن أنتزع تعبيرات جنسية كثيرة من رسائل القراء، وأبقيت ـ مُكرها ـ على بعضها حتى لا تفقد الرسائل الهدف من نشرها.

وقد لاحظت فى كل الرسائل التى وصلتنى على مدار سنوات طويلة، أن هذه الظاهرة يتشارك فيها الغنى مع الفقير. الغنى يعملها من باب التسلية، وحب المعرفة وقضاء وقت سعيد، فيه مغامرة، ومحاورة، ومداورة، وإحساس بالضحك أو السخرية من الأهل والعادات والتقاليد.

ويفعلها الفقير لأنها ربما هى الوسيلة الوحيدة المتاحة أمامه لتحقيق الغنى، أو الثراء، أو بحبوحة من العيش. وربما بهدف الانضمام إلى صفوف كبار القوم وعليتهم، ولكن ذلك لا يحدث أبداً - للأسف الشديد - لأن الرجل يهرب دائماً. وتكتشف الفتاة أنها كانت ترى سراباً وأضغاث أحلام. ورؤى كاذبة.

الرسالة الأولى

الرسالة الأولى من هناء. أ. م تجارة عين شمس تقول: تعرفت عليه بعد أن دخلت الجامعة بحوالى شهرين، كان يطوف حولى فى كل مكان، حتى داخل المدرجات كنت أجده جالساً يرقبنى، وكانت ابتسامته على وجهه بصفة دائمة، وكأنها إحدى علاماته ومميزاته، وكان دائم الضحك والمرح مع زملائه الذين لم أكن أعرفهم.

وكان وكأنه كان فى انتظارى من سنوات طويلة، ربما منذ وعيت الحياة، لكى يلتقى بى هنا فى الجامعة.

كان وسيماً، لذيذاً، مرحاً، أنيق الملبس حلو المظهر، ثم من بعد ذلك معسول الكلمات، وكأن كل كلمة عبارة عن أنبول حقن مخدرة فى العرق، أو جرعة هيروين تفقدنى السيطرة.. وأصبحت طوع أمره فى كل شىء.

وأنا فتاة بسيطة، ريفية، قادمة من قريتها الصغيرة والتى تجاور مدينة طنطا، بكل أحلام وتطلعات بنات القرى والمدن الصغيرة إلى شباب مصر (القاهرة) وما يفعلونه، وما يقولونه للبنات.

وكانت كل معلوماتى عن طريق التليفزيون أو أفلام السينما، وعشت مع

هذه الأحلام كل سنوات طفولتى، ومراهقتى، وبداية اندفاع الشباب، وتكاثر الأحلام الوردية. وأصبح حلم دخول الجامعة فى مصر أهم أهداف حياتى، حتى أرى بعينى ما رأيته فى الأفلام والأحلام حقيقة لا خيالاً.

وأعترف أننى كنت حلوة، جميلة. وكانت كلمات الشباب تلسعنى كالنحل، وتدغدغ إحساسى، وتشعرنى بالنشوة والفرحة والتميز عن زميلاتى.

وكنت رابع ابنة فى الأسرة، الثلاثة الأوائل، تزوجن بدرى بدرى، بعد الإعدادية، كثر طلاب الزواج عليهن.

وفرحت أمى وفرح أبى لأنه سوف يتخلص من (هم) ثلاث بنات، وتبقى واحدة وهى (أنا) ثم أخى الصغير والوحيد. وزوجهن سريعاً سريعاً، حتى يتفرغ لى ولأخى رجل العائلة الوحيد.

وذات يوم جاء من يخطبنى من أبناء القرية، كان ثريا وله بيت ودخل محترم ومن عائلة، ولكنى رأسى وألف سيف أبيت أن أتزوج، ورفضت رفضا قاطعا، وامتنعت عن الطعام والشراب.

وكانت صديقاتى وزميلاتى فى المدرسة فى حيرة من أمرى، فمن يرفض زواجة (سقع) مثل هذه، لن تكلف الأسرة أى شىء. والولد مناسب وابن ناس وشاب طويل وجميل.

لكنه فى نظرى (فلاح) فى لبسه، ومظهره، وكلماته، وضحكاته. ولم يكن مثل الشباب المصرى الذى أراه فى الأفلام ومسلسلات التلفزيون، حلو، وجميل، وكلامه مثل العسل الشهد، ويعشعش فى كل أعماقى، ويجرى فى دمى، كما يجرى فى كل أحلامى ومنامى.

وأخيرا خضع والدى لرغبتى بعد أن لاحظ أننى أضعف، ولونى يصفر، ولا أستطيع المشى.

كما أن والدتى (صعبت عليها) فأخذت تحث والدى على أن أكمل تعليمى وأدخل الجامعة مثل بنات خالاتى، وأصبح متعلمة خاصة وأن كل

إخوتى البنات تزوجن صغيرات، فيصبح فى العائلة واحدة متعلمة ومتخرجة من الجامعة.

وقبل أبى. وذاكرت واجتهدت، ودخلت كلية التجارة جامعة عين شمس، وقد اختارها أبى لأن لنا أقارب يسكنون بجوارها، وحتى أكون تحت إشرافهم ومراقبتهم وتوجيهاتهم.

وقبلت. وقلت عين شمس.. عين شمس.. زى بعضه. صحيح كنت أتمنى جامعة القاهرة، لأنها كانت حلم حياتى. كلما شاهدتها فى الأفلام، أحلم باليوم الذى أصبح فيه طالبة بها، كما كان عبد الحليم حافظ ونادية لطفى، وحسين فهمى وسعاد حسنى فى فيلم «خلى بالك من زوزو»... وفى الوسادة الخالية وأيامنا الحلوة.

ودخلت الجامعة وأنا متلهفة إلى لقائه.. فتى الأحلام. ومر أسبوع وأسبوعين، وشهر وشهرين ولم أر شيئا.

ثم جاء.. وقف أمامى، وانتزع كشكول محاضراتى وأخذ يقرأ فيه.. ولم أعرف ماذا أفعل أو أقول.. (وضربت لخمة) وأنا أنظر إليه طويلا. كان هو فتى الأحلام كما فى السينما بالضبط.. طويل، رشيق قميصه مفتوح، وشعر صدره غزير ويطل بكثافة من قميصه، وشعر رأسه ناعم، متهدل على جبينه، وعيناه جريئتان، غرسهما فى عينى وهو يبتسم، ويقلب صفحات الكشكول، وكأنه يعرف كل شىء فيها.

اسمى حسين، طالب بالليسانس.

قالها فى هدوء وثقة..

نظرت إليه. احتويته جيداً. كان مثل حسين فهمى مع سعاد حسنى فى فيلم «خلى بالك من زوزو»، أو كأنه يقلده. المهم أنه كان صورة منه، وصورة من فتى أحلامى، ابن مصر، الشجاع، الجرىء، القوى، والذى يقول كل شىء

دون خوف أو وجل.

قلت مسحورة:

هناء.. اسمى هناء..و

ولم يتركنى أكمل جملتى وقال ضاحكا:

وفى سنة أولى حب.. أقصد سنة أولى دراسة.

وضحك وأعاد إلى كبشكول المحاضرات. وتركنى وانصرف. دون أى تعليق أو كلمة. وكأن كل شىء انتهى وحدث بالمصادفة. وانتهى الأمر.

ووقفت مذهولة من جرأته، عندما اقتحم على حياتى، ومن جرأته عندما تركنى هكذا (معلقة) دون كلمة، وانصرف.

ومضت أيام طويلة وأنا أبحث عنه، داخل الجامعة، وفى المدرجات، وأمام المكتبات، وفى الطرقات وحدائق الكلية. دون فائدة. وكأنه فص ملح وذاب. أين ذهب وأين اختفى.. لست أدرى.

وكما ظهر ذات يوم فجأة.. ظهر فجأة وأمسك كتبى وأخذ يقلب فيها، ثم سار خطوات، فإذا بى أتبعه فى هدوء.

وفى ركن منعزل وقفنا وتحدثنا، وطال الحديث، وطال الوقوف، ودعانى للجلوس فى مكان، فقبلت دون تردد.

وأصبحنا نتقابل كل يوم. وعرفت أنه من مصر وأن أسرته تسكن فى مصر الجديدة ولهذا دخل تجارة عين شمس لأنها قريبة رغم أن مجموعه كان يدخله جامعة القاهرة. وحكيت له حكايتى مع أبى وقصة دخولى الجامعة.

وأعترف أنه طوال لقائى به، لم يحاول أن يسىء إلى بالقول أو بالفعل، وأكثر ما فعله هو إمساك يدى، أو يضع يده حول خصرى ونحن نعبر الطريق

خوفا من السيارات.

واطمأننت إليه. وأسلمته أمرى.

وذات يوم أخبرنى بمدى حبه لى، وأن العلاقة بيننا سوف تستمر مدى الحياة ولن ننفصل أبدا وحتى الموت. وأخذ يحدثنى عن المستقبل، حتى الأولاد اخترنا لهم الأسماء..

ولحظتها تمنيت أن أقبله، وأن أضمه إلى صدرى بقوة. فكم حلمت طوال عمرى بهذه اللحظات.

وفى هدوء، وكأنه قرأ كل أفكارى ولمس مشاعرى قادنى إلى شقة صغيرة، كانت لأحد أصدقائه. وضِعْت بين يديه وشفتيه.

وبكيت كما لم أبك من قبل. وعرض على الزواج عرفيا على طريقة (البوى فرند)، ولم يكن أمامى سوى القبول.

وفى الحقيقة، فرحت بما قاله، لأنه حل كل مشاكلى، فقد أصبحت زوجة له، وشهد على ذلك بعض زملائه، واكتشفت وجود حالات زواج من (بوى فرند) كثيرة، وبدأنا نتعرف ونخرج معاً جميعاً. وكأننا من أهل دعوة جديدة، علينا أن نجتمع، ونتوحد، ونواجه الواقع، وننتصر عليه.

وكنا نعلم أن هناك من يعادينا ويتندر علينا، وأننا أحللنا الحرام باسم زواج البوى فرند.. حتى نفعل ما نريد كما يحدث فى الأفلام والمسلسلات الأجنبية.

صحيح أن المجتمع هناك يبيح ويعترف بالعلاقة الجنسية بين الفتى والفتاة، وأن ذلك أمر طبيعى، لدرجة أن الفتاة إذ لم يكن لها «بوى فرند» بحث لها أهلها عنه، أو ذهبوا بها للعلاج عند طبيب نفسانى.

ولكن المجتمع عندنا لم يعترف بذلك بعد، ويعده من ارتكاب المحرمات والرذيلة.

لكن الأهل لا يدركون مشاعر الشباب، وطاقاتهم المكبوتة، وحقهم فى

ممارسة اللذة والمتعة الجنسية فى الحلال، ولكن أين هو هذا الحلال.

فكل شىء صعب. لا عمل أمام الشباب، ولا سكن، ولا مستقبل، ولا أى شىء. والعمر يجرى. والبنات تكبر، والشباب يائس مما حوله ونحن نرى حتى أقاربنا الذين ساروا فى طريق الشرع والعلانية، أصبح طريقهم مسدوداً، بعد سنوات طويلة من الخطوبة أو كتب الكتاب، لأن الشقة غير موجودة، والعمل غير متوافر، والغلاء يحطم كل شىء حتى الأخلاق والمبادئ والقيم.

فهل أنا وغيرى أخطأنا بهذا الزواج؟.. وكل زميلاتى وأصدقائى يعرفون به.. أى أنه علنى.. لكن أهلى لايعرفون.. وهذه هى المشكلة.. وإن كان عندى أمل أن تحل مع الأيام.

الرسالة الثانية

والرسالة الثانية كانت تحمل توقيع (فاطمة) تقول فيها: نشأت فى بيت متوسط فى الزقازيق. أبى كان مدرسا، وأمى ست بيت، تجيد الخياطة وتقوم بتفصيل الملابس للجيران والمعارف، وتكسب من ذلك الكثير مما يساهم فى إنعاش ميزانية البيت.

وكنا ستة إخوة. أربعة ذكور، وبنتان. الأربعة الذكور شقوا طريقهم فى الحياة، ومنهم من تخرج من الجامعة أو حصل على دبلوم تجارة أو صنايع وبدأ يعمل.

وبذلك خف الحمل عن أبى وأمى، وتزايدت ونمت وكثرت ميزانية البيت، خاصة مع توسع شهرة أمى فى أعمال الخياطة وإقبال النساء عليها، فأقبل معهن المال الوفير، وشهد بيتنا الكثير من أنواع الفواكه والمأكولات والتى لم نكن نعرفها من قبل.

وكبرت. وحصلت على شهادة الثانوية العامة، ودخلت كلية علوم القاهرة. وسكنت فى مدينة الطالبات.

وكانت زميلتى فى الحجرة طالبة فى كلية الآداب قسم إنجليزى، وكانت هى الأخرى من الشرقية وإن كانت من قرية بعيدة عنا..

وكانت زميلتى حلوة. جميلة.. بيضاء. ذهبية الشعر. ينسدل على جسدها الأبيض المرمرى وكأنه شلالات من ذهب تتدفق عليه من كل صوب وحدب.

وكانت تتعمد أن تجلس فى الحجرة عارية. أقصد أكثر جسدها عاريا، لا شىء تخفيه إلا بعض الأجزاء الصغيرة، والنتوء والبروز.

الحق أقول. إننى كفتاة اشتهيتها، وتمنيت أن أقبلها، وأحضنها كما يفعل الرجال.

وذات يوم أخبرتها برغبتى هذه. فإذا بها تضحك فى لذة شديدة، وكأنها تفخر بجسدها، وبكل تفصيلاته.

لم تخدشها الكلمات. وإنما أسعدتها. وكأنها كانت تنتظرها منى منذ عرفتنى وسكنت معها.

وقالت لى ذات يوم وهى ترتدى بعض قطع صغيرة من الملابس بحجة أن الدنيا حر: أن أقترب منها.

وقامت بحركات غريبة.

صعقت وتجمدت فى موضعى وكأننى تمثال شمع، ولم أدر ماذا أفعل أو أقول. وجلست مكانى دون حركة.

فإذا بها تنادينى فى شوق، ولهفة، ثم فى لهجة آمرة، وكأنها مريضة وفى حاجة إلى دواء.

وكنت أنا هذا الدواء. كانت مريضة بالشذوذ الجنسى.

وأقول لك الحق - عارضت بادئ الأمر ثم استسلمت لها ولرغباتها - وأصبحنا لا نفترق ليل نهار. وأصبحت العملية شغلنا وهمنا ولذتنا معاً.

وأخذت زميلتى سميرة، تتقرب منى كل يوم، ثم قالت لى فى أحد الأيام أن نخرج سويا للتسوق والشراء.

وفى جروبى سليمان كان موعدها مع شابين. فقد تبينت فيما بعد أنها أعدت هذا اللقاء ولم تشأ أن تخبرنى به، حتى لا أتراجع، أو أتركها وحدها.

وأنها أيضا قامت بكل حركاتها معى طوال الأشهر الماضية ومنذ سكنت معها، حتى تذيب وتقضى على كل ما فى داخلى من تقاليد وعادات وحياء أنثوى.

وأنها أرادت إشعال نار الرغبة داخلى حتى تستطيع السيطرة على وتقودنى إلى حيث تريد.

وكان لها ما أرادت. فقد نجحت فى ذلك كثيرا. وكانت رغبة الشباب ونزواته المتقدة داخلى، وحب المعرفة، وإقامة علاقات مع الشباب كما تفعل كل البنات، قد سيطرت على تماما.

باختصار أصبحت جاهزة لعمل أى شىء.

وأدركت هى ذلك، وتركتنى حتى استويت وطبت وأصبحت فى حاجة إلى من يأكل ويتلذذ.

كانت سميرة، فظيعة. تعرف كل شىء، وخبرت كل شىء منذ وعت الحياة. ولم أكن أنا أعرف شيئا بعد. فمنذ أن كانت فى المدرسة وهى على علاقة بالشباب، ثم استجابت لنزوات مدرسها فى المدرسة، ثم أصبحت هاوية، ثم محترفة.

ووقعت أنا ضحية هذه المحترفة. وأنا خام، لم أعرف أحدا فى حياتى، سوى الأحلام، وحكايات البنات صديقاتى عن الشباب.

لكن شيئا من خوف الحرام، كان مازال فى أعماقى، وكنت أخاف الله، وأخاف أهلى، وأخاف الناس والجيران، والعادات والتقاليد رغم ما فعلته

سميرة بى.

وأسـرعت هى إلى تقـديم عـرض بالزواج العـرفى من صـديقى الذى عرفتنى به. وكان ضابطاً وسيما، وكان فيه حل للمشكلة. وإرضائى. فقد كان هناك شهود، وعقد بيننا. وإن كان أهلى لا يعرفون شيئاً عن ذلك.

واستمرت العلاقة معه شهورا ثم اختفى فجأة كما ظهر فجأة.

وأخبـرتنى سميـرة صديقتى أنه نقل إلى الصعيد على الحدود، وأمامه سنوات حتى يعود.

وسألتها فى سذاجة:

وورقة الزواج العرفى هذه.

قالت ضاحكة:

بليها واشربى ميتها!!

وشـربت آلامى وأحـزانى وسكت. فلم يكن فى يدى شـىء سـوى ورقـة عليها إمضاءات لأناس لا أعرف حتى أين هم الآن. وإذا سألت أو ذهبت إلى البوليس فسوف تكون هناك فضيحة «بجلاجل» بين الأهل والقرية والناس.

وآثرت الصمت.

وأعترف بأننى كنت قد تعودت على هذه الحياة، وأصبح الجوع الجنسى يمزق كل أحشائى. ويشعل كل رغباتى، ويهتك حجاب أسرارى وحيائى.

وتركتنى سميـرة. تخرجت من الكلية، وعينت مدرسة فى إحدى المدن، وتزوجت من زميل لها.. كيف؟ الله أعلم.

وذات يوم فوجئت بها قادمة إلى زيارتى ومعها شاب. قالت إنه مدرس زميلها، ويبحث عن عروس، وقد رشحتنى للزواج منه.

ولست أدرى مـاذا أفـعل؟.. فـالرجل طيب، وابن حـلال، فـهل أخـبـره

بماضيَّ وما حدث من قبل والزواج العرفى؟.. أم أفعل كما فعلت صديقتى سميرة.. وأذهب إلى طبيب نساء وأجرى عملية لإعادة غشاء البكارة.. وأضحك على زوجى.. وأخدعه..

وهل إن فعلت ذلك حرام؟..

بصراحة أنا أريد الزواج منه.. ونادمة على ما فعلت ولكنى لا أدرى ماذا أفعل..

أفيدونى أفادكم الله.

الرسالة الثالثة

أقيم فى بيت بشارع السد فى السيدة زينب، ووالدى كان عاملا ومات فجأة. ثم ماتت أمى من بعده بعد أن مرضت مرضا شديدا. وأصبحت أنا وشقيقتى الكبرى دون سند أو عائل أو أحد يصرف علينا. فلم يكن لوالدى أى معاش، وكان رجلا أرزقيا على باب الله.

وتقدم للزواج من أختى شاب ميكانيكى سيارات، وقبلت، ولم يكن أمامها شىء آخر تفعله، وجاء يسكن معنا فى بيتنا، فلم يكن له بيت، ولم يكن معه فلوس ليؤجر شقة أخرى، وحتى لو فعل ذلك فأين أذهب أنا وكيف أعيش ومن ينفق على وأنا مازلت فى الشهادة الإعدادية..

ومضى عامان. تزوجت أختى خلالهما ورزقهما الله بطفل جميل، عاشت له وانشغلت به عن هموم الدنيا، وهموم زوجها الذى يأتى دائما عند الفجر سكرانا أو متعاطى مخدرات.

وذات ليلة شعرت به فوقى يتحسس جسدى كله، صدمتنى المفاجأة، ولم أستطع الصراخ أو البكاء خوفا على أختى والفضيحة.

ولم أتمكن من مقاومته. ونال ما أراد. ولم أستطع أن أخبر أختى بما حدث وبما يحدث كثيراً من بعد ذلك.

واكتشفت أننى حامل. وأخبرته لكى يتصرف، وكتب ورقة وقال إنها عقد زواج عرفى، ووقعها أمامى، وأعطاها لى، ثم ذهبت معه فى السر عند إحدى (الدايات) وأجريت عملية إجهاض..

وقلت ربنا سترها، وقطعت العلاقة معه. لكنه يصر الآن بقوة على إعادتها من جديد.. ولست أدرى ماذا أفعل؟

الرسالة الرابعة

أنا من قرية عند الحوامدية بالجيزة وقد اشتهر أهالى هذه القرى بأنهم يزوجون بناتهم مقابل مبلغ مالى كبير يدفعه أى رجل من الخليج..

وأبى رجل على قد حاله. بائع سريح. ونحن أربع بنات، كل واحدة منا أجمل من الأخرى، وبدأ سماسرة الزواج يطرقون باب أبى.. ويتحدثون عن آلاف الجنيهات التى سوف يحصل عليها من وراء زواجنا.. وأننا نمثل له ثروة كبيرة لو أحسن استغلالها..

وتزوجت شقيقتى الكبرى (سعاد) فى الخليج، ثم عادت بعد سنة ومعها طفل رضيع. وتزوجت الأخت الثانية (منال) من خليجى أيضا ولكنه أبقاها فى مصر لزوم رغباته ونزواته، وكتب ورقة وعليها توقيع شهود. وقالوا لنا إن هذا هو زواج (المسيار)، وكانت أول مرة أسمع به، وهى زوجته شرعا كلما قدم إلى مصر للزيارة.

واطمأن أبى بعد أن حصل على أموال كثيرة واشترى بيتاً صغيراً، وكبرت أحلامه وهو يرانى أمامه أتفتح زهرة جميلة، وكما يقول دائما (أحلى إخوتى البنات، ولابد أن يندفع فىَّ فلوس كثيرة.. تقلى ذهب)..

وجاء من يدفع، ويشيل الشيلة، ويقطف الزهرة الصغيرة. وكان عمره ستون عاما، وأنا مازلت بنت أربعة عشر عاما، وبسرعة تطوع الكثير لعمل شهادة تسنين، وأصبح عمرى سبعة عشر عاماً.

وتزوجت منه. واشترى لى شقة فى المهندسين، واكتشفت أيضا أنه تزوجنى كما فعلت شقيقتى من قبل (زواج المسيار).. وأصبحت تحت طلبه متى قدم وأراد، وقالوا لى إنه زواج شرعى وحلال.. فهل هذا صحيح؟.

الرسالة الخامسة

من نورهان. ش. مدينة نصر. تقول فيها:

عشت كما تحلم أى فتاة فى مثل سنى أن تعيش، أسرة كبيرة عريقة، وفيلا رائعة، وسيارة أحدث موديل، وخدم وحشم، وموبايل، وسفريات إلى أوربا كل سنة.

باختصار يمكن أن أقول بأننى الحلم الحقيقى الذى تتمنى كل فتاة أن تكونه.

والدى صاحب شركة سياحة، وصاحب رحلات إلى كل بلاد الدنيا، وله معارف وأصدقاء فى كل مكان على سطح الكرة الأرضية.

وأمى سيدة أعمال. تعرف كل من هب ودب. ولها علاقات لا تحصى ولا تعد. وأحيانا ما كنت أراها بين يدى رجل ممن تقول عنهم (رجال الأعمال) وكان يقبلها، ولكنها كانت تقول لى إن هذه هى طريقة حياة رجال الأعمال، وليس فيها أى عيب، وتضرب مثلا بممثلى السينما عندما يتبادلون القبلات والأحضان والعناق، حتى فى حجرات النوم. لكن كل شىء عادى، ومجرد تمثيل.

ومن خيبتى وسذاجتى، كنت أصدقها، حتى كبرت ووعيت، وعرفت الدنيا، وخبرت العلاقات الأخوية، والعلاقات القوية، والعلاقات داخل غرف النوم.

ولكن أمى لم تدرك ذلك، ولم تعرف أننى كبرت ونضجت وأصبحت امرأة، لها رغبات، وأحلام، وطموح.

وأبى كان مشغولا بجمع المال، والسفر فى رحلات، وإحضار أفواج سياحية، وإقامة الحفلات الراقصة فى الفيلا، وكانت أمى تشاركه، وتراقص

المدعوين، وهو يضحك فى سعادة ورضاء، وكأن ذلك جزء من العمل وتتميته. ولم أشهد يوما والدى يعترض على ما تقوم به أمى، أو حتى يلومها، أو يوجه لها كلمة نقد، أو يصحح لها مفهوم علاقة العمل وحدودها التى من المفروض الا تتجاوزها أبدا.

بصراحة البيت أو الفيلا كانت هيصة، وطبيخ ـ كما يقولون وكما عرفت بعد ذلك عندما كبرت ونضجت ـ وشعرت بأن هناك من يحوم حولى من ضيوف والدى.. وكان هو سعيدا وفرحانا وهو يراهم يتقربون منى، ويتعمدون إمساك خدى فى لذة.

وكنت أنفر من كل ذلك وأفر بعيدة مذعورة، والغريب أن نظرات والدى، وكلمات أمى، كانت تدفعنى دفعا إلى مجاراتهم..

وذات يوم سمعت والدتى تقول لرجل فى أذنه ضاحكة ضحكة ذات معنى.

دى لسه قفل، لسه صغيرة، حرام عليك، استنى عليها شوية لما تطيب.

وعرفت أن الكلام على، وأننى المقصودة بالحديث، بعد أن وقعت عينى فى عينى أمى، وعين الرجل الواقف معها فى التصاق شديد.

وجريت بعيداً إلى حجرتى، وأخذت أبكى بكاءً شديدا. وتذكرت الفنانة فاتن حمامة عندما كانت تمثل أحد الأفلام ربما يكون فيلم (لا أنام) فلست أذكر اسمه. وكانت أمها الفنانة زوزو ماضى وكانت تدير بيتا سىء السمعة، وللعب القمار.

وأصررت أن أكون مثل فاتن حمامة، وأن أكون قوية الشخصية، وأن أواجه الموقف بشجاعة، والا أرضخ لرغبات أبى ونزوات أمى.

وذات يوم، جاءنا شاب، كان وسيما، طويلا، أسمر البشرة، أسود الشعر، له شارب كثيف وكبير بشكل ملحوظ مما أثار انتباهى، وأخذت أنظر إليه.

ولاحظ هو ذلك وسألنى عن والدى، فأخبرته أنه فى الشركة وسوف

يعود بعد لحظات، وطلبت منه أن ينتظره.

وفى الواقع أننى كذبت عليه. فقد كان والدى مسافرا إلى شرم الشيخ مع فوج سياحى وإنهاء بعض الأعمال هناك. وكانت أمى فى مكان لا أعرفه وربما كان والدى أيضا لا يعرفه.

فقد جذبنى خالد إليه (وهذا اسمه)، وأخذنا نتحدث فى أشياء كثيرة، وكان سريع البديهة، حاضر النكتة، له مذاق خاص غير مذاق الرجال الذين يجرون وراء أمى.

وأصبحنا أصدقاء. ثم رفقاء. ثم عشاق. وتزوجنا عرفيا. كتبنا ورقة، وشهد عليها بعض أصدقائه، وعشت حياتى معه بالطول والعرض.

وكان خبيرا فى كل شىء، وخاصة أمور النساء والعلاقات الزوجية.

وكان متزوجا وعنده ثلاثة أبناء. ولم أعترض على ذلك. بل اتخذت منه وسيلة للترغيب فيه. لأنه صاحب تجربة سابقة طويلة ومستقرة ومستمرة.

وكان لنا شقة خاصة فى أحد أحياء مصر الجديدة.

ووضعت فى هذه الشقة كل أحلامى وآمالى فى بيت زوجى سعيد. حتى كان يوم. دخلت فيه علينا زوجته بعد أن علمت بالعلاقة.

وأطلعتها على ورقة الزواج العرفى، ولكنها مزقتها وألقتها من النافذة، وهى تصرخ بألفاظ خارجة، وشتائم كثيرة مهينة.

وانقطعت العلاقة. واكتشفت أننى حامل فى الشهر الرابع، ذهبت إلى الأطباء لعمل عملية إجهاض، لكنهم رفضوا بحجة أن الجنين أصبح متكاملا.

ولست أدرى ماذا أفعل الآن. وخاصة أن زوجته قد مزقت ورقة الزواج العرفى وألقت بها من النافذة.

ولم أعد أملك شيئاً، سوى هذا الجنين فى بطنى، وأمى وأبى مشغولان عنى بأعمالهما وأصدقائهما.

وخالد تركنى ولم أعد أراه. وبصراحة أصبح يتهرب منى، ومن زواجه العرفى بى، ومن ابنه الذى فى أحشائى..

ولست أدرى ماذا أفعل الآن.

الرسالة السادسة

أنا امرأة مسيحية، عانيت طوال حياتى من مشكلة الزواج، ومازالت حتى اليوم، وسوف تستمر حتى نهاية العمر، حيث لا أستطيع الفكاك من تعاليم الكنيسة، بأن زواجنا أبدى وأن ما جمعه الرب لا يفرقه إنسان، رغم أن الكراهية بينى وبين زوجى تصل إلى درجة (ضرب النار) أو القتل، أو استحالة العشرة والمعاشرة مهما كان.

ورأينا أنه من الأفضل لنا أن يعيش كل حسب هواه، وحسب (راحته)، وكان هذا شبه اتفاق مبدئى مع زوجى. فهو لا يستطيع الخلاص منى، ولا أنا أستطيع الخلاص منه. كل منا - حسب تعليمات الكنيسة - مشدود إلى الآخر، ومربوط به حتى نهاية العمر.

اسمى «چاك» أو هكذا ينادينى الأهل والأصدقاء، وهو بالطبع ليس اسمى الحقيقى، لأننى بصراحة لن أقوله حتى لا ينكشف أمرى، إن رويت قصتى.

والاسم الحقيقى لا يهم، وأنا أعمل صيدلانية وعمرى ٤٩ سنة، أمضيت أكثر من ١٥ سنة منها فى المحاكم أملا فى أن أحصل على الطلاق وموافقة الكنيسة، وأن أستأنف حياتى، وأبدأها من جديد مع إنسان أحبه، وأحترمه، وأعطيه نفسى وحياتى عن طيب قلب.

وأنا لم أحبه، وكنت أحب شابا آخر، ولكن أهلى اعترضوا عليه لأنه كان من أصحاب المؤهلات المتوسطة، أما أنا فصيدلانية، وكيف لصيدلانية

أن تتزوج دبلوم تجارة، ولم يعلم أهلى أن صاحب الدبلوم تجارة كانت له شخصية، وإرادة، وكان صاحب ثقافة وكرامة أكثر ألف مرة من هذا الطبيب البشرى الذى تقدم لخطبتى ثم الزواج منى.

ووقف الأهل جداراً منيعا بينى وبينه. ورضيت بالأمر الواقع، وكذلك هو. فقد شعرنا أنه لا فائدة من المحاولات واستمرارها، بعد أن انتهت كلها إلى طريق مسدود.

وتزوج هو من إنسانة أخرى. وتزوجت أنا من الدكتور بطرس ـ وهذا اسم أيضا غير حقيقى ـ ومنذ الأيام الأولى للزواج، ومن كلماته وأسلوب حياته، أدركت أننى وقعت فى شر أعمالى، وأن مستقبلى فى الزواج على كف عفريت..

وانتظرت سنوات على أمل انصلاح حاله، ولكن دون جدوى. فقد كان بخيلاً إلى درجة الغثيان، حتى ولو على نفسه، ملابسه قذرة، ولا يشترى أى شىء، إلا إذا قميصه مثلا (داب وانهرى) وأصبح لا يصلح لأى شىء..

ولا يعرف معنى لتقديم الهدايا فى المناسبات، أو زيارة الأصدقاء، أو مجاملتهم فى الأفراح والمناسبات السعيدة. وحتى لا يعرف كيف يجامل زوجته، ويقدم لها هدايا فى المناسبات، كأعياد الميلاد، وعيد الزواج. وأعيادنا المسيحية.

باختصار شديد جداً كان (جلدة)، وبدأت مع الأيام أكرهه، وترسب كرهه فى نفسى رويدا رويدا ومع كل يوم، حتى تكلس فى القلب والنفس، ولم يعد هناك من يستطيع أن يجرى له تفتيت وإذابة.

واتفقنا ـ أخيرا ـ على الانفصال، ولكن الكنيسة رفضت، فلا توجد هناك أسباب توجب الطلاق، فليس هناك جريمة زنا أو مرض العنة يمنعه من الزواج، وكل شىء طبيعى من ناحية المظهر. ولكن الجوهر، لا أحد يدرى به، نار مستعرة داخل نفس كل منا تجاه الآخر. فقد أصبح هو الآخر يكرهنى بقدر كرهى له. وكما يقولون الحب يعدى، والكره أيضا.

وعندما يئسنا من الانفصال والحصول على طلاق رسمى من الكنيسة، وأن يستأنف كل منا حياته من جديد مع إنسان آخر، تركنى وسافر إلى أمريكا كى يعيش حياته هناك بلا قيود أو ارتباطات. والمهم أنه يشبع كل رغباته دون معارضة أو اعتراض من أحد. ودون أن يسمع أن هذا حرام وممنوع وأن الرب سوف يعاقبه عقابا شديدا.

وتبينت أن عمرى يضيع منى، ويتسرب من بين يدى، ومضت الآن سنوات على سفر زوجى دون خبر عنه.

وبقيت أنا وحيدة، فقد وجد هو لنفسه مخرجاً، أما أنا فماذا أفعل، فكرت أكثر من مرة فى الهجرة كى أجد حياتى أنا أيضا أو أن أعيش حياتى هناك بالطول والعرض.

وقد سألت أحد رجال الدين عن حالتى وزوجى الذى تركنى وتزوج ويعيش حياته فى أمريكا.

فقال إن قوانين الكنيسة تسمح أن يعطى الطلاق للطرف المتضرر بعلة الزنا، إلا أن الكنيسة وهى لا تقطع الأمل فى عودة أمثال زوجى من الخارج بالتوبة، ومن ثم علىَّ تقبل الأمر الواقع وانتظار أمل عودته - وهو لن يعود قطعاً - وأنا أصلى وأصوم وأبكى وأتضرع أمام الله لأجل خلاص هذا الإنسان وتوبته، لأن من رد خاطئاً عن ضلال طريقه يخلص نفساً من الموت، ويستر كثرة من الخطايا، فإن لم يتب هلك، أما الطرف الآخر فقد احتمل صليبه بشكر وسوف يعوضه الله بأسلوب آخر لأنه قادر أن يخرج من الجافى حلاوة.

ومن هذا يتبين أنه لا حل أمامى على الإطلاق سوى الصبر والصلاة.. أضيع عمرى كله فى الدعاء أن يعود إلى، ويترك كل شىء فى أمريكا.

وأنا غير مقتنعة بهذا العمل. وأعتبره جنوناً، ويكفى أننى حرمت نفسى طويلاً من حقى فى حياة زوجية، وإشباع رغبة جنسية تعيش فى أعماقى من

سنوات طويلة.

والآن عمرى قارب من ٤٩ سنة، وفقدت الأمل فى الأولاد طبعاً، بعد أن فقدت الأمل فى عودة زوجى الهارب.

واخترت حلاً مريحاً.

كان هناك محاسب يتودد إلى، ويظهر لى الإعجاب الشديد. وتزوجنا عرفياً بورقة وشهود من الأصدقاء، وبدأت أمارس حياتى الزوجية، وأعوض كل سنوات عمرى التى ضاعت هباءً، وبدأت أندم عليها وعلى أننى لم أهتد إلى هذا الحل من سنوات إلى أن نجد حلا يرضينا جميعاً نحن النساء المسيحيات.

ومع ما حدث للفنانة (هالة صدقى) ورغم حصولها على حكم طلاق، لكن الكنيسة رفضت الاعتراف به، وبذلك ظلت كما هى فى حالة (وقف) لا متزوجة ولا مطلقة. أحمد الله كثيراً أننى فعلت ذلك وتزوجت عرفيّاً باختيارى وإرادتى وبمعرفة بعض الشهود وهذا يكفى للإعلان والإشهار.

وربما يحمل لنا المستقبل حلولاً جديدة من الكنيسة تريح مئات من الزوجات المسيحيات واللاتى لا يجدن حلولاً لمشاكلهن مع أزواجهن، إلا بتمنى الموت.

* * *

سابعاً ـ زوجات.. خائنات

زوجات خائنات

تعد امرأة نوح وامرأة لوط مثالاً للمرأة والزوجة الخائنة، التى لم تراع حق زوجها عليها، وحق بيتها عليها، وحق الأيام والساعات التى أمضاها زوجها معها.

كما لم تقدر ما بذله من تعب وسغب وشقاء لكى يوفر لها الراحة والهناء، والبيت الآمن، والسكن المريح، والمأوى التى تأوى إليه من غائلة الأيام، ومحن الزمن، فتنسى فيه همومها وأحزانها وآلامها، وتجد فيه صدراً حنوناً، وقلباً عطوفاً، ويداً حانية، تحميها من شرور الآخرين.

(كانت خيانتاهما لهما فى دينهما وليس فى شرفهما) فلم تخن امرأة نبى زوجها فى نفسها فقط.

فإذا كانت هذه الزوجة، امرأة نبى مرسل برسالة إلى قومه، يحمل أمانة الكلمة، وأمانة الرسالة، ومسئولية التبليغ والدعوة إلى الناس كافة بعبادة إله واحد فقط لا إله إلا هو، وما عداه باطل فى باطل.

هنا تكمن المشقة، وتكون المسئولية.

فإذا كان زوجها النبى تقع عليه هموم ومتاعب ومشاق الدعوة لأناس انغمسوا فى اللذات والمنكر والخمر وعبادة الأوثان، وتعدد الآلهة، لكى يتركوا كل هذا ويتجهوا جميعاً إلى عبادة إله واحد فقط، ثم ترك المحرمات والآثام التى يرتكبونها، ولم يسبقهم إليها أحد من العالمين، من معاشرة للرجال وفعل

اللواط، واتخاذ الشذوذ الجنسى مبدءاً ومذهباً، وديناً جديداً.

فإن ذلك كله لاشك يشكل عبئاً ثقيلاً على الزوج ويصبح فى حاجة ماسة إلى مساندة ودعم زوجته له لكى تقف بجانبه وتخفف عنه آلامه.

يقول عز وجل:

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾ (سورة التحريم: ١٠).

(١) امرأة نوح

كانت الزوجة الخائنة الأولى هى زوجة نوح عليه السلام. فهى لم تؤمن برسالته، ولا بدعوته إلى عبادة الله، وانفضت من حوله هى وأحد أولادها، وتركاه يعمل سنوات طويلة فى بناء السفينة التى سيقل فيها من آمن به، وكانوا قلة قليلة.

وكانت الأم وابنها يضحكان مع الضاحكين عليه الساخرين مما يفعل ويعمل. ويقولان فى استهتار شديد:

نوح يبنى سفينة فى الصحراء، ستبحر فى الرمال.

وهو صامت صامد، لم تضعفه كلمات القوم، وإن كانت قد آلمته أكثر كلمات ابنه وزوجه. وكان يأمل أن يكونا أول من يقدم له المساعدة والعون، ويشد عضده وقت المحنة والشدة. ويكونا عوناً له فى مواجهة الآخرين، كما يجب أن يكون عليه الابن والزوج.

ولكنه كان كما أخبره الله عز وجل (عمل غير صالح)، فغرقت الزوجة عندما فار التنور مع من غرق من الكفار وصعد الابن إلى قمة جبل كى يتحصن به ويأويه من اندفاع المياه، ولكن الطوفان أخذه أيضاً ومات غرقاً.

ورغم دعوات نوح إلى الله عز وجل أن ينجيه من الموت، لكنه كان عملاً غير صالح، أخذ جزاءه، واستحق ما حدث له، بعد أن أعرض مع أمه عن دعوة أبيه الصالحة لهما، بأن يتركا عبادة الأصنام، ويتجها إلى عبادة الله الواحد الأحد.

فكان جزاؤهما الموت غرقاً مع الكافرين. يقول تعالى:

﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾ (سورة الممتحنة: ٣).

وكان الله عز وجل قد بعث نوحا إلى قوم انتشرت بينهم عبادة الأوثان، وانتشر البغاء بينهم، لكى يصلح من حالهم.

وكان قد مضى على وفاة آدم ﷺ مائة وست وعشرون سنة (١٢٦ سنة) كما قال ابن جرير الطبرى.

وكانت الأصنام لرجال صالحين ظهروا فى الفترة بين موت آدم وظهور نوح عليهما السلام. وكان لهم أتباع يقتدون بهم. فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم:

لو صورناهم. كان أشوق إلى العبادة إذا ذكرناهم.

فصوروهم. فلما ماتوا، وجاء آخرون دب إليهم إبليس فقال: إنما كانوا يعبدونهم، وبهم يسقون المطر.

فعبدوهم.

وكانت أسماء هؤلاء: ود ـ سواع ـ يغوث ـ يعوق ـ نَسرا.

وروى البخارى عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس فى تفسير قول الله عز وجل.

﴿وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾

إن هذه الأسماء كانت لرجال صالحين من قوم نوح. فلما هلكوا، أوحى

الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التى كانوا يجلسون فيها أنصابا وسموها بأسمائهم.

ففعلوا. فلم تعبد. حتى إذا هلك أولئك وانتسخ العلم، عبدت.

وقال ابن عباس: وصارت هذه الأوثان التى كانت فى قوم نوح فى العرب بعدُ.

وروى ابن أبى حاتم عن عروة بن الزبير أنه قال: ود ويغوث ويعوق وسواع ونسر. أولاد آدم. وكان (ود) أكبرهم وأبرهم.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أحمد بن منصور، حدثنا الحسن بن موسى، حدثنا يعقوب عن أبى المطهر، قال: ذكروا عند أبى جعفر ـ الباقر ـ وهو قائم يصلى يزيد بن المهلب، قال: فلما انفتل من صلاته قال: ذكرتم يزيد بن المهلب، أما إنه قتل فى أول أرض عبد فيها غير الله تعالى. قال: ذكر ودا وقال: كان رجلا صالحاً، وكان محبباً فى قومه، فلما مات، عكفوا حول قبره فى أرض بابل وجزعوا عليه، فلما رأى إبليس جزعهم عليه تشبه فى صورة إنسان، ثم قال: إنى أرى جزعكم على هذا الرجل، فهل لكم أن أصور لكم مثله فيكون فى ناديكم فتذكرونه به؟. قالوا: نعم. فصور لهم مثله، قال: فوضعوه فى ناديهم، وجعلوا يذكرونه به. قال: وأدرك أبناؤهم فجعلوا يرون ما يصنعون به. قال: وتناسلوا ودرس أمر ذكرهم إياه حتى اتخذوه إلها يعبدونه من دون الله، أولاد أولادهم.

فكان أول من عبد غير الله (ود) الصنم الذى سموه ودا.

وبعث الله عز وجل إليهم نوحاً لكى يخلصهم من عبادة الأوثان والأصنام، ويتوجه بهم إلى عبادة الله خالق السماوات والأرض.

ولكنهم اتهموه بالضلالة. فقال لهم: ﴿يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا

تَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف: ٦١ : ٦٢)

فلم يستمعوا له. وقالوا: لم يتبعك إلا الأرزلون.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلاَّ فِرَارًا...﴾ ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا﴾.

ومن شدة كفرهم. كانوا يوصون أولادهم وأحفادهم بعدم تصديقه، أو الإيمان بدعوته.

وطال الجدل بينهم كما قال تعالى:

﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾

وهذه مدة طويلة لدعوة نبى. فأمره الله أن يصنع الفلك لتحمل الذين آمنوا به. وما آمن به إلا قليل.

ويقول علماء السلف: إن الله أمر نوحا أولا بزراعة شجر ليصنع منه السفينة، وانتظر مائة سنة حتى كبر، وأصبح صالحا للصناعة، ثم أعده فى مائة سنة، وقيل بل فى أربعين سنة.

ويقول محمد بن إسحاق الثورى: كانت السفينة من خشب الساج. وقيل من الصنوبر.

وقال قتادة: كان طولها ثلاثمائة ذراع فى عرض خمسين ذراعا.

وقال الحسن البصرى: ستمائة فى عرض ثلاثمائة. وقال ابن عباس: ألف ومائتا ذراع فى عرض ستمائة ذراع. وقال البعض: كان طولها ألفى ذراع وعرضها مائة ذراع.

وأجمع العلماء على أن ارتفاعها كان ثلاثين ذراعاً. وكانت ثلاث طبقات، كل واحدة عشرة أذرع. الطبقة الأولى للدواب والوحوش، والوسطى للناس،

والعليا للطيور. وكان بابها فى عرضها، ولها غطاء من فوق مطبق عليها.

وتصف التوراة فى سفر التكوين غضب الله على الإنسان، وانتشار الشر فى أيام نوح، فأمره أن يصنع الفلك، لينقذ به المؤمنين.

تقول التوراة (العهد القديم) فى الإصحاح السادس:

ورأى الرب أن شر الإنسان قد كثر فى الأرض، وأن كل تصور أفكار قلبه إنما هو شرير كل يوم. فحزن الرب أنه عمل الإنسان فى الأرض. وتأسف قلبه. فقال الرب: أمحو عن وجه الأرض الإنسان الذى خلقته. فقال الله لنوح: نهاية كل بشر قد أتت أمامى. لأن الأرض امتلأت ظلما منهم. فها أنا مهلكهم مع الأرض. اصنع لنفسك فلكا من خشب جُفْر. تجعل الفلك مساكن، وتطليه من داخل ومن خارج بالقار.

وهكذا تصنعه. ثلاثمائة ذراع طول الفلك وخمسين ذراعا عرضه وثلاثين ذراعا ارتفاعه. وتصنع كوا للفلك، وتكمله إلى حد ذراع من فوق. وتصنع باب الفلك فى جانبه. مساكن سفلية ومتوسطة وعلوية تجعله. فها أنا آت بطوفان الماء على الأرض لأهلك كل جسد فيه روح حياة من تحت السماء. كل ما فى الأرض يموت.

وقال الرب لنوح: ادخل أنت وجميع بيتك إلى الفلك لأنى إياك رأيت بارّاً لدى فى هذا الجيل. من جميع البهائم الطاهرة تأخذ معك سبعة سبعة ذكرا وأنثى. ومن البهائم التى ليست بطاهرة اثنين، ذكرا وأنثى. ومن طيور السماء أيضا سبعة سبعة ذكرا وأنثى، لاستبقاء نسل على وجه كل الأرض. لأنى بعد سبعة أيام أيضا أمطر على الأرض أربعين يوما وأربعين ليلة، وأمحو عن وجه الأرض كل قائم عملته.

هذا قول التوراة التى بأيديهم ولا نصدق قولهم إلا إذا وافق القرآن ولا نكذب كما أمرنا رسول الله ﷺ إلا ما خالف القرآن.

وفى القرآن الكريم أمر الله نوحا أن يأخذ معه من كل زوجين اثنين. يقول سبحانه وتعالى:

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ (هود: ٤٠)

واختلف العلماء والمفسرون فى عدد من كان على السفينة. قال كعب الأحبار: كان عددهم اثنين وسبعين نفسا. وقال ابن عباس: كانوا ثمانين نفسا معهم نساؤهم. وقيل: إن عددهم كان عشرة. وقال آخرون: إن عددهم كان أقل من ذلك بكثير. كانوا: نوحا وبنيه الثلاثة حام وسام ويافث. أما ابنه الرابع (يام) فقد غرق مع الطوفان، مع زوجاتهم بما فيهن زوجة (يام) والتى آمنت وأسلمت. وهذا القول مخالف لما جاء فى القرآن الكريم: ﴿وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الشعراء: ١١٨) بما يؤكد أنه كان معه عدد من المؤمنين غير أهله وبنيه، وإن كان عددهم قليلا ﴿ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ (هود: ٤٠).

وفتحت أبواب السماء، فانهمر الماء، وتفجرت من الأرض عيون، فالتقى الماء على أمر قد قدر.

واستوى نوح والمؤمنون معه داخل السفينة.

وقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (المؤمنون: ٢٨) ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ (الزخرف: ١٣). ﴿وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ (الزخرف: ١٣). ﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِيهَا وَمُرْسَاهَا ﴾ (هود: ٤١)

وسارت السفينة فى موج كالجبال. قيل إن ارتفاعه كان خمسة عشر ذراعا، وقيل ثمانين ذراعا. وروى الطبرى فى تاريخه عن ابن جرير وغيره: أن الطوفان كان فى ثالث عشر من شهر آب فى حساب القبط.

وانفطر قلب نوح على ابنه (يام) وهو يراه حائرا يبحث عن مكان يعصمه من الماء، وخاف أن يفقده كما فقد أمه التى رفضت اتباع دعوته إلى

عبادة الله وحده وتمسكت بعبادة الأصنام، وما كان عليه أهلها من قبل، فغرقت فى الطوفان، وضاعت إلى الأبد، وأصبحت من الكافرين مثواها جهنم وبئس المصير.

ونادى نوح على ابنه (يام) وكان فى معزل:

يا بنى اركب معنا ولا تكن من الكافرين.

فرفض الابن دعوة أبيه، ونداء قلبه وعقله ووجدانه، وقال فى ثقة كبيرة:

﴿سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾ (هود: ٤٣)

فحزن نوح حزنا شديدا، وهو يرى ابنه مازال سادراً فى غيه وكفره، وقال له:

﴿لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ﴾ (هود: ٤٣)

لكنه لم يستمع إلى قول أبيه، وإلى صوته الممتلئ بالأحزان والألم، وهو يعرف أن ابنه هالك لا محالة.

وفرق الموج بينهما. فكان من المغرقين.

واختلف العلماء فى أمر زوجة نوح، هل ماتت قبل الطوفان، أم بعده.

قال بعض المؤرخين: ماتت قبل الطوفان. وقال أكثرهم بل غرقت مع من غرق من الكافرين لأنها كانت كافرة ولم تؤمن بدعوة زوجها إلى عبادة الله الواحد الأحد.

يقول تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾ (التحريم: ١٠).

واختلف العلماء فى موعد ركوب السفينة والمدة التى أمضتها حتى استوت على الجودى.

قال قتادة وغيره: ركبوا السفينة فى العاشر من شهر رجب، فساروا مائة وخمسين يوما، واستقرت بهم على الجودى شهرا. وكان خروجهم من السفينة فى يوم عاشوراء من المحرم.

وقال ابن جرير: إنهم صاموا يومهم هذا شكرا لله.

وقال الإمام أحمد عن أبى هريرة قال: مر النبى ﷺ بأناس من اليهود، وقد صاموا يوم عاشوراء. فقال: ما هذا الصوم؟. فقالوا: هذا اليوم نجى الله فيه موسى وبنى إسرائيل من الغرق. وغرق فيه فرعون. وهذا اليوم استوت فيه السفينة (سفينة نوح) على الجودى. فصامه نوح وموسى عليهما السلام شكرا لله عز وجل.

فقال النبى ﷺ: أنا أحق بموسى، وأحق بصوم هذا اليوم. فأمر أصحابه بالصوم. وقال لأصحابه: من كان منكم أصبح صائماً فليتم صومه. ومن كان منكم قد أصاب من أهله فليتم بقية يومه.

وذكر الإمام جعفر بن جرير الطبرى، عن على بن زيد، عن جدعان، عن يوسف بن مهران، عن ابن عباس أنه قال: قال الحواريون لعيسى ابن مريم: لو بعثت لنا رجلا شهد السفينة فحدثنا عنها. قال: فانطلق بهم حتى أتى كثيب تراب. فأخذ كفا من ذلك التراب بكفه، وقال أتدرون ما هذا؟. قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: هذا كعب بن حام بن نوح. قال: وضرب الكثيب بعصاه وقال: قم بإذن الله. فإذا هو قائم ينفض التراب عن رأسه، وقد شاب، فقال له عيسى ﷺ: هكذا هلكت؟. قال: لا. ولكنى مت وأنا شاب، ولكنى ظننت أنها الساعة فمن ثَم شبت.

قال: حدثنا عن سفينة نوح. قال: كان طولها ألف ذراع ومائتى ذراع، وعرضها ستمائة ذراع. وكانت ثلاثة طوابق. طبقة فيها الدواب والوحوش. وطبقة فيها الإنس. وطبقة فيها الطير،

فلما كثر أرواث الدواب. أوحى الله عز وجل إلى نوح ﷺ أن اغمز

ذنب الفيل. فغمزه. فوقع منه خنزير وخنزيرة. فأقبلا على الروث. ولما وقع الفأر يخرز السفينة بقرضه. أوحى الله عز وجل إلى نوح عليه السلام، أن اضرب بين عينى الأسد. فخرج من منخره سنور وسنورة فأقبلا على الفأر.

فقال له عيسى: كيف علم نوح عليه السلام أن البلاد قد غرقت؟. قال: بعث الغراب يأتيه بالخبر فوجد جيفة، فوقع عليها. فدعا عليه بالخوف. فلذلك لا يألف البيوت. قال: ثم بعث الحمامة فجاءت بورق زيتون بمنقارها، وطين برجلها. فعلم أن البلاد قد غرقت. فطوقها الخضرة التى فى عنقها. ودعا لها أن تكون فى أنس وأمان. فمن ثم تألف البيوت.

قال: فقال له: عد بإذن الله. فعاد ترابا. والله أعلم.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا عبدالله بن صالح، حدثنى الليث، حدثنى هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم، عن أبيه: أن رسول الله ﷺ قال: «لما حمل نوح فى السفينة من كل زوجين اثنين. قال أصحابه: وكيف نطمئن؟. أو كيف تطمئن المواشى ومعنا الأسد؟. فسلط الله عليه الحمى، فكانت أول حمى نزلت فى الأرض. ثم شكوا الفأرة، فقالوا: الفويسقة (الفأرة) تفسد علينا طعامنا ومتاعنا. فأوحى الله إلى الأسد فعطس فخرجت الهرة منه، فتخبأت الفأرة منها».

ويقول ابن عباس: إن أول ما دخل السفينة من الطيور الدُّرة (الببغاء) وآخر ما دخل من الحيوانات الحمار، ودخل إبليس متعلقا بذنبه والله تعالى أعلم.

واستجاب الله لدعوة نبيه نوح عليه السلام: ﴿رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا﴾

وغرقوا جميعا بما فيهم زوجه وابنه. وأخبره ربه ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن

مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (هود: ٤٧).

ويقول أبو جعفر بن جرير وأبو محمد بن أبى حاتم فى تفسيريهما من طريق يعقوب بن محمد الزهرى، عن قائد مولى عبدالله بن أبى رافع، أن إبراهيم بن عبد الرحمن بن أبى ربيعة أخبره أن عائشة أم المؤمنين، أخبرته أن رسول الله ﷺ قال:

«فلو رحم الله من قوم نوح أحدا لرحم أم الصبى»

قال رسول الله ﷺ: «مكث نوح عليه السلام فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاما، وغرس مائة سنة الشجر، فعظمت وذهبت كل مذهب، ثم قطعها، ثم جعلها سفينة، ويمرون عليه ويسخرون منه، ويقولون: تعمل سفينة فى البر!! كيف تجرى؟

قال: سوف تعلمون.

فلما فرغ ونبع الماء، وصار فى السكك، خشيت أم الصبى عليه، وكانت تحبه حبا شديدا. فخرجت به إلى الجبل، حتى بلغت ثلثه، فلما بلغها الماء، خرجت به حتى استوت على الجبل، فلما بلغ الماء رقبتها، رفعته بيدها، فغرقا.

فلو رحم الله منهم أحدا لرحم أم الصبى.

واستوت السفينة على الجودى. وهبط منها نوح وأهله والمؤمنون معه بسلام وبركات من الله.

وورثت ذرية نوح الأرض. ولم يجعل الله عز وجل لمن معه من المؤمنين نسلا ولا عقبا.

قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾.

وكأنه سبحانه وتعالى أراد أن يعمر الأرض بنسل جديد من المؤمنين، يؤمن بالله الواحد الأحد، خالق الأرض والسماوات، فالق الحب والنوى.

لتتطهر الأرض مما كانت عليها من أوثان قبل نوح عليه السلام.

فكان ميلاد جديد للإنسان على الأرض من نسل نوح.

ويروى ابن سعد فى الطبقات الكبرى، ويروى الطبرى فى تاريخه، حديثاً لإسماعيل بن عياش، عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب، أنه قال: ولد لنوح ثلاثة: سام ويافث وحام. وولد لكل واحد منهم ثلاثة. فولد سام العرب وفارس والروم. وولد يافث الترك والصقالبة ويأجوج ومأجوج. وولد حام: القبط والسودان والبربر.

وقيل إن نوحا عليه السلام لم يولد له هؤلاء الأولاد الثلاثة إلا بعد الطوفان. وإنما ولد له قبل السفينة يام (كنعان) الذى غرق، و(عابر) التى ماتت قبل الطوفان، أو غرقت معه وكانت كافرة.

وهذا قول غير صحيح لأن أولاده الثلاثة كانوا معه فى السفينة، وهذا ما جاء فى التوراة، وعليه المفسرون والمؤرخون.

وقدذكر أن (حاما) واقع امرأته فى السفينة فدعا عليه نوح أن تشوه خلقة نطفته. فولد له ولد أسود، وهو (كنعان) بن حام جد السودان. وقيل بل رأى أباه نائما وقد بدت عورته فلم يسترها وسترها أخواه. فدعا عليه أن تغير نطفته، وأن يكون أولاده عبيدا لإخوته.

وفى الإصحاح السابع من سفر التكوين من التوراة: «أن الله بارك نوحا وبنيه، وقال لهم: أثمروا وأكثروا واملأوا الأرض. ولتكن خشيتكم ورهبتكم على كل حيوانات الأرض، وكل طيور السماء.

وكان بنو نوح الذين خرجوا من الفلك، ساما، وحاما ويافث. وحام هو أبو كنعان.

هؤلاء الثلاثة هم بنو نوح. ومن هؤلاء تشعبت كل الأرض.

وابتدأ نوح يكون فلاحاً، وغرس كرما، وشرب من الخمر فسكر، وتعرى داخل خبائه. فأبصر حام أبو كنعان عورة أبيه، وأخبر أخويه خارجاً. فأخذ

سام ويافث الرداء، فلم يبصرا عورة أبيهما. فلما استيقظ نوح من خمره علم ما فعل به ابنه الصغير، فقال: ملعون كنعان. عبد العبيد يكون لإخوته. وقال: مبارك الرب إله سام، وليكن كنعان عبدا لهم. ليفتح الله ليافث فيسكن فى مساكن سام، وليكن كنعان عبدا لهم. والله أعلم.

وعاش نوح بعد الطوفان ثلاثمائة وخمسين سنة. فكانت كل أيام نوح تسعمائة وخمسين سنة. ومات.

ويروى الإمام أحمد عن سليمان بن حرب، عن حماد بن زيد، عن الصقعب بن زهير، عن زيد بن أسلم، عن عبدالله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: إن نبى الله نوحا عليه السلام لما حضرته الوفاة قال لابنه: إنى قاص عليك الوصية، آمرك باثنتين: آمرك بلا إله إلا الله، فإن السماوات السبع والأرضين السبع، كن حلقة مبهمة ضمتهن لا إله إلا الله، وبسبحان الله وبحمده. فإن بها صلاح كل شىء. وبها يرزق الخلق.

وأنهاك عن الشرك والكبر. قال: قلت: يا رسول الله هذا الشرك قد عرفناه، فما الكبر؟. أن يكون لأحدنا نعلان حسنتان لهما شراكان حسنان؟. قال: لا. قال: هو أن يكون لأحدنا حلة يلبسها؟. قال: لا. قال: هو أن يكون لأحدنا دابة يركبها؟. قال: لا. قال: هو أن يكون لأحدنا أصحاب يجلسون إليه؟ قال: لا.

قلت: يا رسول الله، فما الكبر؟

قال: سفه الحق وغمط الناس.

وروى الطبرانى عن عبد الله بن عمرو أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «صام نوح الدهر إلا يوم عيد الفطر والأضحى. وصام داود نصف الدهر. وصام إبراهيم ثلاثة أيام من كل شهر. صام الدهر وأفطر الدهر.

وقال بعض المؤرخين: إن قبر نوح عليه السلام فى بلدة بالبقاع تعرف اليوم

(كرك نوح) وقد بنى جامع فى هذه المنطقة تكريماً له.

ولكن ابن جرير والأزرقى يرويان عن عبد الرحمن بن سابط وبعض العلماء أن قبر نوح عليه السلام بالمسجد الحرام.

وأما زوجته فقد أصبحت مثلاً على مر الأيام للمرأة الخائنة والتى تذيع أسرار زوجها، وتفشى للناس كل ما يحدث فى بيتها، ولم تؤمن بدعوة نبى الله زوجها، فكان مصيرها نار جهنم مع أمثالها.

(٢) امرأة لوط

وكانت (والهة) امرأة لوط، هى الزوجة الثانية من زوجات الأنبياء والتى أشركت بالله، وكفرت بأنعمه، ولم تلب دعوة زوجها، ورجلها، نبى الله لوط إلى ترك المفاسد، وعبادة الأوثان، وعبادة الله وحده لا شريك له. وسخرت من زوجها، ومما يقوله لها ويدعوها إليه.

يقول عز وجل فى سورة التحريم:

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾ (الآية: ١٠).

وكانت زوجة لوط عليه السلام قد تآمرت عليه، ولم تحترم قدسية العلاقة الزوجية، وأسرار زوجها وبيتها، فكانت تبلغ قومها بكل ما يقوم به، أو يدعو إليه، وبكل ما يفعله. وكان القوم يسخرون منه ومما يقول، ومما يدعو إليه.

وكانوا يرتكبون المنكر فى ناديهم، ويأتون الرجال شهوة من دون النساء. وكان لوط ينهاهم عن فعل ذلك، لكنهم كانوا يرفضون ويسخرون منه ومن دعوته.

يقول تعالى: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ

الْمُنكَرَ﴾ (العنكبوت: ٢٩).

وقال تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ (الأعراف: ٨٠ ـ ٨٢).

وكان لوط ضعيفاً فى قومه، فلم يكن له رهط كثير يشدون من أزره، ويقفون معه ومن حوله إن حاول أحد منهم الاعتداء عليه. ولم يكن له ركن يلوذ إليه وقت الشدة.

ولهذا كان يقول دائماً عليه السلام: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ (هود: ٨٠).

ويقول أبو هريرة، إن رسول الله ﷺ قال: «رحمة الله على لوط. لقد كان يأوى إلى ركن شديد. (يعنى الله عز وجل) فما بعث الله بعده من نبى إلا فى ثروة من قومه».

وذات يوم قدم لزيارة لوط ثلاثة رجال فى جمال وكمال وحلاوة لم ترها عين من قبل قط. وكانوا ملائكة الله: جبريل وميكائيل وإسرافيل.

قدموا إلى لوط وقومه من أجل اختبارهم.

وسارعت زوجة لوط (والهة) أو (واعلة) كما قال بعض الرواة. وأخبرت قومها بالضيوف الجدد، وما هم عليه من جمال وكمال وشباب.

فسارعت إلى قومها لتطلب منهم التبكير بزيارة لوط قبل أن ينجح فى إخفاء ضيوفه.

فهرعوا إليه مسرعين، ليتبينوا الأمر، وصحة الكلام، وصدق ما وصفت. فإذا ما قالته حق وصدق، وربما أقل من الحقيقة بكثير.

وهجموا على بيت لوط يريدون ضيفه. وتترس لوط خلف باب بيته كى يحمى ضيفه. وعندما علم أنه أضعف من أن يواجههم، عرض عليهم بنات قومه ليتزوجوا بهن وقال: ﴿يَا قَوْمِ هَؤُلاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ (هود: ٧٨، ٧٩).

وعلم لوط أن القوم غالبوه على أمره. فتوجه إلى الله عز وجل يدعوه ويقول: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ (هود: ٨٠).

فأشفق عليه ضيفه من الملائكة، فبشروه بهلاك القوم فى الصباح، وطلبوا منه أن يخرج مع أهله بقطع من الليل ولا يلتفت منهم أحد إلى الوراء.

وقالوا: له: يا لوط إن ركنك لشديد، وإنهم آتيهم عذاب غير مردود، ولن يصلوا إليك أبداً.

ثم طلبوا منه أن يفتح باب بيته. فضربهم جبريل بجناحيه فى وجوههم، فطمس على أعينهم وأصابهم بالعمى. يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ﴾ (القمر: ٣٧).

ولم يعرف القوم طريق بيوتهم. وقالوا: إن عند لوط سحرة، لم نر مثلهم فى البلاد من قبل، ولسوف نأتيه فى الصباح بسحرة يفعلون به مثلما فعلوا بنا.

وأدرك لوط عليه السلام أن ضيفه ملائكة من عند الله، قدموا إليه لكى يهلكوا قومه لكفرهم وضلالهم ونفاقهم، وما يقومون به من مساوئ ومنكر.

فقال لهم: أهلكوهم الساعة.

فقال جبريل عليه السلام: إن موعدهم الصبح. أليس الصبح بقريب. وأمره أن يخرج وأهله بالليل، ويترك المدينة ولا ينظر أحد منهم وراءه.

ويقال إن جبريل عليه السلام اقتلع كل مدن لوط، وكانت سبعة، بما فيها من سكان وحيوانات، وارتفع بهم إلى عنان السماء، حتى سمعت الملائكة أصوات ديكتهم، ونباح كلابهم، ثم قلبها عليهم، وجعل عاليها سافلها.

يقول عز وجل: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ (هود: ٨٢، ٨٣).

وقال تعالى: ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (العنكبوت: ٣٤، ٣٥).

وكانت آية الله البينة ـ كما يقول ابن كثير ـ بحرة منتنة ميتة لا ينتفع بمائها، ولا بما حولها من الأراضى المتاخمة لفنائها لرداءتها، فصارت عبرة ومثلاً، وآية على قدرة الله عز وجل، وفى انتقامه ممن خالف أمره، وكذب رسله، واتبع هواه، وعصى مولاه.

وأما زوجة لوط، فقد خرجت مع زوجها وابنتيها، ولكنها لما سمعت الصيحة وسقوط البلدة، التفتت إلى قومها، وخالفت أمر ربها، وصاحت: واقوماه.

فسقط عليها حجر فدمغها، وألحقها بقومها، إذ كانت مازالت على دينهم، كافرة بأنعم الله، وكانت جاسوسة وعيناً لهم على كل ما يجرى داخل بيت نبى الله لوط، وتخبرهم به عن طريق إرسال إشارات من الدخان، لكى يعلموا أن هناك أمرا كبيرا سوف يحدث فى بيت لوط.

ويروى ابن كثير فى كتابه قصص الأنبياء: أنه لم يعد هناك أحد من قوم لوط إلا رجل بقى أربعين يوما، وكان بمكة، فجاءه حجر ليصيبه فى الحرم. فقام إليه ملائكة الحرم فقالوا للحجر: ارجع من حيث أتيت، فإن الرجل فى حرم الله.

فوقف الحجر مكانه خارج الحرم أربعين يوما بين السماء والأرض، حتى قضى الرجل حاجته، فلما خرج أصابه الحجر خارج الحرم فقتله. والله أعلم.

ونجا لوط ؛ ومعه ابنتاه. وصعدوا من (صوغر) وسكنوا الجبل ـ كما تقول التوراة ـ ولم يكن معهم أحد، وشعرت الابنتان أنهما فى حاجة إلى رجل مثل كل النساء.

كما تقول توراتهم التى كتبوها بأيدهم فتآمرتا على أبيهما.

جاء فى الأصحاح التاسع عشر من سفر التكوين من العهد القديم:

«قالت البكر للصغرى أبونا قد شاخ، وليس فى الأرض رجل ليدخل علينا كعادة أهل الأرض. هلم نسقى أبانا خمرا، ونضطجع معه، فنجئ من أبينا نسلاً.

فسقتا أباهما خمرا فى تلك الليلة. ودخلت البكر واضطجعت مع أبيها، ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها. وحدث فى الغد أن البكر قالت للصغرى: إنى قد اضطجعت البارحة مع أبى. نسقيه خمرا الليلة أيضا فادخلى واضطجعى معه. فنجئ من أبينا نسلا، فسقيا أباهما خمرا فى تلك الليلة أيضا.

وقامت الصغيرة واضطجعت معه. ولم يعلم باضجاعها ولا بقيامها. فحبلت ابنتا لوط من أبيهما. فولدت البكر ابنا ودعت اسمه (مواب) وهو أبو (المؤابين) إلى اليوم. والصغيرة أيضا ولدت ابنا دعت اسمه (بنى عمى) وهو أبو بنى عمون إلى اليوم. هذا قول اليهود لعنهم الله تعالى ما أكثر تقولهم على الأنبياء.

وفى هذه القصة، كما فى غيرها من بعض قصص الأنبياء فى كتاب العهد القديم، كثير من الخيال والإسرائيليات. فمن يصدق أن أنبياء الله ورسله يأتون مثل هذه الأعمال يزنون ويرتكبون المعاصى ويسرقون زوجات

الآخرين كما ذكروا بما حدث مع داود.

إن سرد هذه الإسرائيليات دليل قاطع على تحريف الكتاب المقدس. وكل ما يعنينا الآن هو الدرس الكبير الذى تلقته زوجة لوط لأنها خانت زوجها، ولم تحافظ على أسرار بيته، ولم تقف معه وبجواره وقت الشدة والدعوة إلى عبادة الواحد الأحد.

* * *

هل هى خيانة جنسية.. أم خيانة عقيدة

وقد اختلف المفسرون فى تفسير كلمة (خيانة) فى الآية الكريمة: (فخانتاهما) وقال البعض: هى خيانة الجسد والزنا. وقال آخرون بل هى خيانة فكرية.

وقد أخذ الدكتور مصطفى محمود فى كتابه:

(محاولة لفهم عصرى للقرآن) بتفسير الخيانة على أنها خيانة زوجية، وضرب مثلا بذلك حيث قال: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ﴾

والذين قالوا بخيانة الجسد والزنا، جانبهم الصواب فيما قالوا. وقد خطأهم الصابونى فى كتابه (أعلام المفسرين).

ويرى الدكتور محمد محمود حجازى فى كتابه التفسير الواضح: أن الخيانة فى العقيدة أو فى الخلق غير الزنا، فإن الخيانة الزوجية بالزنا خلق ذميم، يتبرأ منه الأنبياء وعائلاتهم. فمن المعقول أن تكون امرأة نبى كافرة لأنها ترى هذا، وليس من المعقول أن تكون امرأة نبى زانية.لأن الزنا مرض وراثى ينشأ من البيئة التى يعيش فيها الشخص، ولا يعقل أن يمسك النبى امرأة زانية.

ويقول: هاتان المرأتان خانت كل منهما زوجها بالكفر والنميمة، أو الاتصال بالأعداء مثلا: امرأة نوح قالت لقومه: إنه مجنون. وامرأة لوط دلت على ضيفانه. فإذا نزل ضيف بالليل أوقدت النار، وإذا نزل ضيف بالنهار

دخنت، لتعلم قومها بذلك. فلم ينفعهما قربهما من الأنبياء، ولم يدفع نوح ولوط مع كرامتهما عند الله عن زوجتيهما لما عصتا من عذاب الله شيئاً.

ويرى الزمخشرى فى كتابه (تفسير الكشاف) أن خيانتهما هى نفاقهما وإبطانهما الكفر وتظاهرهما على الرسولين. فامرأة نوح قالت لقومه: إنه مجنون. وامرأة لوط دلت على ضيوفه، ولا يجوز أن يراد بالخيانة الفجور، لأنه سمج فى الطباع، نقيصة عند كل أحد، بخلاف الكفر. فإن الكفار لا يَستمجونه بل يَستحسنونه، ويسمونه حقاً.

ويقول ابن عباس: ما بغت امرأة نبى قط.

وقال الإمام النيسابورى: خيانة المرأتين ليست هى الفجور.

وقال سيد قطب فى كتابه (فى ظلال القرآن): المأثور فى تفسير خيانة امرأة نوح وامرأة لوط، أنها كانت خيانة الدعوة وليس خيانة الفاحشة.

وشنت الدكتورة بنت الشاطئ هجوما كاسحاً على الدكتور مصطفى محمود وقالت: إنه لابد للمفسر من علوم تساعده على هذا التفسير، متعجبة من تصدى إلى تفسير أى نص من لا دراية له بأسرار لغته وفقه سياقه ودلالاته.

ونحن مع الذين يقولون بأنها خيانة الدعوة وليس خيانة الجسد. فليس من المعقول أو المقبول أن تكون نساء الأنبياء بهذا الموقف المشين.

ومن المؤكد أن الدكتور مصطفى محمود قد تأثر كثيراً بالإسرائيليات التى جاءت فى الكتاب المقدس وجعلت من بعض الأنبياء قطاع طرق، ويزنون، ويسرقون زوجات الآخرين. ثم من بنات لوط أن يفعلن الفاحشة مع أبيهما ويحملان ويلدان لأنه ليس على الأرض رجال غيره.

فهو منطق معكوس وينافى العقل والمنطق والقلب أيضاً(١).

---

(١) كتاب فوزى شعبان (الأمثال فى الأديان السماوية) صـ ١٥٥.

ثامنا ـ زوجات.. صالحات

آسية.. امرأة فرعون

تعد آسية امرأة فرعون خير مثل للمرأة المؤمنة، الصابرة، الصادقة، والتى رفضت طاعة زوجها فيما يغضب الله، وآمنت بالله الواحد الأحد، وكفرت بزوجها فرعون مصر والذى يدعى أنه الإله القوى، والذى يهب الموت، ويهب الحياة.

لم تخف، ولم تخش عذابه ولا تهديداته، ولم ترتعد فرائصها وهى ترى سحرة فرعون، والذين كانوا أول من آمن بدعوة موسى عليه السلام بعد أن تبين لهم أن ما يقوله ويفعله من عند الله خالق الإنسان والدنيا كلها والسماوات والأرض، وما بينهما، فآمنوا برب موسى ورب هارون. ولم يخافوا تهديدات فرعون بالموت والعذاب الشديد، وأقبلوا على الموت إقبالهم على الحياة، وفرعون يقول لهم: إن موسى هو كبيرهم الذى علمهم السحر، حتى لا يتبعه قوم آخرون من أهالى مصر.

فأرجع الأمر كله إلى السحر، وقدرة السحرة على خلق أشياء لا يستطيع الإنسان العادى، أن يأتى بها أو يفعلها.

يقول عز وجل فى سورة التحريم (الآية: ١١):

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

فقد اختار الله عز وجل امرأة فرعون لتكون مثلاً لكل نساء العالم،

وزوجات رجاله، لكى يقتدين بها، وبكل ما فعلته، وصنعته، من أجل التمسك بمبادئها، وعقيدتها وإيمانها بالله الواحد.

ولم يضعف من عزيمتها، أنها زوجة فرعون. وأن كل هذه الأنهار والخيرات تمشى تحت أقدامها. وأن مئات الخدم والحشم والعبيد رهن إشارتها وكلمتها.

وأن فراش الحرير، والسرائر الوثيرة، والمبانى العظيمة الفاخرة، والقصور العامرة المتناثرة فى أجمل بقاع مصر وحول النيل. كل هذا تحت أمرها فى أى وقت شاءت أو أرادت.

كما لم يضعف من عزيمتها، أو يوهن من قوة إيمانها الحلى المرصعة بالذهب والياقوت والمرجان، والتى تشتهيها وتتمناها أية امرأة فى هذه الحياة الدنيا.

كل هذا وأكثر منه لم يقف حائلاً لحظة واحدة أمام إيمانها الشديد بريها، وإسلامها لله الواحد الأحد، رب موسى ورب هارون، ورب الناس أجمعين.

فقد آمنت آسية امرأة فرعون بالله الواحد الأحد، وكفرت بزوجها الفرعون مدعى الألوهية والقدرات الخارقة.

وكتمت إيمانها فى قلبها. فلم تستطع أن تعلنه، أو حتى تسر به إلى أى أحد، سواء من أهلها، أو من خدم أو حشم فرعون. فلا شىء آمن فى هذه الأيام العصيبة.

والكل يطيع فرعون خوفاً ورهباً من سطوته وجبروته.

وأدركت بفطرتها الذكية أنه من الخير لها أن تكتم إيمانها بإله موسى حتى يقضى الله أمراً كان مفعولاً.

وكان إيمانها قوياً، عميقاً، قائماً على أسس شديدة عفية. بدأت منذ أن احتضنت موسى طفلاً رضيعاً. وقالت لفرعون: نتخذه ولداً أو ينفعنا فى الكبر.

وقبل فرعون على كرهاً منه وخوفا، إكراماً لزوجته.

فهى قد أحبت الطفل منذ رأته رضيعاً. ثم أنها هى التى أشرفت عليه ورعته صغيراً حتى كبر، واشتد عوده، وبلغ مبلغ الرجال. فأصبح بينهما تبادل فى المشاعر والأحاسيس بين أم وابنها، وبين ابن وأمه، ومن ثم وعت منذ أن كان صغيراً، صدق كلماته ومشاعره. فكان ذلك خير دافع لها لقبول دعوة التوحيد، والإيمان بإله موسى الواحد الأحد، والكفر بفرعون وما يدعيه.

وقد دعم إيمانها، وعمل على تقويته وترسيخه، يوم أن تحدى فرعون موسى، وجمع له السحرة يوم الزينة، فألقى عصاه فإذا هى حية تسعى تلتقط كل أعمال السحرة.

فخروا له ساجدين، وآمنوا بربه، بعد أن تأكدوا من صدق قوله ودعوته. وأن ما قام به ليس سحراً، ولا يمت إلى السحر بصفة، وإنما هو شئ فوق ذلك بكثير، شئ لا يستطيع عمله سوى إله كبير قوى، أكبر من فرعون، وأكبر من سحرته، وأكبر من كهنته.

ولهذا خروا لإله موسى ساجدين. يعلنون إيمانهم بالله الواحد الأحد.

ولم يستطع فرعون الصبر، وهو يرى كبار سحرته وقد أعلنوا العصيان عليه، والرفض لطاعته، وإنكار ألوهيته. فاتهمهم بأنه كبيرهم الذى علمهم السحر، ثم قتلهم بعد أن ربطهم فى جذوع الأشجار لكى يكونوا عبرة لكل من تسول له نفسه الخروج على طاعة فرعون.

رأت آسية ذلك. ورأت السحرة يقبلون على الموت إقبالهم على الحياة، فى سعادة ورضاء نفس.

فأيقنت أن موسى عليه السلام صادق فى دعوته، مخلص فى كل ما يقول، وأنه لا يبغى ملكاً ولا سلطة ولا جاهاً، وكل ما ينشده هو أن يؤمن الناس برب العالمين.

وكان لآسية ماشطة تقوم بإعدادها وتجميلها وتجهيزها لفرعون كل

يوم. وكان للماشطة زوج اسمه (حزقيل) وكان يعمل نجاراً، وقيل إنه هو الذى صنع لأم موسى التابوت الذى وضعته فيه رضيعاً خوفاً من فرعون حتى لا يقتله، بعد أن أخبره الكهنة بأنه سيولد طفل فى مصر، سوف يكبر وينمو، ويكون سبباً فى قتله وعزله من الملك.

وقال بعض المؤرخين إن (حزقيل) كان رجلاً أميناً، ولهذا نصبه فرعون على خزائنه، لأمانته ولكى يحفظ ماله.

وسواء كان (حزقيل) نجاراً أو خازناً، فقد آمن بإله موسى، وأقبل على الدعوة، وعمل على دعمها والدعوة لها فى السر، حتى لا يعرف فرعون ويبطش به وبكل من آمن.

وقيل إنه هو الذى ذكر فى القرآن الكريم بالرجل الذى يكتم إيمانه، ويدعو القوم إلى الأخذ بما يدعو إليه موسى، فإن كان خيراً أصابوا منه، وإن كان شرّاً انقلب عليه.

كما آمنت زوجته ماشطة فرعون، وكتمت هى الأخرى إيمانها، خوفاً من آسية امرأة فرعون، ومن الفرعون، وممن فى القصر من عيون وجواسيس. كما خافت أيضاً من بنت فرعون والتى تتولى تجميلها وتزيينها أيضاً.

ولم يستطع (حزقيل) أن يكتم إيمانه كثيراً، بعد أن رأى السحرة يصلبون على الأشجار حتى الموت، وكانوا فى صبر شديد، وسعادة كبيرة، وكأنهم يزفون إلى حياة جديدة سعيدة.

حتى ماتوا جميعاً وابتسامة الرضا توسم وجوههم جميعاً. فكانوا أول الشهداء بدعوة موسى.

وأخذ (حزقيل) يشجعهم على مواجهة الموت والشهادة، وأعلن إيمانه أيضاً بدعوة موسى، واعتراضه على ما يقوم به فرعون، وأنه ليس الإله الأعلى، وإنما الإله الأعلى هو إله موسى، وإله كل الناس، وأنه يكفر بفرعون

وألوهيته، وما يشيعه بين الناس من قدرات خارقة.

فأمر فرعون جنوده، فأمسكوا به، وأوثقوا رباطه حول شجرة مع السحرة حتى مات.

وحزقيل هذا هو الذى قال عنه سبحانه وتعالى:

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ﴾.

وقال عنه رسول الله ﷺ:

السابقون فى الأمم ثلاثة لم يكفروا بالله طرفة عين. حبيب النجار مؤمن آل يس، وحزقيل مؤمن آل فرعون، وعلى مؤمن آل محمد ﷺ، وهو أفضلهم والله أعلم.

وأيقنت آسية امرأة فرعون، أن ماشطتها مؤمنة مثلها، ولكنها تكتم إيمانها هى الأخرى خوفاً منها ومن فرعون وبناته، ولكنها لم تستطع أن تفعل لها شيئاً خوفاً من انكشاف أمرهما معاً، فتكون فرصة أمام الفرعون لكى يقضى عليهما معاً، خاصة وأنه بدأ يشك فيهما وفى تصرفاتهما، ووضعهما تحت الملاحظة والمراقبة.

ولكن الماشطة لم تستطع أن تكتم إيمانها كثيراً، ففى لحظة وهى تعد ابنة فرعون وتقوم على تزيينها، سقط منها المشط. فقالت دون أن تدرى وهى تلتقطه من على الأرض.

بسم الله.

فسألتها ابنة فرعون: فرعون أبى..!؟.

فأنكرت الماشطة ذلك. وفضح أمرها.

وأبلغت ابنة فرعون أباها بما حدث، وبما قالت الماشطة وما فعلت.

فأمر فرعون بقتلها.

ويروى سعيد بن المسيب عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال:

- لما أسرى بى مررت برائحة طيبة، فقلت لجبريل عليه السلام:

- ما هذه الرائحة؟

قال: رائحة ماشطة ابنة فرعون وأولادها. كانت تمشط ذات يوم بنت فرعون. فوقع المشط من يدها.

فقالت: بسم الله.

فقالت: فرعون أبى؟

قالت الماشطة: لا. بل ربى ورب أبيك.

فقالت: لأخبرن بذلك أبى.

فلما أخبرته، دعا بها، وبولدها. قال لها:

- من ربك؟

قالت: إن ربى وربك هو الله.

فأمر بتنور نحاس، فأحمى، وأمر بها وبولدها أن يلقوه فيه. فقالت له: إن لى إليك حاجة.

قال: ما هى؟

قالت: تجمع عظامى وعظام ولدى فتدفنها.

قال: ولك ذلك لما لك علينا من حق.

ثم أمر بأولادها فألقوا واحداً واحداً فى التنور. حتى إذا كان آخر أولادها ولداً صبيّاً رضيعاً فقال:

- اصبرى يا أمى فإنك على الحق.

فألقيت فى التنور مع ولدها.

وسئل ابن عباس فيمن تكلم فى المهد قال: أربعة. عيسى ابن مريم، وشاهد يوسف، وصاحب جُرَيْج، وهذا الصبى.

ولم تستطع آسيا أن تتمسك بالصمت من بعد أن رأت ماشطتها وقد قتل كل أولادها أمامها، ولم تضعف، ولم تهن، ولم تتردد أمام سطوة فرعون وجبروته، وتمسكت بموقفها، وإيمانها بدعوة موسى وهارون.

فانهمرت الدموع من عينيها، وهى تراقب الموقف العظيم لهذه المرأة البسيطة.

ورأى فرعون ذلك فى عين امرأته، وكان يشك فى أمرها من قبل.

ولكنه فوجئ بسؤالها له:

ـ كيف فعلت ذلك؟ وكيف تجرأت على الله عز وجل؟

فقال لها: لعلك أنت أيضاً آمنت بإله موسى.

قالت: نعم. آمنت به رباً لى، ولك، وللناس أجمعين.

فدعا فرعون أم زوجته علها تعيد إليها رشدها، وصوابها، وإيمانها به، وبألوهيته، وأنه ربها الأعلى.

وقال لها: إن الجنون قد مس ابنتها، وعليها أن تعيدها إلى صوابها وإلا أصابها ما أصاب الماشطة.

وخلت الأم مع ابنتها. ورجتها موافقة فرعون فيما أراد. لكنها أبت وأصرت وتمسكت بموقفها وإيمانها، وقالت لأمها:

ـ لن أكفر بالله الواحد الأحد، فاطر السماوات والأرض، والذى يحيى ويميت، وبيده كل شىء. رب موسى وهارون ورب الناس أجمعين بما فيهم الفرعون.

ولم يستطع الفرعون أن يمسك غضبه مما قالته زوجته، ومن إخفاق أمها فى إقناعها، وتمسكها بدعوة موسى، وأنها فوق دعوته.

فأمر بها أن تعذب عذاباً شديداً حتى تثوب إلى رشدها، وتعود إلى عبادة الفرعون وطاعته. وإلا ستكون عبرة وعظة لكل من تسول له نفسه اعتناق دعوة موسى، وعدم طاعته والاعتراف بألوهيته.

فأمر رجاله بأن يشدوها على الأرض إلى أربعة أوتاد، حتى لا تستطيع الحركة أو الفكاك منها حتى الموت، أو حتى تعلن توبتها، وعودتها إلى عبادته، والاعتراف بألوهيته، ورفض دعوة موسى عليه السلام. (وفرعون ذى الأوتاد).

يقول ابن عباس: إن فرعون أخذ امرأته آسية، وعندما بدأ فى تعذيبها، مر عليه موسى عليه السلام، فشكت إليه بإصبعها. فدعا الله أن يخفف عنها من العذاب. وبعد ذلك لم تجد للعذاب ألماً إلى أن ماتت فى عذاب فرعون.

فقالت وهى فى العذاب:

- رب ابن لى عندك بيتاً فى الجنة ونجنى من فرعون وعمله ونجنى من القوم الظالمين.

فأوحى الله تعالى إليها أن ارفعى رأسك.

ففعلت. فرأت البيت فى الجنة من در. فضحكت.

فقال فرعون: انظروا إلى الجنون الذى بها. تضحك وهى فى العذاب.

وقال ابن عباس: خط رسول الله ﷺ فى الأرض أربعة خطوط. فقال:

- «أتدرون ما هذا؟

قالوا: الله ورسوله أعلم.

فقال رسول الله ﷺ: أفضل نساء أهل الجنة: خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، ومريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون».

وقال أبو موسى الأشعرى. قال رسول الله ﷺ:

- «كمل من الرجال كثير. ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون، ومريم

بنت عمران. وأن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام».

وقال الطبري: حدثنا عبد الله بن ناجية، حدثنا محمد بن سعد العوفى، حدثنا أبى، أنبأنا عمى الحسين، حدثنا يونس بن نفيع، عن سعيد ابن جنادة، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله زوجنى فى الجنة، مريم بنت عمران، وامرأة فرعون، وأخت موسى».

وقال الزبير بن بكار: حدثنى محمد بن الحسن، عن يعلى بن المغيرة، عن ابن أبى داود، قال: دخل رسول الله ﷺ على خديجة وهى فى مرضها الذى توفيت فيه، فقال لها:

ـ بالكره منى ما أرى منك يا خديجة، وقد يجعل الله فى الكره خيراً كثيراً، أما علمت أن الله قد زوجنى معك فى الجنة مريم بنت عمران، وكلثم أخت موسى، وآسية امرأة فرعون.

فقالت: وقد فعل الله بك ذلك يا رسول الله؟

قال: نعم.

قالت: بالرفاء والبنين.

وروى ابن عساكر عن ابن عباس، أن رسول الله ﷺ، دخل على خديجة وهى فى مرض الموت فقال:

ـ يا خديجة إذا لقيت ضرائرك فاقرئيهن السلام.

قالت: يا رسول الله، وهل تزوجت قبلى؟

قال: لا. ولكن الله زوجنى مريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم، وكلثم أخت موسى.

ويقول سيد قطب: إن امرأة فرعون لم يصدها طوفان الكفر الذى تعيش فيه فى قصر فرعون عن طلب النجاة وحدها. فقد تبرأت من قصر

فرعون، طالبة إلى ربها بيتاً فى الجنة، وتبرأت من صلتها بفرعون فسألت ربها النجاة منه، وتبرأت من عمله مخافة أن يلحقها من عمله شىء، وتبرأت من قوم فرعون وهى تعيش بينهم.

وقد أعطت امرأة فرعون بذلك مثلاً يحتذى فى قوة الإيمان، والتمسك بدين الله فى مواجهة المظالم والكفر، مهما كانت النتائج. وتمسكت بالحق فى وجه زوجها الظالم، فلم تطعه فى معصية الخالق، وتمسكت بما هى عليه من الحق، فلم تضعف ولم تهن، ولم تجامل زوجها ابتغاء مرضاته، وإنما حرصت كل الحرص على إرضاء الله عز وجل.

فكانت خير قدوة لكل زوجة(١).

* * *

(١) كتاب فوزى شعبان (الأمثال فى الأديان السماوية) صفحة ١٥٦إصدار دار الآفاق العربية.

تاسعاً ـ زوجات.. صابرات

زوجات صابرات

فى قصص الأنبياء والرسل، هناك زوجات صابرات على ما أصاب أزواجهن من مكاره وآلام، وما فقدوه من ثراء وعز وجاه وخدم وحَشم، ولكنهن صبرن على ما أصابهن، وأصاب أزواجهن.

لم تشك واحدة منهن ما أصابها. ولم يرتفع صوتها يوماً ليسمع الجيران، أو تهمس به إلى الأهل والأصدقاء، أو تنفس عما بداخلها من أحزان وآلام بالشقاق والخلاف مع زوجها. وتلعن اليوم الذى عرفته فيه، وتزوجته فيه. وتندب حظها العاثر الذى أوقعها فى مثل هذا الزوج. وكان فى إمكانها أن تتزوج أحسن منه. وأغنى منه. ويوفر لها كل متطلبات الحياة وضروراتها.

ولكن إحداهن لم تفعل ذلك. بل تقبلت الأمر بنفس راضية مطمئنة. راضية بما قسمه الله لها فى هذه الحياة الدنيا.

ومن أجل رضاها بقسمتها ونصيبها أكرمها الله عز وجل، ورفعها درجات رفيعة لم تصلها امرأة أخرى مماثلة لها فى زمانها، أو من أهلها.

وأصبحت رمزاً، وقدوة، ومثلاً أعلى لكل النساء، وحتى يرث الله الأرض ومن عليها.

وسأختار من هذه النماذج. أربعة نساء لكى نضرب بهن المثل فى الصبر على احتمال الشدائد والمكاره والمصائب ووقوفهن إلى جوار أزواجهن حتى اجتازوا المحنة، ووصلوا إلى طريق السلامة.

وهؤلاء هن، سارة وهاجر امرأتا إبراهيم، ورحمة امرأة أيوب، وخديجة زوج محمد ﷺ.

سارة وهاجر

كانت سارة جميلة. هادئة وكأنها النسمة، طويلة، نحيلة، رشيقة، حلوة القسمات، مشرقة البسمة، تعلو وجهها حمرة الشباب وقوته.

وكانت موضع إعجاب شباب مدينة (أور) ولكن قلبها كان مشغولاً بابن عمها إبراهيم ـ كما قيل ـ. واحتله فلم يترك فيه ثغرة ينفذ منها أحد غيره إليه.

ولكن شيئاً ما كان يحيرها فى إبراهيم، فهو دائم التفكير، والتطلع إلى السماء، وكأنه يرقب شيئاً هناك فى انتظار ظهوره. وكان يتجنب عبادة الأصنام التى يصنعها والده، ويعبدها أهل (أور) وما حولها.

وتزوجت سارة من إبراهيم، بعد أن قدم لها المهر أو الصداق عشرات من البقر والإبل والماعز كعادة أهل مدينتها. ودعت الآلهة أن ينصلح حاله، ويثوب إلى رشده، ويعود إلى عبادة أهله وقومه.

لكنه تمادى فى سبهم وقذفهم بأقسى الشتائم والإهانات، وأنهم مجرد حجارة لا تنطق، ولا تملك لنفسها ضرّاً ولا نفعاً.

ثم تجاوز الأمر مداه عندما قطع رؤوسهم، ورشق الفأس فى عنق كبيرهم (مردوخ)، وسرى الخبر بين الناس مسرى النار فى الهشيم. وأسرع الملك (النمرود) إلى المعبد ليتأكد مما قيل له. فإذا هو صحيح، وإذا معظم الآلهة قد قطعت رءوسها، وأن الفأس مازالت معلقة فى رأس كبيرهم (مردوخ)، فجن جنون الملك (النمرود).

وسأل إبراهيم:

ـ أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم.

قال: بل فعله كبيرهم هذا.

قالوا: لقد علمت ما هؤلاء ينطقون.

قال: أتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً، ولا يضركم. أف لكم ولما تعبدون من دون الله، أفلا تعقلون.

قالوا: ابنوا له بنياناً فألقوه فى الجحيم.

وأشعلوا ناراً كثيفة. وسارة ترقب القوم، وألسنة النيران المشتعلة والتى ترتفع إلى عنان السماء، وتتجاوز فى صعودها أشجار النخيل التى تمتلئ بها المدينة.

وترقب إبراهيم. وتعجب من ثباته. وقوة إيمانه، وصبره على بلائه وشقائه. فيزداد إيمانها به وبما يعبد، وتجد ثقتها فى إبراهيم، وفى إله إبراهيم.

لم تصرخ، ولم تحزن، ولم تبك، ولم تحاول إثناء إبراهيم عما يقول أو يفعل. وإنما وقفت إلى جواره، صابرة صامدة مؤمنة. فقد كانت تعلم أن أى فعل منها، قد يؤثر فى إبراهيم، وقد يزيد من عذابه النفسى من أجلها، وهو يرى زوجته، وقد أخذها الروع، وأمسك بها الخوف، وقتلها الندم على ما فعله بها.

كانت صابرة، مؤمنة، بزوجها، وبكل ما يفعل. وتتذكره وهو هائم فى الطرقات، ونظره وقلبه معلق بالسماء، فلما جن عليه الليل رأى كوكباً، قال: هذا ربى. فلما أفل قال: لا أحب الآفلين. فلما رأى القمر بازغاً قال: هذا ربى. فلما أفل قال: لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين. فلما رأى الشمس بازغة قال: هذا ربى. هذا أكبر. فلما أفلت قال: يا قوم إنى برئ مما تشركون. إنى وجهت وجهى للذى فطر السماوات والأرض حنيفاً، وما أنا من المشركين.

هذا هو إذن إله إبراهيم الذى عثر عليه أخيراً بعد طول بحث، ولف،

ودوران، بين كل المخلوقات على الأرض أو فى السماء.

أخيراً عثر إبراهيم على إلهه. قالتها فى نفسها وهى ترقب القوم، وقد انتهوا من إشعال النيران، ووضع إبراهيم فى كفة منجنيق صنعها رجل منهم يقال له (هيزن) فكان أول من صنع المجانيق فى العالم.

وألقوا به إلى النيران. وصيحته تخترق آذانهم وكل ما حولهم:

- لا إله إلا أنت، سبحانك رب العالمين. لك الحمد، ولك الملك، لا شريك لك.

ثم قال: حسبنا الله، ونعم الوكيل.

وأخذت الصيحة القوم، فذعروا، وخافوا، وهم يرونه ثابت الإيمان، لا يخاف من النار. وزلزلت ما بداخلهم من معتقدات، وأحدثت بها فجوات وهزات، فلا بد أن إله إبراهيم أكبر وأقوى من آلهتهم. وإلا لما تحمل كل هذا العذاب فى سبيله.

يقول أبو هريرة: إن رسول الله ﷺ قال: لما ألقى إبراهيم فى النار قال: اللهم إنك فى السماء واحد، وأنا فى الأرض واحد أعبدك.

ومعنى ذلك.. أن زوجته سارة لم تكن بعد قد آمنت بدعوة إبراهيم وربه، عندما ألقى فى النار.

وذكر بعض السلف الصالح أن جبريل عرض له فى الهواء وهو فى طريقه إلى النار وقال له:

- يا إبراهيم ألك حاجة؟

فقال: أما إليك.. فلا.

وقال الضحاك: يروى أن جبريل عليه السلام كان معه يمسح العرق عن وجهه، لم يصبه منها شىء غيره.

وقال أبو هريرة: إن أحسن كلمة قالها أبو إبراهيم عندما رأى ابنه فى النار:

نعم الرب. ربك يا إبراهيم.

وروى ابن عساكر عن عكرمة قوله: إن أم إبراهيم نظرت إلى ابنها فى النار ونادته:

- يا بنى إنى أريد أن أجئ إليك. فادع الله أن ينجينى من حر النار حولك.

فأشار إليها: بنعم.

فأقبلت إليه لا يمسها شىء من النار. فلما وصلت إليه عانقته، وقبلته. ثم عادت كما دخلت، وسط ذهول القوم، وقد خرست ألسنتهم من هول الصدمة والمفاجأة.

وصاح صوت من القوم: إبراهيم لم يمت. إنه مازال حيّاً، لم يمسسه ضر، إن النار عليه برد وسلام.

وفرحت سارة، وآمنت بإله إبراهيم وقدراته الخارقة على فعل أى شىء. وأنه الإله الوحيد لا الآلهة التى يعبدها أهلها وآل إبراهيم، وكل من فى المنطقة.

وأكل الحقد صدر أخيه (هاران) فأشعل ناراً، وطلب من آلهته أن يحموه، وأن يمنعوا عنه ألسنة النار حتى لا يحترق، كما فعل إله إبراهيم به. ولكنه مات محترقاً كافراً.

وغادر إبراهيم وسارة وابن أخيه لوط وأبوه آزر مدينة (أور) بعد أن اشتد عليهم غضب الناس، وكانت سارة أول من آمن به من النساء. وكان لوط أول من آمن به من الرجال. ولم تناقشه سارة فيما دعاها إليه من الهجرة والفرار بدينهم الجديد.

لم تناقش، ولم تجادل زوجها، وإنما وقفت إلى جانبه، تشد من أزره، وتعينه على مصائب الأيام. وجمع إبراهيم كل ممتلكاته من إبل، وغنم،

وماعز، وبقر، وانطلق إلى دنيا جديدة وبجانبه زوجته.

وتوقف الركب فى مدينة (حاران)، وأقام إبراهيم الصلاة، وتبعته زوجته سارة، وابن أخيه لوط، ثم عدد من الذين آمنوا به، ثم العبيد الذين يشرفون على القافلة.

وأخذ (آزر) يشهد القوم وهم يؤدون الصلاة. وتشجع إبراهيم ودعا أباه إلى عبادة الإله الواحد. لكن الرجل كان مازال فى قلبه مرض.

وآمن قوم آخرون. وتزايدت أعداد المؤمنين.

وكان إبراهيم يسأل القوم عما يعبدون،

﴿قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ * قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ * قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ (الشعراء: ٧١ - ٧٤).

﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ * الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ * وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ * رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ (الشعراء: ٧٥ - ٨٣).

ووقفت زوجته سارة ترقب الموقف العظيم. وزوجها يؤم القوم فى صلاتهم، ويحدثهم ويعظهم بكلام جميل، يدخل القلب والعقل. فحمدت الله أن جعلها زوجة له، وأنها ما فعلت شيئاً يغضبه أبداً.

وكان أبوه يرقبه أيضاً. فطمع إبراهيم فى إسلامه، وتقدم منه يسأله قائلا:

﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ (مريم: ٤٢ - ٤٥).

ومـرض (آزر)، وخـاف إبراهيم أن يموت أبوه على الكفـر والضـلالة، وتوسل إليه أن يؤمن بالله الواحد الأحد. لكن الرجل مات على كفره. ودفن فى أرض (حاران).

وسارت القافلة إلى أرض الشام، ومعظم من فيها وهبهم الله الذرية الصالحة، ولكن زوجته سارة كانت كما هى عقيما. فأخذ يدعو ربه:

- رب. لا تذرنى فرداً وأنت خير الرازقين. رب وهب لى قرة عين لى تذكر اسمك وتسبح بحمدك كثيراً، إنك خير الواهبين.

وكانت سارة ترقب زوجها، وتشعر بما يدور فى أعماقه، وما يتمناه من ذرية صالحة، وكانت ترى الحنان فى عينيه وهو يداعب أطفال القافلة، ولكن الأمر ليس فى يدها. وإرادة الله فوق الجميع.

وتجمع المؤمنون وتكاثروا من حول إبراهيم.

جاء فى الاصحاح الحادى عشر من سفر التكوين فى التوراة: «وقال الرب لإبرام (إبراهيم) اذهب من أرضك ومن عشيرتك، ومن بيت أبيك إلى الأرض التى أريك فأجعلك أمة عظيمة، وأباركك وأعظم اسمك. وتكون بركة. وأبارك مباركيك. ولاعنك ألعنه. وتتبارك فيك جميع قبائل الأرض، فذهب إبرام كما قال له الرب وذهب معه لوط. وكان إبرام ابن خمس وسبعين سنة لما خرج من حاران».

وانتشر دين إبراهيم فى الشام. وخاف كهنة المعابد والآلهة من الدعوة الجديدة، فاستغاثوا بملك مصر سنان بن الأشل بن عبيد - كما يقول المفسرون - وكان من الهكسوس الذين يحكمون الوجه البحرى فى مصر. فأرسل جيشاً كبيراً أخذ إبراهيم وأتباعه على حين غرة، وأسروا سارة، وعادوا بها إلى مصر، ليقدموها إلى ملكهم هدية، بعد أن راعهم جمالها، وحلاوتها.

وكانت سارة - كما يقول المؤرخون والمفسرون - تشبه فى جمالها حواء. أجمل من خلق الله على أرضه.

وسحر بها ملك مصر.

وأخذت نساء قصره يعدونها له، ويزينونها من أجله. ودخل إليها. وكانت تصلى وتدعو ربها أن يخرجها من هذه المحنة.

سألها ملك مصر: ماذا تفعلين؟.

قالت: أصلى لله الواحد الأحد. خالق كل شىء.

فتبسم الملك ضاحكاً من قولها، ومما تعتقد. وهم بها. فقُبضت يده قبضة شديدة. فتوسل إليها أن تدعو ربها أن يطلق يده. ففعلت. فأعاد الكرة من جديد، وهم بها، ولكن يده قبضت من جديد، فأقسم لها أن يتركها إن هى أعادت إطلاق يده. ففعلت. فلم يقربها، وسألها:

- من أنت؟

- امرأة من عباد الله الواحد الأحد.

- ومن زوجك.

- إبراهيم عبد الله ورسوله. أرسله الله لدعوة الناس كافة إلى عبادة الله الواحد الأحد.

قال ملك مصر: ومادمت زوجة رسول الله.. فلماذا تخلى الله عنك؟

قالت بإيمان شديد: ما كان الله ليطلعنا على الغيب. إن الله بالغ أمره. قد جعل الله لكل شىء قدراً.

فأمر ملك مصر بإطلاق سراحها. ووهبها جارية من قصره اسمها (هاجر) تكريماً وتعظيماً لشأنها.

ويقول ابن كثير: رأيت فى بعض الآثار أن الله عز وجل كشف الحجاب فيما بين إبراهيم ﷺ وبين سارة. وكان مشاهداً لها وهى عند الملك. وكيف عصمها الله منه، ليكون ذلك أطيب لقلبه، وأقر لعينه، وأشد لطمأنينته. فإنه

كان يحبها حبّاً شديداً لدينها وقرابتها منه، وحسنها الباهر. فإنه قيل إنه لم تكن امرأة بعد حواء إلى زمانها أحسن منها، رضى الله عنها.

وتحكى التوراة فى الأصحاح الثانى عشر، قصة لقاء سارة بملك مصر. جاء فيها:

«وحدث جوع فى الأرض. فانحدر إبرام (إبراهيم) إلى مصر ليتغرب هناك. لأن الجوع كان فى الأرض شديداً. وحدث لما قرب أن يدخل مصر أنه قال لساراى (سارة) امرأته إنى قد علمت أنك امرأة حسنة المنظر، فيكون إذا رآك المصريون أنهم يقولون هذه امرأته. فيقتلوننى ويستبقونك. قولى إنك أختى. ليكون لى خير بسببك وتحيا نفسى من أجلك.

فحدث لما دخل إبرام (إبراهيم) إلى مصر أن المصريين رأوا المرأة أنها حسنة جداً. ورآها عمال فرعون ومدحوها لدى فرعون. فأخذت المرأة إلى بيت فرعون. فصنع إلى إبرام خيراً بسببها. وصار له غنم وبقر وحمير وعبيد وإماء وأتن وجمال.

فضرب الرب فرعون وبيته ضربات عظيمة، بسبب ساراى امرأة إبرام.

فدعا فرعون إبرام وقال: ما هذا الذى صنعت بى. لماذا لم تخبرنى أنها امرأتك. لماذا قلت هى أختى حتى أخذتها لى لتكون زوجتى. والآن هو ذا امرأتك. خذها واذهب. فأوصى عليه فرعون رجالاً فشيعوه وامرأته وكل ما كان له إلى بلاد الشام».

ويقول أبو هريرة: إن رسول الله ﷺ قال: «إن إبراهيم لم يكذب قط إلا ثلاث كذبات. كل ذلك فى ذات الله. قوله (إنى سقيم) وقوله (بل فعله كبيرهم هذا). وبينما هو يسير فى أرض جبار من الجبابرة إذ نزل منزلاً، فأتى الجبار، فقيل له: إنه قد نزل هنا رجل معه امرأة من أحسن الناس. أرسل إليه فسأله عنها. فقال: إنها أختى. فلما رجع إليها قال: إن هذا سألنى عنك، فقلت إنك أختى وأنه ليس اليوم مسلم غيرى وغيرك، وإنك

أختى فلا تكذبينى عنده.

فانطلق بها، فلما ذهب يتناولها أُخذ. فقال: ادعى الله ولا أضرك. فدعت فأرسل. فذهب يتناولها. فأخذ مثلها أو أشد منها. فقال: ادعى الله لى ولا أضرك. فدعت فأرسل. ثلاث مرات. فدعا أدنى حشمه (أقربهم إليه) فقال: إنك لم تأتنى بإنسان، ولكن آتيتنى بشيطان، أخرجها وأعطها هاجر.

فجاءت وإبراهيم قائم يصلى. لما أحس بها انصرف. فقال: مهيم. فقالت: كفى الله كيد الظالمين. وأخدمنى هاجر.

وعادت سارة مع إبراهيم إلى الشام، ومضت الشهور وفى قلبها حزن دفين، فمازالت لم ترزق بالبنين، والعمر قد مضى، وأصبحت عجوزاً عقيماً. فأهدت إبراهيم جاريتها (هاجر) عسى أن ينجب منها الذرية الصالحة.

وكان موقفها فى ذلك عظيما. فلم تتخذ من زوجها موقفاً، أو تتحايل عليه لكى لا يتزوج من غيرها ويكون عنده الولد، وتصبح هى فى مكان بعيد.

ضحت سارة بنفسها، وبكل ما تملكه المرأة من مشاعر وأحاسيس، وقدمت إلى زوجها (هاجر) لكى ينجب منها الولد بعد أن كبرت فى السن وأصبحت عجوزاً عقيماً.

فضربت بذلك أروع الأمثلة فى التضحية والفداء من الزوجة لإدخال السعادة والبهجة إلى نفس زوجها.

وحملت هاجر، وفرحت سارة لفرح زوجها، وساعدتها حتى ولدت له ابنه إسماعيل.

وأكرمها الله عز وجل لموقفها هذا، ومنحها الولد بعد أن اشتعل الرأس شيباً.

وجاءت ملائكة الله إلى إبراهيم ضيوفاً، وذبح لهم عجلا حنيزا، فإذا أيديهم لا تصل إلى أفواههم. فأوجس منهم خيفة. فقالوا: لا تخف. إنا رسل

ربك. أرسلنا إلى قوم لوط. استنصر لوط ربه، فبعث الله رسله لنصرته.

ثم التفتوا إلى سارة وبشروها بإسحاق. فصكت وجهها وقالت: أألد وأنا عجوز عقيم. وهذا بعلى شيخاً. إن هذا لشىء عجيب.

قالوا: أتعجبين من أمر الله؟ رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت، إنه حميد مجيد.

فلما ذهب عن إبراهيم الروع، وجاءته البشرى بإسحاق، قال: الحمد لله الذى وهب لى على الكبر إسماعيل وإسحاق، إن ربى لسميع الدعاء.

وأوحى الله إلى إبراهيم أن يأخذ هاجر وإسماعيل إلى بيت الله الحرام. وتركهما وعاد إلى الشام.

ولم تعترض هاجر، ولم تشكو، ولم تقل لزوجها شيئاً، وأنه تركها فى صحراء جرداء، لا ماء فيها ولا حياة. وإنما تركته يعود من حيث أتى بهما. ودعت له ربه أن يعود بسلامة الله.

وصبرت على ابتلاء الله لها. ورضيت بما قسمه الله لها. فقد كانت أميرة مصرية من صعيد مصر، ثم وقعت أسيرة فى أيدى الهكسوس ملوك الوجه البحرى. ثم وهبها ملك مصر إلى سارة، كى يتزوجها إبراهيم، وتنجب له أول أولاده إسماعيل، لتدخل الفرحة إلى قلبه. ولابد أن الله غير مضيعها فى هذا المكان.

ولم يفزعها شىء، سوى بكاء ابنها الرضيع، وعدم وجود مياه، وتذكرت دعوات زوجها إبراهيم لهما قبل أن يتركهما فى هذا المكان. إذ قال:

﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ (إبراهيم: ٣٧).

وارتفع صوت ابنها بالبكاء، فهرولت بين الصفا والمروة سبعة أشواط،

وتفجرت عين ماء تحت أقدام إسماعيل. وأقبل أقوام من جرهم وأقاموا معها، ثم قدم قوم آخرون، وعمرت المنطقة، وكثر المؤمنون من حولها، وهى راضية مستقرة النفس برضاء الله عليها، ورضاء زوجها.

وماتت سارة بعد سنوات، ودفنت فى (حبرون) فى مغارة الكفيلة، ووقف على قبرها إبراهيم يودعها بأحلى الكلمات، فقد كانت أول من آمن به وصدقته، وشجعته على المضى فى دعوته لعبادة الواحد الأحد. ولم تشك يوماً من التعب أو الإجهاد. وكانت نعم الزوجة الوفية يوم أهدته (هاجر) كى يرزق منها بالولد، ثم أكرمها الله وهى عجوز عقيم وأعطاها الذرية الصالحة.

كانت نعم الزوجة الصالحة، وهى تتحمل سنوات العذاب، والترحال، والسفر بين البلاد، ومحاربة الأعداء، وعدم الاستقرار فى مكان محدد. وفى كل ذلك لم تظهر اعتراضاً، أو تتأفف، أو تعترض. وإنما كانت نعم الزوجة المطيعة الوفية المخلصة.

وماتت (هاجر) من بعدها بسنوات، بعد أن عمرت أرض الله وبيت الله الحرام، وتركت ذرية صالحة، وأعداداً كبيرة من المؤمنين الموحدين بالله تعالى.

ودفنت فى جوف الكعبة، والتى كانت آخر ما تكحلت بها عيناها، بين الركن الشامى والركن الغربى. نفس المكان الذى كان قد أقام فيه خليل الله إبراهيم عريشاً لها ولابنها إسماعيل لكى يكون سكناً لهما.

٢ ـ رحمة.. امرأة أيوب

لم تعرف البشرية صبراً مثل صبرها، ولا قوة احتمال مثل قوتها، ولا إخلاصاً مثل إخلاصها لزوجها، ولا حباً مثل حبها لزوجها.

إنها رحمة بنت أفراثيم، زوجة نبى الله أيوب. عاشرته غنيّاً، قويّاً، عفيّاً يملك مئات الأفدنة والأراضى الزراعية الخصبة من أرض الثنيا بالشام، ويملك مئات العبيد، ومئات الإبل والبقر والحيوانات.

وكان جميلاً، قوياً، تحسدها كل بنات أهلها على الزواج منه. فقد كان حلم كل فتاة. لكنه اختارها هى دون غيرها من الفتيات.

وعاشت معه أجمل سنوات عمرها، حتى أمرضه الله، وابتلاه، ليمتحن صبره، وقوة إيمانه، وليكون مثلاً للناس على مدى الحياة البشرية كلها.

تآمرت عليه شياطين الجن لكى يكفر بنعمة ربه عليه، فاستمسك بإيمانه، وتحصن به فى مواجهة مكائد الشياطين. حتى سأل إبليس ربه: يا إلهى نظرت فى أمر عبدك أيوب فوجدته عبداً أنعمت عليه، فشكرك، وعاقبته فحمدك، ثم لم تختبره لا بشدة ولا بلاء. وأنا لك زعيم لئن ضربته ببلاء ليكفرن بك، ولينسينك.

فأجاز له الله سبحانه أن ينطلق إليه. وسلطه عليه كى يختبر قوة إيمانه، وصبره على البلاء.

وجمع إبليس كل عفاريت الشياطين وكبرائهم وسألهم، عما يملكون من قوة لكى يبيد مال أيوب. فقال له عفريت: إن عنده من القوة ما يمكن أن يتحول به إلى إعصار مدمر، فسلطه إبليس على هلكة كل ممتلكات أيوب، حتى أتى على آخرها.

فذهب إبليس إلى أيوب وهو يصلى وقال له:

ـ هل تدرى ماذا فعل ربك الذى تعبده بإبلك وأرضك وزرعك؟

قال له أيوب: إنها أرضه، وماله، وقد أعارها لى. وهو أولى بها، إن شاء تركها، وإن شاء أخذها، فالأرض جميعاً لله يورثها من يشاء. وأنا ومالى إلى الفناء.

ـ لقد أرسل عليها ربك ناراً من السماء، فاحترقت كلها، وتعجب الناس. ومنهم من قال لو كان إله أيوب يستطيع أن يفعل شيئاً لمنع الحريق.

ـ الحمد لله، الذى أعطانى، وحين شاء نزع منى، عريانا خرجت من بطن أمى، وعريانا أعود إلى القبر، وعريانا أحشر إلى ربى.

فرجع إبليس إلى قومه يسألهم المشورة من جديد، فقال له عفريت من الجن: أستطيع أن أخرج صوتاً تموت به الغنم والدواب.

فقال له: افعل.

وذهب إلى أيوب يخبره، فقال هى مال الله.

فعاد من جديد يسأل العون، فقال له عفريت: أهلك الحرث والزرع، ففعل. لكن أيوب كان صابراً، حامداً، شاكراً لله فضله عليه.

فانطلق إبليس من جديد، يسأل الله عز وجل أن يسلطه على ولده، لأنها المصيبة التى لا يستطيع أن تقف أمامها قلوب الرجال.

وهدم القصر على أولاده، وذهب إليه يخبره، ويكثر من الكلام، ووصف المأساة، حتى رق قلب أيوب وبكى، وقبض قبضة من تراب ووضعها على رأسه. فأسرع إبليس إلى السماء فرحاً. ولكن أيوب كان قد استغفر ربه فغفر له.

فسأل إبليس الله عز وجل أن يسلطه على بدنه فإن أصابه، فإنه متأكد من أنه سوف ينسى ذكر الله، ويكفر بنعمائه.

فذهب إلى أيوب، ونفخ فى وجهه، فأصابه بالمرض فى كل جسمه، ولم يبق له عضو سليم، إلا عقله ولسانه وقلبه، كى يذكر بها الله ويشكره على ما

أصابه من بلاء بعد سراء.

ونتن أيوب. وأصبحت رائحته لا تطاق، وهرب منه قومه، وأصدقاؤه، ومعارفه، وحتى عبيده. ولم تتحمله سوى زوجته رحمة.

جلست بجواره، ونامت معه لتخدمه، وسهرت الليل كى تخفف عنه آلامه، وسعت فى النهار بين القرى كى تجمع له الطعام من عباد الله المحسنين المتصدقين عليه.

وكانت رحمة جميلة. أجمل بنات قومها، طويلة، رشيقة، بيضاء، سوداء الشعر، تتهافت عليها قلوب وعقول الرجال.

وخافت النساء من فتنتها على أزواجهن، فأخذن يحاربنها، ويمنعن عنها الطعام والشراب لزوجها، وقصت شعرها الجميل إرضاء لهن. لكن كل ذلك لم يؤثر فيهن.

فطاردنها فى الطرقات والشوارع، وشجعن أولادهن على مضايقتها، وترديد الهتافات القبيحة حولها.

ولكنها ظلت صابرة، مؤمنة، مصرة على جمع الطعام لزوجها المريض.

فطلبن منها مغادرة المكان خوفاً من العدوى.

فأخذته وانتبذت به مكاناً قصيا خلف الأحراش حتى لا يراها أحد، ولا تصل إليه الحيوانات الضالة فتفترسه.

وكانت كثيراً ما تضعه فى (قفة) وتحمله فوق رأسها وتذهب به إلى حيث تريد، خوفاً من أن يصيبه مكروه.

وكان أيوب يحثها على تركه فى موضعه، لكنها كانت تصر على ذلك حتى يطمئن قلبها. وكان حمله خفيفاً فلم يكن سوى مجموعة من الجلود والعظام ترعى فيها الديدان والحشرات ويتفجر منها الروائح الكريهة.

وانفض من حوله كل مريديه، وأصدقائه. وطلب منه بعضهم أن يستغفر ربه، فربما ارتكب ذنباً كبيراً، يعاقبه الله عليه.

ولكن شابا حدثا، كان جديد الإيمان بتصديق دعوة أيوب إلى عبادة الله الواحد الأحد، قال لهم: إن الله يبتلى النبيين ويصيبهم، ليختبر قوة إيمانهم، وأن البلاء ليس سخطاً عليهم، ولا هواناً لهم، ولكنه كرامة وخير لهم.

فقال أيوب تعقيباً على قوله: إن الله تعالى يزرع الحكمة بالرحمة فى قلب المؤمن الكبير والصغير، فمتى نبتت فى القلب، أظهرها الله تعالى على اللسان، وليس تكون الحكمة من قبل السن والشيب، ولا طول التجربة.

ثم توجه بكلامه إلى أصدقائه وقال لهم:

أتيتمونى غضباً. فكيف بكم لو قلت لكم تصدقوا عنى بأموالكم، لعل الله يخلصنى، وقربوا عنى قربانا، لعل الله يتقبلها ويرضى عنى. وقد أعجبتكم أنفسكم وظننتم أنكم قد عوفيتم بإحسانكم فهنيئاً لكم. بغيتم وتعززتم ولو نظرتم فيما بينكم وبين ربكم ثم صدقتم، لوجدتم لكم عيوباً سترها الله عليكم بالعافية التى ألبسكم إياها، وقد كنتم فيما خلا من الزمان توقروني وأنا مسموع كلامى، فأصبحت اليوم وليس لى رأى ولا كلام معكم. أنتم اليوم أشد على من مصيبتى.

ثم أعرض عنهم. واتجه إلى ربه داعياً:

رب لأى شىء خلقتنى. ليتنى إذ كرهتنى ما خلقتنى. ليتنى عرفت الذنب الذى أذنبت، والعمل الذى عملت، فصرفت وجهك الكريم عنى. لو كنت أمتنى وألحقتنى بآبائى، فالموت كان أجمل لى يا إلهى.

فأوحى الله عز وجل إليه:

يا أيوب نفذ فيك حكمى، وسبقت رحمتى غضبى. إذا أخطأت فقد غفرت لك ما قلت، ورحمتك، ورددت عليك أهلك ومالك، ومثلهم معهم،

لتكون لمن خلفك آية، وتكون عبرة لأهل البلاء، وعزاءً للصابرين. فاركض برجلك، هذا مغتسل بارد وشراب فيه شفاء، وقرب عن أصحابك قربانا، واستغفر لهم، فإنهم قد عصونى فيك.

فركض أيوب برجله، فانفجرت له عين ماء، فدخل فيها واغتسل، فأذهب الله تعالى عنه ما كان فيه من البلاء.

واختلف العلماء والمفسرون فى المدة التى أمضاها أيوب فى مرضه. قال وهب بن كعب: إنه ابتلى ثلاث سنوات، لا تزيد ولا تنقص. وقال أنس: ابتلى سبع سنين وأشهرا.

وقال ابن أبى حاتم وابن جرير عن أنس بن مالك، أن النبى ﷺ قال: إن نبى الله أيوب لبث به بلاؤه ثمانى عشرة سنة، فرفضه القريب والبعيد إلا رجلين من إخوانه، كانا من أخص إخوانه له. كانا يغدوان إليه ويروحان. فقال أحدهما لصاحبه: تعلم والله لقد أذنب أيوب ذنباً ما أذنبه أحد من العالمين. قال صاحبه: وما ذاك؟ قال: منذ ثمانى عشر سنة لم يرحمه ربه فيكشف ما به. فلما راحا إليه، لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك له. فقال أيوب: لا أدرى ما تقول، غير أن الله عز وجل يعلم أنى كنت أمر على الرجلين يتنازعان فيذكران الله، فأرجع إلى بيتى، فأكفر عنهما. كراهية أن يذكر الله إلا فى الحق.

قال: وكان يخرج فى حاجته، فإذا قضاها أمسكت امرأته بيده حتى يرجع. فلما كانت ذات يوم أبطأت عليه، فأوحى الله إلى أيوب وهو فى مكانه: (اركض برجلك، هذا مغتسل بارد وشراب).

فاستبطأته، فتلفتت تنظر. وأقبل عليها قد أذهب الله ما به من البلاء، وعلى أحسن ما كان.

فلما رأته قالت: أى بارك الله فيك! هل رأيت نبى الله هذا المبتلى؟ فوالله القدير على ذلك، ما رأيت رجلاً أشبه به منك إذ كان صحيحاً.

قال: فإنى هو. وكان له أندران للقمح والشعير. فبعث الله سحابتين. فلما كانت إحداهما على أندر القمح أفرغت فيه الذهب حتى فاض، وأفرغت الأخرى فى أندر الشعير الوَرِق (الفضة) حتى فاض.

وقال ابن عباس: إن الله ألبسه حلة من الجنة فتنحى أيوب، وجلس فى ناحية، وجاءت امرأته فلم تعرفه فقالت:

- يا عبد الله. أين ذهب هذا المبتلى الذى كان هنا؟ لعل الكلاب ذهبت به أو الذئاب، وجعلت تكلمه ساعة.

فقال: ويحك، أنا أيوب.

قالت: أتسخر منى يا عبد الله؟

قال: ويحك أنا أيوب، وقد رد الله على جسدى.

وقال ابن عباس: ورد الله عليه ماله وولده بأعيانهم، ومثلهم معهم.

وعن أبى هريرة، أن النبى ﷺ قال: لما عافى الله أيوب عليه السلام أمطر عليه جرادا من ذهب. فجعل يأخذ منه بيده ويجعل فى ثوبه. قال: فقيل له يا أيوب أما تشبع؟ قال: يا رب ومن يشبع من رحمتك.

وقيل إن الشيطان كان قد ظهر إلى «رحمة» فى صورة طبيب، ووصف لها دواء لأيوب، فأتته، فأخبرته، فعرف أنه الشيطان. فحلف ليضربنها مائة سوط. فلما عفاه الله عز وجل، أفتاه أن يأخذ ضغثا، ويضرب به زوجته ضربة واحدة ويكون بمثابة مائة سوط، وبذلك يبر بقسمه ولا يحنث.

وقد ذكر القرآن الكريم قصة نبى الله أيوب، يقول تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ﴾ (الأنبياء: ٨٣، ٨٤).

وقال تعالى:

﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ (ص: ٤١ ـ ٤٤).

ومن حديث رسول الله ﷺ يتبين لنا أن أيوب أمضى ثمانية عشر عاماً فى مرضه، لم تفارقه زوجته لحظة واحدة، ولم تتخل عنه، بل حافظت عليه، وتحملت أقسى العبارات، وأنواع التعذيب الجسدى والنفسى، ومع ذلك لم تهن، ولم تضعف، وظلت صابرة مع زوجها، تسعى لإحضار الأكل والشراب له، تحمله فوق رأسها وتطوف به الفيافى والقفار خوفاً من أن يأكله الذئب أو الكلاب، أو غيرهما من الحيوانات الأخرى.

ولم تستسلم لإغراءات الرجال الآخرين الأصحاء والأغنياء، ولم تستسلم لرغباتهم. وإنما حملت زوجها بعيداً، برائحته الكريهة، وظلت ثمانية عشر عاما تشمها وحدها، دون أن تشعر بكره نحوه، أو تتمنى له السوء. وإنما كانت حريصة عليه، حرصها على الحياة، حتى أنعم الله عليه ورد إليه عافيته وصحته، وماله، وعياله، وأهله، رحمة منه، وتقديراً لصبره وتحمله. وتقديراً لزوجته التى عاشت معه طوال هذه السنوات دون شكوى واحدة أو ملل مما أصابه.

ومازال أهل مدينة العريش فى مصر يحتفلون سنوياً بشفاء أيوب، ويستحمون فى البحر فى اليوم السابق لاحتفال شم النسيم، وذلك اقتداء بنبى الله أيوب والذى منَّ الله عليه بالشفاء من الأمراض على شاطئ مدينة العريش.

٣ ـ السيدة خديجة رضى الله عنها وأرضاها

عندما تزوجت السيدة خديجة من محمد ﷺ، وضعت قواعد جديدة لبناء الحياة الزوجية، واختيار الزوج المناسب، قد لا تستطيع نساء هذه الأيام أن يفعلنه، أو يترددن كثيراً فى فعله.

فقد اختارت محمداً زوجاً لها، وبعثت إليه من يخطبه لها ويعرض عليه الزواج بها. وهو أمر قد لا يكون مألوفاً بين نساء العرب فى هذه الأيام، خاصة وأن خديجة لم تكن امرأة عادية تسعى إلى الحصول على زوج، وإنما كانت من سيدات مكة، وأكبر وأعرق بيوتها. وكانت صاحبة تجارة عظيمة، ومركز مالى كبير. وكانت جميلة، عفيفة، يتسابق كبار مكة إلى التقرب منها، والسعى إلى نيل رضاها.

ولكنها وقفت منهم موقف المتفرج، الذى يدرس الأمور جيداً، ويزن الكلام والحديث الذى يقال، ثم يستخلص منه النتائج التى تقوده إلى الطريق الصحيح.

ومن المؤكد أن عملها فى التجارة، ومعاملاتها مع التجار والناس، أكسبتها خبرة عميقة فى كيفية معاملة الناس، وسبر أغوارهم، والتوصل سريعاً إلى رأى سليم فيهم، وفيما يقولون ويسعون.

وكان ذكاؤها يسعفها كثيراً، فى التخلص ممن لا ترغب، فابتعد عنها كل ذى مصلحة وهدف، بعد أن أيقن أن الوصول إليها ضرب من المستحيلات.

ثم جاء محمد ﷺ يعمل فى تجارتها، واكتشفت فيه الصادق الأمين فى كل معاملاته، وكانت ـ مثل كل تاجر محترف وذكى ـ تسأل عنه وعما يفعله أفراد القافلة التجارية والتى كان يقودها النبى. وأخبروها بما لم تعرف ولم تسمع به من قبل فى المعاملات التجارية، وكيف أنه يكشف عن البضاعة السيئة قبل البضاعة الحسنة، ويخبر المشترى عنها حتى لا يغم عليه، فوثق فيه الناس وأقبلوا على تجارته بعد أن تأكدوا من نزاهته.

وأيقنت أنه إنسان صالح، صادق، أمين. فحدثتها نفسها أن تتخذه زوجاً لها، فبعثت إليه من تعرضها عليه بطريقة حسنة مهذبة. وقبل النبى ﷺ.

وهى هنا تذكرنا أيضاً بما قام به عمر بن الخطاب بعرض ابنته حفصة للزواج على كبار الصحابة بعد استشهاد زوجها فى أحد. ولم يجد عمر فى ذلك أى حرج، وإنما أراد أن يجد لابنته زوجاً صالحاً، يثق فيه، وفى أخلاقه وتصرفاته، وأنه سيكون عليها نعم الزوج الأمين، ثم تزوجت من رسول الله ﷺ.

ونحن نقف هنا أمام مثلين. امرأة تعرض نفسها للزواج على رجل صالح، وأب يعرض ابنته للزواج من رجل صالح. وكلاهما من كبار القوم فى مكة والمدينة حيث عاش عمر بعد الهجرة هناك. وكلاهما لم يتردد لحظة واحدة فى عملية البحث، وعندما وجد الفرصة لم يتردد فى استغلالها والاندفاع إليها.

لم تمنع الأموال والتجارة الكبيرة والعريضة، والمركز العائلى خديجة من أن تعرض نفسها زوجة على رجل فقير، ولكنه صادق وأمين وتقى وورع ويخاف الله. وهذا ما تنشده أى امرأة مخلصة تبغى حياة زوجية مستقرة آمنة. فالمال يأتى ويذهب، ولكن القيم والمبادئ والأخلاق تظل باقية أبد الدهر.

وكان نفس الأمر بالنسبة لعمر، فهو ينشد لابنته زوجاً طيباً صالحاً، يرعى حقوق ابنته.

ومن الطريف أن المؤرخ (مرجيلوت) فى كتابه حياة محمد يؤرخ للنبى ﷺ باليوم الذى لقى فيه خديجة، ومدت له يدها تقديراً له. كما يؤرخ لحادث هجرته إلى يثرب باليوم الذى خلت فيه مكة من خديجة ورقدت تحت الثرى. وإن كان قد ذهب إلى تفسير مكانة خديجة عند محمد ﷺ، بأنه يرجع إلى مالها. فقد كانت غنية وهو شاب فقير، ومن ثم سعى إليها، لكى يستفيد من مالها ويقول: إن دعوة خديجة للزواج منه جاءت محمداً وهو يجتر كلمات

مريرة سمعها من عمه أبى طالب حين خطب إليه ابنته (أم هانئ) فرده لفقره، وزوجها لذى مال. واستشعر محمد ذل الفقر ومهانته. فما كاد يسمع عن رغبة خديجة فى الزواج منه حتى أقبل متلهفاً على الثراء، يداوى به جرح كرامته التى أهدرها الفقر[1]. هكذا يقول هذا الرجل وغيره من بعض المستشرقين وقد شط بهم الباطل إلى مكان بعيد.

ووقفت خديجة إلى جانب زوجها، عندما احتاج إليها وكانت نعم الزوجة المخلصة الوفية.

فقد قدم إليها بعد أن زاره الوحى خائفاً، ينشد الأمن والأمان، ويسألها رأيها الراجح. فاحتوته بين يديها، وضمته إليها، وقد أخذها منظره، شاحب الوجه مرتعد الأوصال، فبثت فيه من روحها الهادئة المطمئنة، حتى هدأ واستقر نفساً، وقالت له:

«الله يرعانا يا أبا القاسم، أبشر يا ابن عم وأثبت فوالذى نفس خديجة بيده إنى لأرجو أن تكون نبى هذه الأمة. والله لا يخزيك أبداً. إنك لتصل الرحم. وتصدق الحديث. وتحمل الكَلَّ، وتقرى الضيف، وتعين على نوائب الحق».

ومازالت به، تهدهده وتضمه، وتبث فيه الطمأنينة حتى أخذته سنة من النوم.

وتركته، وانطلقت إلى بيت ابن عمها ورقة بن نوفل. وأخبرته بأمر محمد، وما كان عليه هذا اليوم، وتلتمس منه الإجابة والحكمة والعظة.

وإذا بالرجل يخبرها بالكثير، وأنه سيكون نبى هذه الأمة.

وعادت إلى زوجها تنقل إليه الخبر السعيد، وكان لايزال نائماً، فإذا به يقوم فجأة، ويتفصد عرقاً، وتتثاقل أنفاسه، ثم يتلو فى بطء:

(١) تفصيلات أخرى فى كتاب فوزى شعبان (مكائد النساء فى حياة الرسل والأنبياء) إصدار دار الأحمدى للنشر.

﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴿٥﴾ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ (سورة المدثر: ١ - ٧).

وذلك بعد أن نزلت عليه الآيات الأولى من سورة العلق أول الأمر.

ونظر، فإذا زوجته حانية عليه. فأخبرها أن أيام الراحة، قد ولت وبعدت، وأن أيام التعب قد قدمت. وأن جبريل أمره أن ينذر الناس، وأن يدعوهم إلى عبادة الله الواحد الأحد، الفرد الصمد، وترك عبادة الأوثان.

وأخبرته بما قاله ورقة بن نوفل، وأنها أول من تؤمن وتسلم لله رب العالمين من النساء.

وبدأت أيام الشقاء والعناء، وخديجة إلى جانب زوجها صابرة، مؤمنة، متحملة لكل صنوف العذاب والهوان.

ومكثت معه فى شعب أبى طالب ثلاث سنوات، تتحمل الجوع، والمرض، والبرد والحر، ولم تشك لحظة واحدة، وإنما كانت ترعى النبى وترعى معه المؤمنين الذين حُبسوا معه فى شعب بنى طالب، وفرضت عليهم قريش حصاراً شديداً، وسجلت مقاطعتها لهم فى صحيفة علقت فى جوف الكعبة.

وماتت خديجة. بعد أن أدت دورها كما يجب أن تؤديه الزوجة لزوجها.

وحفظ لها النبى ﷺ كل ما فعلته، ودعا لها كثيراً. وأحب كل من أحبتهم، ولم يسمح لأحد أن يقول عنها شيئاً حتى ولو كانت (عائشة) والتى كان يقول لها دائماً: إن حبك يا عائشة فى القلب كالعروة الوثقى. وكان يسأل الله أن يغفر له فيما لا يملك وهو حبه لعائشة.

فعندما زارته ذات يوم (هالة بنت خويلد) شقيقة خديجة أسرع إليها مرحباً سعيداً، يهتف من أعماق قلبه، بعد أن تذكر بها خديجة، وأيامها ولياليها، وقال:

- «اللهم هالة».

فلم تتمالك عائشة نفسها من الغيظ وقالت:

ما تذكر من عجوز من عجائز قريش، حمراء الشدقين، هلكت فى الدهر، أبدلك الله خيرا منها.

فغضب النبى، وتغير وجهه وقال لها:

«والله ما أبدلنى الله خيرا منها. آمنت بى حين كفر الناس، وصدقتنى إذ كذبنى الناس. وواستنى إذ حرمنى الناس. ورزقنى منها الولد دون غيرها من النساء.»

وعندما أخذتها الغيرة مرة من خديجة.

قالت له ذات يوم، بعد أن كثر ذكره لفضائل خديجة:

كأن لم يكن فى الدنيا امرأة إلا خديجة.

فأجابها النبى ﷺ من فوره:

«إنها كانت.. وكانت.. وكان لى منها الولد».

وحتى فى يوم فتح مكة، لم ينسها رسول الله ﷺ، وقد مضى على فراقها له أكثر من عشر سنوات، فأقام معسكره إلى جوار قبرها، وكأنه يشركها فى هذا الفتح العظيم على الإسلام والمسلمين. فقد كانت واحدة من صاحبات الفضل.

كانت سيدة عظيمة، وزوجة وفية مثالية، ظلت إلى جوار زوجها فى لحظات الضيق، تشد من أزره، وتعينه على مصائب الأيام، حتى اشتد ساعد الإسلام وانتشر نوره فى كل أرجاء المعمورة ولهذا بشرها ربها تعالى ببيت فى الجنة من قصب اللؤلؤ لا صخب فيه ولا نصب. فقد كان الجزاء من جنس العمل.

عاشرا ـ كبسولات لتقوية..
العلاقات الزوجية

هناك أشياء صغيرة أوصى بها الدين الإسلامى الرجل وامرأته، لكى ينعما بحياة سعيدة مستقرة، ترتبط بالعلاقة الزوجية، وعلاقة الأب بأولاده، والأم بأولادها، لكى تكون فى النهاية هناك أسرة مسلمة صغيرة مؤمنة، تعمل بكتاب الله، وسنة نبيه، وتربى أولادها على مكارم الأخلاق، وحسن فهم الدين الإسلامى، والتفقه فيه، والعمل به.

ابتسامة الزوج والزوجة

فابتسامة الزوج أو الزوجة فى وجه زوجها صدقة ـ كما يقول رسول الله ﷺ ـ لأنها تنعش النفوس، وتزيل الهموم، وتقرب العلاقات، وتقضى على الاختلافات.

وعلى الزوجة أن تتزين وتتجمل لزوجها، وكذلك على الزوج أن يفعل مثل ذلك. فكما يريد الزوج أن يرى زوجته فى صورة جميلة، فكذلك الزوجة من حقها أن ترى زوجها فى الصورة التى تحب وتهوى.

نساء جهنم

والزوج مطالب بالصبر على أخطاء زوجته، فليس هناك من هو معصوم من الخطأ، والعكس أيضا صحيح فالزوجة مطالبة بالصبر على زوجها، وخاصة فى هذه الأيام، حيث مصاعب الحياة ومطالبها القوية، مع ضعف الموارد المالية للرجل أمام غلاء الأسعار مما يصيب الأزواج بالشعور بالإحباط وهم يرون مرتباتهم لا تستطيع تحقيق الاكتفاء الذاتى للأسرة، وتحقيق مطالبها، ومطالب الأبناء.

عن ابن عباس قال قال النبى ﷺ : «رأيت النار فوجدت أكثر أهلها النساء. قيل أيكفرن بالله؟.

قال: يكفرن العشير، ويكفرن الإحسان لو أحسنت إلى إحداهن الدهر، ثم رأت منك شيئاً قالت: ما رأيت منك خيرا قط».

وعن أسامة عن النبى ﷺ قال: «قمت على باب الجنة فإذا عامة من دخلها المساكين وأصحاب الجد محبوسين، غير أن أهل النار قد أُمر بهم إلى النار، وقمت على باب النار فإذا عامة من دخلها من النساء».

وعن أبى سعيد الخدرى قال: خرج علينا رسول الله ﷺ فى أضحى أو فطر. إلى المصلى، فمر على النساء فقال:

«يا معشر النساء تصدقن، فإنى رأيتكن أكثر أهل النار. فقلن: وبم يا رسول الله؟

قال: تكثرن اللعن، وتكفرن العشير. ما رأيت ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن.

قلن: وما نقصان عقلنا وديننا يا رسول الله؟

قال: أليس شهادة المرأة نصف شهادة الرجل؟

قلن: بلى.

قال: فذلك من نقصان عقلها.

أليس إذا حاضت لم تصل ولم تصم؟

قلن: بلى.

قال: فذلك من نقصان دينها».

وعن ابن عباس. أن رسول الله ﷺ قال: «إنى رأيت الجنة وتناولت عنقودا، ولو أصبته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا. ورأيت النار فلم أر منظرا كاليوم قط. ورأيت أكثر أهلها النساء.

قالوا: بم يا رسول الله؟.

قال: يكفرن.

قيل: يكفرن بالله؟

قال: يكفرن العشير، ويكفرن الإحسان. لو أحسنت إلى إحداهن الدهر كله ثم رأت منك شيئا، قالت: ما رأيت منك خيرا قط».

لا تخطب على خطبة أخيك

ولا يحق للمسلم أن يخطب على خطبة أخيه، حتى يتركها وينتهى أمره منها. ومن حسن صفات المؤمن أن يستأذن خاطبها الأول فى خطبتها، فقد يكون هناك شىء ما مازال معلقا بينهما، ولا يعرفه أو يدرى به سواهما. خاصة فى أيامنا هذه، حيث كثرة المشاكل والصعوبات أمام إتمام الزواج، وقد يكون الأمر معلقا بالاتفاق بين الاثنين إلى حين ميسرة لإتمام الخطبة والزواج.

يقول أبو هريرة عن رسول الله ﷺ: «ولا يخطب على خطبة أخيه، ولا تسأل المرأة طلاق أختها، لتكفأ ما فى إنائها».

ويقول ابن عمر: نهى النبى ﷺ أن يبيع بعضكم على بيع بعض، ولا يخطب الرجل على خطبة أخيه، حتى يترك قبله، أو يأذن له الخاطب.

وعن عائشة ﵂: أن النبى ﷺ خطبها إلى أبى بكر، فقال له أبو بكر ﵁: إنما أنا أخوك.

فقال: أنت أخى فى دين الله وكتابه، وهى لى حلال.

لا تطاردى خطيب صديقتك

ولا يحق للمرأة أن تسعى فى خراب بيت أختها، أو صديقتها، أو جارتها، أو زميلتها. كما يحدث هذه الأيام، حيث نجد بعض الفتيات يسْعَوْنَ إلى مطاردة خطيب صديقاتهن أو شقيقتهن طمعا فى ماله. وفى نفوذه، ومركزه الاجتماعى، أو وسامته وقسامته ورجولته. وصفحات الحوادث فى الجرائد اليومية مليئة بمثل هذه الحوادث، وبما هو أبشع منها ومحرم. حيث تطارد البنت زوج أمها مثلا أو زوج عمتها أو خالتها.

عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: «لا يحل لامرأة تسأل طلاق أختها،

لتستفرغ صحفتها، فإنما لها ما قدر لها». (رواه البخارى)

وقال جابر: نهى رسول الله ﷺ أن تنكح المرأة على عمتها، أو خالتها.

ممنوع رجل وامرأة

ولا يحق لرجل أن يخلو بامرأة منفردين، ذلك أنه ما اجتمع رجل وامرأة إلا وكان الشيطان ثالثهما. كما قال النبى ﷺ.

وعن عقبة بن عامر أن رسول الله ﷺ

قال:

«إياكم والدخول على النساء».

فقال رجل من الأنصار: يا رسول الله أفرأيت الحمو؟ (أقارب الزوج)

قال: «الحمو الموت».

ممنوع المخنث

ونهى النبى ﷺ عن دخول المخنث إلى البيت، احتراما لأهله، واحتراما لنسائه، وتقديرا لرجاله. والمخنث هو من يتشبه بالنساء فى حركاته أو كلامه.

عن أم سلمة قالت: دخل علىَّ النبى ﷺ وعندى مخنث، فسمعه يقول لعبد الله بن أمية: يا عبد الله أرأيت إن فتح الله عليكم الطائف غدا، فعليك بابنة غيلان، فإنها تقبل بأربع وتدبر بثمان. (يصفها بضخامة جسدها)

فقال النبى ﷺ: «لا يدخلن هؤلاء عليكن».

دخول البيوت بالاستئذان

ولابد من الاستئذان قبل دخول البيت المسلم، ويروى أبو موسى أنه استأذن للدخول على عمر فلم يؤذن له. وكأنه كان مشغولا. فرجع. وفرغ عمر

وقال: ألم أسمع صوت عبدالله بن قيس، ائذنوا له. قيل قد رجع. فدعاه.

فقال: كنا نؤمر بذلك. فقال: تأتينى على ذلك بالبينة.

فانطلق إلى مجلس الأنصار فسألهم فقالوا: لا يشهد لك على هذا إلا أصغرنا أبو سعيد الخدرى.

فذهب بأبى سعيد الخدرى، فقال عمر: أخفى على هذا من أمر رسول الله ﷺ، ألهانى الصفق بالأسواق (الخروج إلى التجارة).

وتضمنت آيات القرآن الكريم، ضرورة استئذان المسلم قبل دخول البيت، والسلام على أهله.

وحتى الصغار والأطفال لابد أن يستأذنوا قبل الدخول إلى آبائهم فى أوقات حددها القرآن الكريم.

يقول تعالى فى سورة النور:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلاثَ مَرَّاتٍ مِّن قَبْلِ صَلاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلاةِ الْعِشَاءِ ثَلاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ الأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (الآية ٥٨ ـ ٥٩)

ويضع القرآن الكريم أسس احترام البيوت وأهلها، فلابد من الاستئذان قبل دخول بيوت الأهل والأقارب والجيران. فقد يكونون فى راحة، أو تعب. فإن لم يؤذن له بالدخول عاد من حيث أتى.

ومن هنا نتبين عادة احترام مواعيد الزيارة عند الغرب، فلا يسمح لأى إنسان ـ حتى ولو كان من الأهل ـ بدخول البيت فى أى وقت دون موعد سابق. والموعد يحدد بالساعة والدقيقة. فإن تأخر عن موعده، فلا حرج على أهل

البيت أن هم خرجوا، سعيا للرزق، أو لأغراض منزلية. فقد انتهى الموعد ولم يحضر صاحبه فهى مسئوليته. وإذ لم يعتذر عن ذلك كان هذا ذنبا كبيرا.

فاحترام الموعد من احترام الإنسان.

وأذكر أنه فى إحدى زياراتى الرسمية لألمانيا بدعوة من وزارة الخارجية بها، أن تحدثنا عن المواعيد واحترامها، وقال المسئول الألمانى وهو يعتذر: إذا أخذنا موعدا مع مسئول عربى نسأله: موعد عربى.. أم موعد ألمانى. فنحن نعرف أن العربى يقول قادم لزيارتك قبل المغرب مثلا أو بعد العشاء وهو أمر قد يطول إلى الفجر. ذلك لأن الوقت ليس له قيمة عند العرب.

ولهذا يحثنا الله سبحانه وتعالى أن يستأذن الصغار ومن لم يبلغوا الحلم قبل صلاة الفجر حيث يكون الناس فى ثياب النوم أو يستعدون للخروج. ووقت الظهيرة عند القيلولة، حيث يرتدى الإنسان ملابس النوم للراحة. وبعد صلاة العشاء حيث الاستعداد للنوم.

وسماها (عورات) لانكشاف العورات فيها. وهو أدب يغفله الكثيرون فى حياتهم المنزلية ـ كما يقول سيد قطب ـ مستهينين بآثاره النفسية والعصبية والخلقية. ظانين أن الخدم لا تمتد أعينهم إلى عورات السادة. وأن الصغار قبل البلوغ لا ينتبهون إلى هذه المناظر. بينما يقرر علماء النفس أن بعض المشاهد التى تقع عليها أنظار الأطفال فى صغرهم هى التى تؤثر فى حياتهم كلها، وقد تصيبهم بأمراض نفسية وعصبية يصعب الشفاء منها فما أعظم أدب القرآن.

والله عز وجل يؤدب المؤمنين بهذه الآداب، وهو يريد أن يبنى أمة سليمة الأعصاب، سليمة الصدور، مهذبة المشاعر، طاهرة القلب، نظيفة التصورات.

وإذا أدرك الصغار سن البلوغ، فإنهم يدخلون فى حكم الأجانب، الذين يجب أن يستأذنوا فى كل وقت، حسب النص العام.

ستر العورة

ويطالب رسول الله ﷺ، بضرورة ستر العورة، سواء عند الرجال أو النساء أيضا. فما يطبق على هذا، من باب أولى وأحق يطبق على الآخر.

عن جابر بن عبدالله-يحدث أن رسول الله ﷺ فى صباه قبل البعثة كان ينقل معهم حجارة الكعبة وعليه إزاره، فقال له العباس عمه: يا ابن أخى لو حللت إزارك فجعلته على منكبيك دون الحجارة؟. قال: فحله. فجعله على منكبيه، فسقط مغشيا عليه، فما رؤى بعد ذلك عريانا.

وعن أبى سعيد الخدرى أنه قال: نهى النبى ﷺ عن اشتمال الصماء (أى كالصخرة مسدودة المنافذ فيعسر على المشتمل ستر العورة) وأن يحتبى الرجل فى ثوب واحد ليس على فرجه منه شىء.

خروج الزوجة بإذن زوجها

كما أن الزوجة المسلمة، لا تخرج من بيت زوجها إلا وقد سترت ما أمر به الله عز وجل أن يستر.

يقول سبحانه وتعالى فى سورة الأحزاب:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ (الأحزاب الآية: ٥٩)

ويقول الإمام أبو الحسن النيسابورى فى أسباب نزول هذه الآية إن الناس من فساق أهل المدينة كانوا يخرجون بالليل حين يختلط الظلام المدينة، فيتعرضون للنساء.

وكانت مساكن أهل المدينة ضيقة، فإذا كان الليل خرج النساء إلى الطريق يقضين حاجتهن، فكان أولئك الفساق يبتغون ذلك منهن، فإذا رأوا المرأة وعليها حجاب، قالوا: هذه حرة فكفوا عنها. وإذا رأوا المرأة ليس عليها حجاب قالوا: هذه أمة، فوثبوا عليها.

وقال مجاهد: يتجلببن فيعلم أنهن حرائر، فلا يتعرض لهن الفساق بريبة أو أذى.

وروى البغوى عن أنس قال: مرت بعمر بن الخطاب جارية مقنعة، فعلاها بالدرة، وقال: يا لكاع، أتتشبهين بالحرائر. ألق القناع.

وقالت عائشة ﵂: لقد كان رسول الله ﷺ يصلى الفجر، فيشهد معه نساء من المؤمنات متلفعات فى مروطهن (مغطيات رؤوسهن) ثم يرجعن إلى بيوتهن، ما يعرفهن أحد.

وما أحوجنا فى هذه الأيام أن نقتدى بما كانت عليه نساء النبى، ونساء المسلمين والمؤمنين من قبل، ونحن نرى ما يبثه التلفزيون على القنوات المحلية والفضائية من أغان خليعة، ومطربات لايكسو جسدهن إلا بعض قطع قماش كأوراق التوت.

وكأن فى ذلك تنفيذ غير معلن للوصايا الأمريكية للدول العربية والإسلامية، بالتخفيف من أمور الدين، ونشر أفلام وأغانى الجنس والعرى بين الشباب لإفسادهم، باعتبارهم رجال الغد، وقادة المستقبل.

وحتى يصبح الأمر وكأنه شىء عادٍ مباح ومستباح لكل من هب ودب.

الخروج للضرورة فقط

وليس معنى الحجاب ألا تخرج المرأة لقضاء حاجتها، وإنما عليها فقط أن تراعى دينها وربها.

تقول عائشة: خرجت سودة بعد ضرب الحجاب لحاجتها، وكانت امرأة جسيمة لا تخفى على من يعرفها. فرآها عمر بن الخطاب فقال: يا سودة أما والله ما تخفين علينا، فانظرى كيف تخرجين.

قالت: فانكفأت راجعة ورسول الله ﷺ فى بيتى، وأنه ليتعشى وفى يده عرق (عظم عليه لحم) فدخلت. فقالت: يا رسول الله إنى خرجت لبعض

حاجتى. فقال لى كذا وكذا.

قالت: فأوحى الله إليه. ثم رفع عنه، وإن العرق فى يده ما وضعه فقال: إنه قد أذن لكن أن تخرجن لحاجتكن.

ويقول أنس بن مالك فى أسباب نزول آية الحجاب، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

قلت يا رسول الله يدخل عليك البر والفاجر فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب. فأنزل الله تعالى آية الحجاب (رواه البخارى)

وقال مجاهد: إن رسول الله ﷺ، كان يطعم معه بعض أصحابه، فأصابت يد رجل منهم يد عائشة، وكانت معه. فكره النبى ﷺ، فنزلت آية الحجاب.

الاستمتاع بمباهج الحياة

وشجع الدين الإسلامى الزوج أن يذهب مع زوجته وأولاده لمشاهدة الملاهى، وما يسرى عنهم متاعب الحياة.

تقول عائشة: رأيت رسول الله ﷺ يوما على باب حجرتى، والحبشة يلعبون فى المسجد (تدريب على حركات الحرب) ورسول الله يسترنى بردائه. أنظر إلى لعبهم.

وفى رواية أخرى. يلعبون بحرابهم.

وفى هذا دعوة للأسرة المسلمة أن تروح عن نفسها ساعة حتى لا تموت القلوب وتصدأ، كما قال لنا رسول الله ﷺ. وأن تعيش الحياة بكل ما فيها من خير ونعمة من الله، وأن نعد الرحلات لأولادنا، وأن نذهب بهم إلى الحدائق والمتنزهات العامة، واستعراضات السيرك، وأماكن اللهو البريئة، مع التمسك بالحشمة وألا نترك نعم الله ينعم بها الآخرون ويجلس المسلمون فى مقاعد المتفرجين.

وحتى لا يكون أبناء المسلمين، أقل من غيرهم خبرة ومعرفة وعلما من

الآخرين، فيؤثر ذلك على تكوينهم، وشخصياتهم فى المستقبل. فالسنوات القادمة سوف تشهد تقدما علميا مذهلا ولابد لأبناء المسلمين أن يعرفوه، ويتعلموه، ويعيشوه، وأن يشاركوا فى صنعه أيضا. حتى يثبتوا وجودهم على الخريطة الدولية.

وقد حث رسول الله ﷺ نساء المسلمين على حضور الأفراح، وإظهار السعادة، والتمتع بما فيها من لهو وطرب مباح.

تقول عائشة: إنها زفت امرأة إلى رجل من الأنصار، فقال نبى الله ﷺ:

«يا عائشة ما كان معكم لهو؟ وقال: إن الأنصار يعجبهم اللهو» (رواه البخارى)

تلبية دعوات الأفراح والولائم

ودعا النبى المسلمين إلى تلبية دعوات الأفراح والولائم. عن ابن عمر قال: إن رسول الله ﷺ قال: «إذا دعى أحدكم إلى وليمة فليأتها».

وعن أنس بن مالك قال: ما أولم النبى ﷺ على شىء من نسائه ما أولم على زينب. أولم بشاة.

وقالت صفية بنت شيبة: أولم النبى ﷺ على بعض نسائه بمدين من شعير.

الإعلان عن الزواج

والنبى يدعو المسلمين ونساءهم أيضا إلى الإعلان عن الزواج بالدف حتى يعرف، ويفرح الناس. وكان يحث المسلمين على التمتع بمباهج الحياة البريئة.

سفر المرأة

ولا يجوز للمرأة أن تسافر وحدها. وإن كان رجال الفقه أجازوا ذلك فى حالات الضرورة.

عن أبى هريرة قال: قال النبى ﷺ: «لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تسافر مسيرة يوم وليلة ليس معها حرمة» (أى رجل ذو حرمة).

وعن أبى سعيد ـ وقد غزا مع النبى ثنتى عشرة غزوة ـ قال: أربع سمعتهن من رسول الله ﷺ: أن لا تسافر امرأة مسيرة يومين، ليس معها زوجها أو ذو محرم، ولا صوم يومين، الفطر والأضحى، ولا صلاة بعد صلاتين، بعد العصر حتى تغرب الشمس، وبعد الصبح حتى تطلع الشمس، ولا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام ومسجدى هذا والمسجد الأقصى.

ويقول ابن عباس أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لا يخلون رجل بامرأة، ولا تسافر امرأة إلا ومعها محرم.

فقام رجل فقال: يا رسول الله كتبت فى غزوة كذا وكذا وخرجت امرأتى حاجة. فقال: اذهب فحج مع امرأتك» (رواه البخارى)

مساعدة الزوجة فى أعمال البيت

وحث النبى ﷺ الزوج المسلم على مساعدة زوجته فى أعمال البيت، وليس فى ذلك أى عيب ولكن بعض الأزواج يعتقدون أن أعمال المنزل من شأن الزوجة وحدها، وأنه لو ساعد امرأته لكان فى ذلك، سخرية منه. وإقلالاً من شأنه وضعفاً لرجولته. وإنقاصاً من قدره.

رغم أن النبى ﷺ كان يساعد نساءه فى أعمال البيت، فإن لم توجد، كان يخيط نعله أو ثوبه، دون أى حساسية مفرطة كما نراها فى بعض أزواج هذه الأيام.

عن عائشة أنها سئلت عن النبى ما كان يصنع فى بيته؟ قالت: كان يكون فى مهنة أهله.

تعنى فى خدمة أهله. فإذا حضرت الصلاة خرج إلى الصلاة.

ممنوع الدخول على الزوجة فجأة

ونهى النبى ﷺ أن يدخل الزوج على زوجته فجأة بعد طول سفر، حتى لا يؤذيها، أو يصيبها بشيء من أثر الصدمة والفرحة بعودته المفاجئة أو يجدها على غير استعداد لمقابلته أو على منظر لا يسر.

يقول جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «إذا طال أحدكم الغيبة فلا يطرق أهله ليلا».

وقال أيضا ﷺ: «إذا دخلت ليلا فلا تدخل على أهلك حتى تستحد المغيبة، وتمتشط الشعثة».

ويقول أنس: كان النبى ﷺ لا يطرق أهله ليلا. كان لا يدخل إلا غدوة أو عشية.

وعن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: «السفر قطعة من العذاب يمنع أحدكم طعامه وشرابه ونومه، فإذا قضى نهمته فليعجل إلى أهله».

شرف الزوجة

ويحمى النبى ﷺ الزوجة من سوء الظن بها، ويقطع دابر الشك، ويثبت فى عقل الزوج وقلبه، شرف زوجته وبراءتها.

فقد سأله رجل ـ كما قال أبو هريرة ـ يا رسول الله: ولد لى غلام أسود (وكان الرجل أبيض البشرة)؟! فقال النبى: هل لك من إبل؟. قال: نعم. قال النبى: ما ألوانها؟ قال الرجل: حمر. قال النبى: هل فيها من أورق (الجمل الذى فى لونه بياض إلى سواد)، قال نعم: قال: فأنى ذلك: قال: لعله نزعه عرق؟. قال: فلعل ابنك هذا نزعه عرق.

الصبر على أخطاء الزوجة

وحث الزوج على الصبر على أخطاء زوجته، وتحمل كل ما تقوم به أو تفعله دون قصد منها.

عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فلا يؤذى جاره، واستوصوا بالنساء خيرا، فإنهن خلقن من ضلع وإن أعوج شىء فى الضلع أعلاه، فاستوصوا بالنساء خيرا».

وعن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: إنى أعلم إذا كنت عنى راضية، وإذا كنت على غضبى. قالت قلت: من أين تعرف ذلك؟ فقال: أما إذا كنت عنى راضية فإنك تقولين لا ورب محمد، وإذا كنت على غضبى قلت: لا ورب إبراهيم.

قالت: قلت: أجل والله يا رسول الله ما أهجر إلا اسمك.

ممنوع دخول الأغراب

ولا يحق للزوجة أن تدخل رجلا آخر فى غياب زوجها، ولا أن تسمح لأحد آخر بزيارتها إلا بإذنه، ولا تتفق على شىء إلا بمعرفته وموافقته.

عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: «لا يحل لامرأة أن تصوم (صوم نفل) وزوجها شاهد إلا بإذنه، ولا تأذن فى بيته إلا بإذنه، وما أنفقت من غير أمره فإنه يؤدى إليه شطره».

الزوج البخيل

وإذا كان زوجها بخيلا مقترا عليها وعلى أولادها فمن حقها من أن تأخذ من ماله ما يكفيهم ويكفيها ولا تزيد.

عن عائشة. قالت هند أم معاوية لرسول الله ﷺ: إن أبا سفيان رجل شحيح، فهل على جناح أن آخذ من ماله سرا؟.

قال: خذى أنت وبنوك ما يكفيك بالمعروف.

خدمة الزوج

وعلى الزوجة أن تقوم على خدمة زوجها، إذا كانت موارده محدودة، ولا تمكنه من إحضار خادمة لها تساعدها فى أعمال البيت.

فقد تزوجت فاطمة بنت رسول الله ﷺ من على بن أبى طالب، وكان من فقراء قريش، ويعيش حياة صعبة جافة. وكانت زوجته فاطمة تأمل فى أن يحضر لها جارية أو خادمة تساعدها، لكن إمكاناته المادية لم تسمح له بذلك. وكانت فاطمة - وهى بنت رسول الله ﷺ - تعمل بيدها فى البيت ليل نهار. تخدم زوجها وأولادها دونما كلل أو ملل.

وقصدت ذات يوم بيت أبيها علها تحصل على جارية تعينها على أعمال البيت وطحن الحبوب بالرحا. وشكت أمرها إلى أم المؤمنين عائشة ؓ. عليها تخبر الرسول بأمرها.

فلما جاء النبى ﷺ أخبرته عائشة بمجىء فاطمة. قال على بن أبى طالب: فجاء النبى ﷺ إلينا، وقد أخذنا مضاجعنا، فذهبت لأقوم فقال: على مكانكما، فقعد بيننا حتى وجدت برد قدميه على صدرى. وقال: «ألا أعلمكما خيرا مما سألتمانى، إذا أخذتما مضاجعكما تكبرا أربعا وثلاثين، وتسبحا ثلاثا وثلاثين، وتحمدا ثلاثا وثلاثين، فهو خير لكما من خادم».

إعانة المرأة زوجها على مصائب الأيام

وعليها أن تعين زوجها على تحمل مصائب الأيام، وما يأتى به المستقبل من آلام ومحن، وأن تساعده على الصمود فى مواجهة المشاكل والهموم.

عن أنس قال: مات ابن لأبى طلحة، وأبو طلحة خارج، فلما رأت امرأته أنه قد مات، هيأت شيئاً ونحته فى جانب البيت، فلما جاء أبو طلحة قال: كيف الغلام؟ قالت: قد هدأت نفسه، وأرجو أن يكون قد استراح، فبات، فلما أصبح اغتسل، فلما أراد أن يخرج أعلمته أنه قد مات، فصلى مع النبى ﷺ ثم أخبره بما كان منها. فقال رسول الله ﷺ: «لعل الله تعالى أن يبارك لكما فى ليلتكما».

قال رجل من الأنصار: فرأيت له تسعة أولاد كلهم قد قرأوا القرآن.

لا تمتنع عن زوجها

وألا تمتنع عن زوجها متى أرادها. ففى ذلك صون وعفة لهما.

يقول أبو هريرة. قال رسول الله ﷺ: «إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه، فأبت، فبات غضبان عليها، لعنتها الملائكة حتى تصبح».

العدل بين الزوجات

وعلى الزوج أن يعدل بين زوجاته، إن كان قد تزوج بأكثر من واحدة. والعدل يشمل كل شىء حتى الكلمة الحلوة، والمعاشرة، والهدايا، والخروج إلى الملاهى والمتنزهات، والقيام بالرحلات.

فالعدالة المادية مطلوبة وضرورية، وسوف يحاسب الله عز وجل الزوج عليها.

وأما عدالة القلب والهوى، والميل إلى إحداهن فهى مسألة لا يستطيع أحد أن يفعل فيها شيئاً. حتى النبى ﷺ. كان يعدل بين زوجاته فى كل شىء، عدا القلب وهواه. «وكان يقول اللهم هذا عدلى فيما أملك فلا تحاسبنى فيما تملك ولا أملك».

قوة النبى

وكان النبى عادلا بين زوجاته، حتى فى الفراش فقد اختص كل واحدة منهن بليلة لها، وقد تنازلت (سودة) عن ليلتها إلى عائشة إرضاء إلى رسول الله ﷺ.

وكان النبى قد فكر فى أن يسرح (سودة) سراحاً جميلاً فقد كان يشفق عليها من الحرمان العاطفى، ومن حقها كزوجة.

ولكنها أمسكت بيد النبى وتضرعت إليه أن يستبقيها، فقد كبرت فى السن، ولم ترغب فيما ترغب فيه الزوجات، وكل ما تريده أن يبعثها الله يوم القيامة زوجة له.

فرق لها قلب النبى، وهو الذى أراد أن يطلقها ليحفظ لها كرامتها كامرأة، لكنها آثرت أن تبقى فى بيته وإلى جواره إلى أن يشاء الله.

ولم يحدث أن شكت إحدى زوجاته من تقصيره تجاهها وعدم مراعاة حقوقها الزوجية.

عن أنس قال: كان رسول الله ﷺ يدور على نسائه فى الساعة الواحدة من الليل والنهار، وهن إحدى عشرة، وفى رواية تسع نسوة. قيل: أو كان يطيق ذلك؟ قال: كنا نتحدث أنه أعطى قوة ثلاثين. (رواه البخارى).

البحث عن زوج للابنة

يجوز للأب المسلم أن يعرض ابنته للزواج على من يرى أنه أهل لها. وليس فى ذلك عيب، أو مخالفة للدين والشرع، والمنهج الإسلامى الصحيح.

والمثل الشعبى فى مصر يقول (اختار لبنتك ولا تختار لابنك). لأن البنت إن تزوجت من رجل صالح مؤمن، يحافظ عليها، ويرضيها، ويسعدها، ويدخل البهجة إلى قلبها، ويقف إلى جوارها إن أصابها مكروه، وإن مرضت سهر عليها الليالى حتى تشفى، ولا يعايرها بأهلها إن كان فيهم سوء.

ثم إنه إذا حدث بينهما شقاق وكان معه الطلاق والانفصال هو الحل الذى يرضى كل الأطراف. سرحها سراحاً جميلاً. ولم يستغل الموقف، أو يملى شروطه، أو يتحكم، أو يتركها كالمعلقة. وإنما طلقها فى كرامة واحترام، وأعادها إلى أهلها كريمة عزيزة.

وقد فعلها عمر بن الخطاب، وأخذ يبحث لابنته حفصة عن زوج بعد أن ترملت ومات زوجها خنيس بن حذافة السهمى بعد أن شهد موقعة بدر، وتوفى فى المدينة.

ولم يستنكف عمر ذلك، ولم يستنكفه المسلمون والصحابة وهو يعرض عليهم الزواج من ابنته، وإنما قدروه واحترموه لأنه يبحث لابنته عن زوج

صالح، يصون عرضها، ويحفظ لها شبابها، ويحمل معها هم الأيام القادمة والمستقبل، ويكون شريكاً لها فى مسيرة الحياة.

وذهب عمر إلى أبى بكر الصديق يعرضها عليه لكى يتزوجها.

وقال له:

- إن شئت أنكحتك (زوَّجْتك) حفصة بنت عمر.

فقال أبو بكر:

- لا رغبة لى فى الزواج.

فلم ييئس عمر، أو يأخذه الضيق من قول أبى بكر، وإنما أخذ يسعى بين كل أصحاب رسول الله ﷺ عله يجد لها زوجاً مناسباً.

وقصد عثمان بن عفان وقال:

- إن شئت أنكحتك حفصة بنت عمر.

قال له عثمان حزيناً:

- سأنظر فى أمرى.

ومرت أيام. وخطبها النبى ﷺ، دعما للصداقة والعلاقة القوية التى تربطه بعمر.

وبعد أيام قابل أبا بكر الصديق، فقال له أبو بكر:

- لعلك وجدت على حين عرضت على حفصة فلم أرجع إليك.

قال عمر: نعم.

قال أبو بكر: فإنه لم يمنعنى من الرجوع إليك فيما عرضت على، إلا أننى علمت أن رسول الله ﷺ قد ذكرها. ولم أكن لأفشى سر رسول الله ﷺ. ولو تركها قبلتها.

وكان عمر بن الخطاب قد شكا إلى رسول الله، ما فعله أبو بكر وعثمان، وأنه عرض عليهما الزواج بابنته حفصة، لكنهما أعرضا عنه.

فطيب النبى ﷺ خاطره وهو يقول له:

«لعل الله يبدلك خيرا منهما».

وتمنى عمر ذلك. لكن تمنياته لم تكن لتصل إلى درجة أن يطلبها رسول الله ﷺ زوجة له.

ومن تلك الحكاية نتعلم أن البحث عن زوج للابنة ليس عيبا، وإنما هو من صميم الإسلام. لأنه فيه صيانة للأعراض وفيه تناسل، وتكاثر، حتى يفاخر بنا الرسول ﷺ الأمم يوم القيامة.

وقد يعلم الأب، أكثر من ابنته محاسن وفضائل إنسان، مما قد يخفى على الابنة، التى قد تخدعها المظاهر البراقة، والحركات التى يؤتيها بعض الشباب، وتعتقد أن فى ذلك خيراً لها فى المستقبل، فى حين أنه يدل على تسيب وعدم حسن تصرف، وعدم تحمل للمسئولية الآن وفى المستقبل. مما يؤدى إلى انهيار الزواج.

كما نتعلم أيضا من حكاية عمر بن الخطاب، ألا نستعجل فى البحث عن زوج للابنة، وإنما لابد من حسن الاختيار. وقد يكون فى التأخير قليلا خير وفير كما حدث لعمر عندما اختار رسول الله ﷺ ابنته حفصة زوجة له.

لا.. لزواج الشغار

كما نهى النبى ﷺ عن زواج (الشغار) وهو الزواج الذى يتم بالتبادل، لأن فيه إهدارا لكرامة المرأة وحقها فى الحصول على المهر والصداق.

يقول تعالى: ﴿وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً﴾ (سورة النساء الآية: ٤)

فالصداق حق للمرأة، لا يسترده الرجل، ولا يأخذ منه شيئا، إلا عن

طيب نفس، ورضاء خالص من الزوجة. لقوله تعالى:

﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا﴾ (سورة النساء آية: ٤)

فالصداق يؤكد للمرأة، أن الرجل هو الذى سعى إليها، ودفع الغالى والنفيس، مهما قل أو كثر، حتى يصل إليها، وترضى عنه، وتقبله زوجا لها. فليس المهم هو قيمة المدفوع، قل أو كثر، وإنما المهم هو ما يرمز إليه، من سعى الرجل إليها، لاكتساب ودها لتصبح زوجة وشريكة لحياته.

جماع مكروه

وجماع الرجل لزوجته حرام فى نهار رمضان فقط، ومباح من بعد ذلك حتى يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر.

يقول أبو هريرة رضي الله عنه: بينما نحن جلوس عند النبى ﷺ، إذ جاءه رجل فقال:

يا رسول الله هلكت؟

قال: ما لك؟

قال: وقعت على امرأتى فى رمضان وأنا صائم.

فقال رسول الله ﷺ:

هل تجد رقبة تعتقها؟

قال: لا.

قال الرسول ﷺ:

فهل تستطيع أن تصوم شهرين متتابعين؟

قال: لا.

قال النبى: فهل تجد إطعام ستين مسكيناً.

قال: لا.

قال: فمكث عند النبى ﷺ حيناً ثم ونحن على ذلك؟ أتى النبى ﷺ بفرق فيه تمر (الفرق المكتل). قال ﷺ:

أين السائل؟

فقال: أنا.

قال ﷺ:

خذ هذا فتصدق به.

فقال له الرجل: أعلى أفقر منى يا رسول الله - فوالله ما بين لابتيها (يقصد الحرتين مثنى حرة وهى الأرض ذات الحجارة السوداء) أهل بيت أفقر من أهل بيتى. فضحك النبى ﷺ حتى بدت أنيابه. ثم قال: أطعمه أهلك.

وعن البراء رضي الله عنه قال: كان أصحاب محمد ﷺ، إذا كان صائما فحضر الإفطار فنام قبل أن يفطر، لم يأكل ليلته ولا يومه حتى يمسى. وأن قيس بن صرمة الأنصارى كان صائما فلما حضر الإفطار، أتى امرأته فقال لها:

أعندك طعام؟

قالت: لا ولكن أنطلق فأطلب لك.

وكان يومه يعمل فغلبته عيناه، فجاءته امرأته وقد نام

قالت: خيبة لك. فلما انتصف النهار غش عليه فذكر للنبى: ونزلت هذه الآية: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ﴾ (البقرة: ١٨٧). ففرحوا بها فرحاً شديدا.

ونزلت: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ (البقرة: ١٨٧).

وإن كان قد أجيز للزوج أن يقبل ويباشر وهو صائم. تقول السيدة عائشة رضي الله عنها:

كان النبى ﷺ يقبل ويباشر (يحتضن) وهو صائم وكان أملككم لأربه.

وهذا يعنى أن تكون القبلة وأن يكون الاحتضان دون شهوة وإلا بطل الصيام. (ولذا نهى عنه الفقهاء للشباب بالذات)

وينهى القرآن الكريم عن معاشرة الزوجات فى المحيض، يقول الحق سبحانه:

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ (سورة البقرة: الآية ٢٢٢).

ليلة الزفاف

قدم لنا رسول الله ﷺ نموذجا رائعا لكى نقتدى به، ونحن نزوج بناتنا وأولادنا، لكى يبدأوا حياتهم على صراط مستقيم، وبرضاء وبركات من الله عز وجل.

فقد بلغت ابنته فاطمة السادسة عشرة، وكثر خطابها، وكان على رأسهم أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب، ولكن النبى أبلغهما فى رفق أنه ينتظر بها القضاء.

ولم يعلق أىٌّ منهما على كلام رسول الله ﷺ، فقد أدركا أن هناك توجيهات من السماء بشأن زواجها.

ثم أدركا من بعد ذلك أن النبى ينتظر كلمة من ابن عمه على بن أبى طالب بشأنها، فهو يدخرها له.

فذهبا إليه، وطلبا منه أن يذهب لخطبة فاطمة بعد أن كثر خطابها، ورسول الله ﷺ رافض لكل من يتقدم إليها للزواج.

ولم يكن على فى حاجة إلى من يدفعه، ويشجعه على الزواج من فاطمة، ولكنه كان مدركا للفرق بينهما، فهو فقير قريش، والذى لا يملك

مالا أو تجارة، ولم يرث عقارا أو منقولا، وليس صاحب مزارع أو ضياع، وإنما هو مقاتل فى سبيل الله، لا يملك سوى سيفه، ودرعه (الحطمية)، وفرشة بالية ينام عليها ليله، ويحفظ آيات القرآن الكريم كلها، ويجيد الحديث، ويملك ناصية اللغة العربية، وأسرار بيانها، وإعجازها. ويخبر كل أسرارها، وما خفى على أهلها منها. (فهو باب مدينة العلم)

لكن كل ذلك لا يشكل ثروة مادية، ترغب النساء فيه، وفى الزواج منه. فحلم أى فتاة أن تتزوج من شاب ثرى، ميسور الحال، ينفق عليها عن سعة، ويوفر لها الراحة، والخادمة، والجارية، ومن تعين فى شغل البيت.

وكل ذلك، وأقل منه أيضا، لا يملكه. فآثر الصمت، حتى لا يقابل طلبه بالزواج منها بالرفض، أو قد يسبب به حرجا للنبى، وقد يكون قد ادخرها لإنسان آخر أكثر غنى ومركزا منه.

ونظر على إليهما، أبى بكر وعمر، وهو غير مصدق لما يقولانه، وما يطلبان منه أن يفعله. وهم أن يخبرهما بما فى نفسه، وأنه يخشى عدم قبول رسول الله، أو عدم قبول فاطمة له.

ولكنهما بادرا بإخباره عن قصتهما. وكيف أنهما ذهبا إلى النبى ﷺ يطلبان منه الزواج بها. لكنه أطرق طويلا، وكأنه فى حيرة من أمره، ثم قال لهما ذات الإجابة: إنى منتظر بها القضاء.

وأدركا أن النبى يدخرها له. وطلبا منه أن يذهب من فوره إلى بيت رسول الله ﷺ كى يسأله خطبة فاطمة.

وكأنه فى انتظار هذه اللحظة. فذهب إلى رسول الله ﷺ وسأله: تزوجنى فاطمة..؟..

وحمل النبى فرحته فى قلبه، ووجهه، وذهب إلى فاطمة يسألها رأيها - كما يأمر الدين - وقال لها فى حنان الأب، وفرحته بمن رضى عنه زوجا لابنته:

- أى بنية، إن ابن عمك عليا قد خطبك فماذا تقولين؟

سألها رأيها كأب، ولم يسألها رأيها كنبى وكرسول من عند الله عز وجل، له سلطاته، وله قدراته، وله مكانته العالية الرفيعة فى قلوب المسلمين جميعا.

لم يستغل النبى نفوذه ومركزه فى إجبار ابنته على قبول الزواج ممن رضى عنه هو. فقد لا ترضى هى عنه. وإن كان من واجبه كأب أن يشرح لها أسباب ترشيحه لها، ولماذا وافق عليه هو، دون غيره من الخطاب لها، وهم كثير، وأكثرهم من الأثرياء والأغنياء وذوى المراكز الكبيرة.

وبكت فاطمة. وقد تذكرت كل الوفود التى أقبلت تسعى إلى الزواج منها، ولم يختر لها النبى سوى ابن عمها على، وقالت لأبيها:

كأنك يا أبت ادخرتنى لفقير قريش!!

رق قلب الأب لكلام ابنته، وهو يرى دموعها تتساقط من مقلتيها فى حزن شديد.

فقال لها النبى موضحا وشارحاً: ما لك تبكين يا فاطمة! فوالله لقد أنكحتك أكثرهم علما، وأفضلهم حلماً، وأولهم سلماً. ما آليت أن أزوجك خير أهلى. والذى بعثنى بالحق ما تكلمت فى هذا حتى أذن لى الله فيه من السماء.

فأدركت بذكائها الوقاد، أنه أمر من السماء، وأنه ما كان لرسول الله وابنته أن يخالفا ما أمر الله به. وأنه لابد وأن تكون هناك حكمة مخبأة فى رحم الغيب لا يعلم سرها إلا الله عز وجل. فامتلأ قلبها اطمئنانا وهدوءاً، وقالت لأبيها راضية قانعة:

- رضيت بما رضى الله ورسوله.

وغمرت السعادة قلب الأب، قلب رسول الله ﷺ، وأسرع إلى ابن عمه يزف إليه القبول.

وسأله: هل عندك من شيء؟

فقال على: كلا.

قال له النبى: وأين درعك الحطمية (التى تحطم السيف)؟

قال على راضيا سعيدا: عندى.

وأدرك على أن النبى، يسأله أن يبيعها ليدفع ثمنها مهرا وصداقا لابنته. فدفع بها إلى غلام عنده ليبيعها.

وفى الطريق قابل عثمان بن عفان الغلام يحمل الدرع، وسأل الغلام من باب التأكيد:

- هذه درع على بن أبى طالب؟

فأجاب الغلام بالإيجاب، فقال عثمان:

- إن درع على بن أبى طالب فارس الإسلام لا تباع أبدا.

وأعطى الغلام أربعمائة درهم ثمنا لها، ثم أعادها إليه، وجعله يقسم الا يخبر عليا بذلك أبدا.

ولما كان الإشهار من أساس الزواج فى الإسلام، فقد جمع النبى، أنس ابن مالك، وأبا بكر الصديق وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وطلحة والزبير. واتخذوا مجلسهم فى بيت رسول الله ﷺ. فلما اكتملوا، سأل النبى عليا أن يخطب لنفسه. وقال له:

- يا على اخطب لنفسك.

وقد وضع النبى بذلك قاعدة أساسية فى الخطوبة والزواج. وأرسى مبدءاً هاماً فى بداية العلاقات الزوجية. وحمل الزوج بسؤاله هذا، مسئولية أمره، ومسئولية اختياره لزوجته، ومسئولية الحياة المشتركة القادمة.

وكان فى مقدوره الا يسأل عليا ذلك. فالكل قادم عالم بأنها خطبة

على من فاطمة بنت النبى ﷺ. فلماذا سؤال النبى لعلى، أن يخطب لنفسه.

فالنبى يريد أن يؤكد للخاطب، ثقته فى نفسه، وأن يتحدث هو، وليس ولى أمره، ليحمل مسئولية الكلمة، ويشعر بقدرته كرجل مسئول عن اختياره، وعن بيته وزوجه فى المستقبل.

ولنا فى رسول الله ﷺ أسوة حسنة، فى بناء الأسرة الإسلامية الجديدة.

وقال على بن أبى طالب: الحمد لله، وشكرا لأنعمه، وأياديه، وأشهد أن لا إله إلا الله، شهادة ترضيه. وهذا محمد رسول الله ﷺ زوجنى ابنته فاطمة على صداق مبلغه أربعمائة درهم. فاسمعوا ما يقول واشهدوا.

ثم سأل النبى ﷺ: ما تقول يا رسول الله؟

قال ﷺ:

الحمد لله، المحمود بنعمته، المعبود بقدرته، المطاع لسلطانه، المهروب إليه من عذابه، النافذ أمره فى أرضه وسمائه، الذى خلق الخلق بقدرته، ونيرهم بأحكامه، وأعزهم بدينه، وأكرمهم بنبيه محمد ﷺ.

إن الله عز وجل جعل المصاهرة نسبا لاحقاً، وأمراً مفترضاً، وحكما عادلا، وخيرا جامعا، أوشج بها الأرحام، وألزمها الأنام، فقال الله عز وجل: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَراً فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهْراً وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيراً﴾ (الفرقان: الآية ٥٤)

وأمر الله يجرى إلى قضائه، وقضاؤه يجرى إلى قدره، ولكل أجل كتاب. يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب.

ثم إن الله تعالى أمرنى أن أزوج فاطمة من على، وأشهدكم أننى زوجت فاطمة من علىٍّ عَلَى أربعمائة مثقال فضة، إن رضى بذلك، على السنة القائمة، والفريضة الواجبة، فجمع الله شملهما، وبارك لهما، وأطاب نسلهما، وجعل نسلهما مفاتيح الرحمة، ومعادن الحكمة، وأمن الأمة.

أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم.

واستمع الحاضرون إلى كلام النبى، واستمع إليه على، فخر لله ساجدا شاكرا لأنعمه، ولدعاء النبى له، وبشراه له بأن يجعل من نسلهما - على وفاطمة - مفاتيح الرحمة، وأمن الأمة، ومعادن الحكمة.

فلما رفع على رأسه، قال له النبى ﷺ: بارك الله لكما، وعليكما، وأسعد جَدكما، وأخرج منكما الكثير الطيب.

ثم أمر لأصحابه بطبق فيه تمر فوضع بين أيديهم فقال: انتهبوا.

وفى ليلة الزفاف، أرسى لنا رسول الله ﷺ قاعدة إسلامية أخرى، فيما يجب أن يكون فى أول ليلة لالتقاء الزوج والزوجة، وفى بداية أيام شهر العسل - كما تعودنا أن نقول عليه - وما يحب أن يفعله الزوج، وما تفعله الزوجة، وما يفعله أهلهما.

فقد أولم النبى فى ليلة زفاف فاطمة إلى على بكبش من عند سعد بن معاذ، وآصع من ذرة من عند جماعة من الأنصار.

وهكذا سن النبى سنة حميدة لأهل العروسين، وأقاربهما، ومعارفهما، وأصدقائهما، أن يشاركوا فى حفل الزواج، وأن يقدموا ما يستطيعون، قل أو كثر، فالمهم هو إظهار الفرحة، والمشاركة فيها، وتقديم المساعدة للعروسين وأهلهما فى بداية حياتهما الزوجية.

وسأل النبى عليا: لا تحدث شيئاً حتى تلقانى. وجاءت أم أيمن بفاطمة، وقعدت فى جانب البيت وعلى فى جانب آخر. وجاء رسول الله ﷺ فقال لفاطمة.:

- إئتنى بالماء.

فقامت تعثر فى ثوبها من الحياء. فتقدمت يفوح منها رائحة العطر الطيب الذى أمر رسول الله بشرائه بثلث الصداق، فنضح به بين ثدييها،

وعلى رأسها، وقال:

اللهم إنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم. ثم قال النبى:

إئتونى بماء.

وقام على يحضر الماء، بعد أن علم ما يريد رسول الله ﷺ. فأحضر قعب ماء، فأخذه، وصنع به كما صنع بفاطمة، ودعا له بما دعا لها ثم قال:

- اللهم بارك فيهما، وبارك عليهما، وبارك لهما فى شملهما. وتلا المعوذتين. ثم قال:

- ادخل بأهلك باسم الله والبركة.

وامتنع النبى عن زيارتهما ثلاثة أيام، كى يتيح لهما فرصة اللقاء والتعارف والمؤانسة. دون أن يكون هناك تدخل خارجى من أحد. حتى ولو كان والد فاطمة ونبى الله ورسوله ﷺ.

وهذا درس آخر للآباء، كى يتركوا بناتهم وأولادهم فى أيام الزواج الأولى، حتى يتقربا من بعضهما، ويتفهما أمرهما، حتى ولو كانا أبناء عمومة أو أقارب يعرفان بعضهما البعض جيداً، وتربيا مع بعضهما. فالزواج شىء، وعلاقة القرابة شىء آخر.

وفى اليوم الرابع من الزواج، دخل عليهما فى غداة باردة، وهما فى قطيفة لهما، إذا جعلاها بالطول انكشفت ظهورهما، وإذا جعلاها بالعرض انكشفت رؤوسهما، فلما رأياه، هما بالنهوض، فقال لهما: كما أنتما.

وجلس عند رأسيهما ثم أدخل قدميه وساقيه بينهما، فأخذ على كرم الله وجهه، إحداهما فوضعها على صدره وبطنه ليدفئها. وأخذت فاطمة رضي الله عنها الأخرى فوضعتها كذلك. وأخذ على يصغى إلى حديث رسول الله ﷺ، ونصائحه إليه، ودعائه لهما بالذرية الصالحة(١).

(١) تفصيلات أخرى فى كتاب فوزى شعبان (الرأى الآخر فى الإسلام) من إصدار دار الأحمدى للنشر.

حادى عشر ـ ضغوط خارجية..
لتغيير مسار الأسرة العربية

١ ـ ضغوط أمريكية لتغيير مسار العلاقات الزوجية

استمرار فى الضغط الأمريكى على بعض الدول العربية من أجل تغيير نمط الحياة الاجتماعية، والزوجية، والعادات والتقاليد والأخلاق المتوارثة عبر أجيال طويلة، سواء من الديانة المسيحية والديانة الإسلامية، فقد أعلنت «وكالة رويتر» للأنباء يوم ٢ مارس سنة ٢٠٠٤ بيانا صدر من منظمة (هيومان رايتس ووتش) الأمريكية لحقوق الإنسان، ونشر فى صدر الصحف المصرية يومها.

وطالب بيان المنظمة عدم استهداف الشواذ بسبب ميولهم الجنسية. كما حرضت المنظمة الجهات المانحة للمعونات على الضغط على القاهرة بهدف الاستجابة إلى مطالبها.

واتهمت المنظمة مصر بإحالة متهمين بممارسة الشذوذ الجنسى وسط ضجة إعلامية للمحاكمة بزعم التغطية على مشاكلها الاقتصادية.

وقالت المنظمة فى تقرير بعنوان «إهدار العدالة فى الحملة المصرية ضد السلوك المثالى» أنه لابد من وضع حد لهذا العدوان على الحقوق الإنسانية.

ورفض التقرير معاقبة أى فرد على ميوله الجنسية. وطالب بتعديل القوانين المصرية لإسقاط ممارسة الفجور والبغاء دون مقابل مادى. كما طالب التقرير بضرورة الإفراج عن جميع المتهمين بسبب تلك الجريمة.

ودعت المنظمة فى توصياتها للحكومة المصرية إلى إنهاء الاعتقالات والمحاكمات على أساس ممارسة الراشدين للسلوك المثلى عن تراض. وتعديل قوانينها لتحذف أى إشارة إلى الفجور.

وحثت التوصيات الحكومة المصرية على معاقبة أى مسئول عن إساءة المعاملة والتمييز على أساس السلوك الجنسى المثلى. وطلبت بمنع التعذيب وتجريمة وإنهاء الاعتقال غير القانونى، وإلغاء المحاكم التى لا تسمح بالاستئناف.

وكانت منظمات حقوق الإنسان الأمريكية قد طالبت من قبل بإباحة الإجهاض للفتيات المسلمات والمسيحيات مع منحهن الحق القانونى فى إقامة علاقات جنسية صريحة مع «البوى فرند»، وباعتراف الأسرة.

وأن تكون العلاقة بين البنت والشاب مفتوحة وغير مقيدة بقوانين، واعتبار مسألة العذرية وغشاء البكارة للبنت أشياء قديمة وغير ضرورية، وتعوق الفتاة عن ممارسة نشاطها الاجتماعى والرياضى، وتكوين صداقات مفتوحة مع الشباب.

كانت هذه مجرد نماذج مما تمارسه أمريكا على المجتمع المتدين فى مصر سواء مسيحى أو مسلم، بهدف تقويض دعائم الدين، وإزالة كل مترسبات القيم والأخلاق فيه، وحتى تنشر برامجها الجديدة من أجل تغيير العادات والتقاليد الشرقية، وتحديث المفاهيم بما يتناسب والمتطلبات الأمريكية لتغيير خريطة الشرق الأوسط.

فهل ستنجح أمريكا وحلفاؤها فى أوربا والصهيونية فى كسر شوكة العادات والأخلاق والقيم والمبادئ الدينية لدى المرأة المصرية، سواء أكانت مسيحية أو مسلمة.. فهما نسيج واحد فى مجتمع واحد، متمسك بعاداته وتقاليده وأخلاقه التى ورثها من مبادئ المسيحية وتعاليم الدين الإسلامى على مر السنين.

نحن فى هذا لا نفرق بين مسلم ومسيحى. فكلاهما سوف يصاب فى قلب عاداته وأخلاقه ودينه.

وكل الأديان آتية من مشكاة واحدة. كما قال النجاشى ملك الحبشة من حوالى ألف وأربعمائة سنة عندما استقبل وفد المسلمين المهاجرين إلى بلده فراراً بدينهم الجديد ونصحهم رسول الله ﷺ بالهجرة إلى الحبشة لأن فيها ملكاً لا يُظلم عنده أحد.

وكان هذا الملك يعتنق الديانة المسيحية ولكنه أسلم.

ومن هنا يمكن القول، أن أول من فرض الحماية والرعاية للدين الإسلامى الجديد، كان ملك الحبشة المسيحى، بعد أن استمع إلى آيات من القرآن الكريم حول السيدة العذراء مريم، وقال إن هذا من ذاك. أى أن الذى أنزل هذا القرآن هو ذاته الذى أنزل من قبل التوراة والإنجيل.

مصدر إلهى واحد للجميع.

إن المحاولات الأمريكية والصهيونية والأوربية وغيرها لن تتوقف عن محاولات تمزيق أخلاقنا وعاداتنا، باعتبار أنها الحصن القوى الذى يحتمى به أهل مصر والشرق فى مواجهة جحافل الأعداء.

فهل ستنجح، وتتحول العلاقات الزوجية فى الأديان السماوية، إلى مجرد ذكرى وتاريخ لأيام مضت.

وهل ستنجح فى استغلال ما تفشى مؤخراً فى مجتمعنا من زواج عرفى، وزواج مسيار، وزواج متعة، وما يستجد من ألوان هذا النوع من الزواج، فى تحطيم معاقل المجتمع المتدين فى مصر.

وهل سيأتى يوم يصبح القابض فيه على دينه كالقابض على جمرة من النار كما قال رسول الله ﷺ.

ليس أمامنا سوى أن ندعو أن يتأخر هذا كثيراً.. كثيراً جداً. أو لا يأتى بالمرة.

٢ـ ضغوط أوربية ضد حجاب المرأة المسلمة

وبدأت أوربا فى ممارسة ضغوط قوية ضد الحجاب والمرأة المسلمة. بدأت من فرنسا والتى قررت منع حجاب المسلمات فى مدارسها الحكومية، ثم ثنت عليها بلجيكا فمنعت هى الأخرى حجاب النساء المسلمات.

وبعد ذلك سوف تنتشر العدوى إلى كل دول أوربا.. دولة دولة.. حتى ينتهى الأمر بكل أوربا وهى تتخذ موقفاً موحداً ضد ظهور المرأة المسلمة وهى ترتدى الحجاب.

ولعل هذا الأمر يذكرنا بما حدث للعرب فى إسبانيا، عندما تمزقت الولايات المسلمة فى إسبانيا، ولم يعد لها وزن أو ثقل سياسى، فاجتاحتها القوات الصليبية ولاية وراء ولاية، ومدينة وراء مدينة حتى انتهى الأمر بالمسلمين إلى خارج إسبانيا، وعودة النصرانية إليها. بعد إسلام استمر أكثر من ثمانمائة سنة..

واليوم وفى عام ٢٠٠٤ يحدث نفس الأمر لإلغاء الشخصية الإسلامية، والمظهر الإسلامى من كل أوربا. فحجاب المرأة المسلمة، وظهورها فى شوارع أوربا يؤكد تواجد الإسلام والمسلمين بها بشكل قوى.

وهذا ما يرفضه الغرب المسيحى والصهيونية أيضاً. لا أحد منهم يريد أن يرى الإسلام وقد انتشر وتمدد داخل الأوردة والشرايين للجسم الأوربى، خاصة بعد تكاثر أعداد المسلمين، ودخول أعداد كبيرة من الأوربيين فى

الإسلام، فاستشعروا الخطر، وبدأوا فى المقاومة.

وقد طالعتنا الصحف العربية يوم الأحد ٧ مارس ٢٠٠٤ عن خبر عن بدء حملة ضد الحجاب فى هولندا تقودها منظمة تحرير المرأة فى هولندا على غرار ما حدث فى فرنسا وبلجيكا.

ووصفت وكالات الأنباء الحملة بأنها مسعورة ضد نساء الجاليات الإسلامية، ودعوتهن إلى ممارسة الحريات الشخصية - إقامة علاقات خاصة مع الرجال - وعدم التقيد بالموروثات من التقاليد والعادات القديمة والتى لم تعد ملائمة لهذا العصر.

والمقصود منها بالطبع الحفاظ على الأخلاق والتمسك بالعفة والعذرية لدى البنات، لأن هذه أشياء عفى عليها الزمن، ومن الموروثات القديمة التى يجب أن تتغير.

كما شملت الحملة أيضاً دعوة المسلمات والعربيات للتخلى عن الأزياء الإسلامية والعربية التقليدية، بزعم أن الاحتفاظ بهذه الأزياء نوع من التخلف والمصادرة للحريات.

وزعمت المنظمة أن النساء المسلمات يواجهن العديد من المشاكل بسبب إجبارهن على ارتداء الحجاب.

وبذلك بدأ الغرب ينجح فى حملته ضد حجاب المرأة المسلمة، والتى بدأت من فرنسا ثم بلجيكا وسوف تستمر حتى تشمل أوربا كلها.

وهى حملة ليس الهدف منها منع الحجاب وحده، وإنما تهدف أساساً إلى القضاء على ظاهرة التواجد الإسلامى فى أوربا. ذلك أن تواجد المرأة المحجبة، يعنى تواجد المسلمين، وإثبات مكانتهم هناك.

وهذا ما يرفضه الغرب حالياً. بعد الحملة الشرسة التى قادتها أمريكا عقب أحداث ١١ سبتمبر، وحملت فيها المسلمين مسئوليتها. فهو تضامن أوربى غيرُ معلن مع أمريكا.

والمشكلة أن علماء المسلمين اختلفوا.. هل الحجاب فرض أم سنة؟.. وهل عدم التزام المرأة به يعد ارتكاباً للمعصية ومخالفة للشريعة الإسلامية.

البعض قال: إنه ليس فرضاً، وإنما هو جاء لظروف خاصة، انقضت بوقتها، ومن ثم لم يعد له لزوم الآن. والرأى الآخر - وهم أكثرية - قالوا: بأنه فرض على كل مسلمة بالغة، ومن تتركه آثمة. وذلك هو الحق.

وأرجعوا ذلك إلى ما جاء فى أول سورة النور:

﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (سورة النور: الآية ١)

فهو فرض بنص الآية. والنص ليس فى حاجة إلى تأويل. كما أن السورة اشتملت على أحكام كثيرة تهدف كلها إلى حفظ المجتمع الإسلامى من الرذيلة والأخلاق الفاسدة، بعد حادث الإفك والذى كاد أن يحدث فتنة بالمدينة المنورة واتهام أم المؤمنين عائشة باتهامات باطلة. وكان اليهود والمنافقون وراء هذه الفتنة للقضاء على المسلمين.

ولم يأت إلزام المسلمات بارتداء الحجاب فى سورة النور فجأة، وإنما جاء تدريجيا.

وبدأ من سورة الأحزاب، للقضاء على الفتنة التى أثارها المنافقون عقب زواج النبى ﷺ من زينب بنت جحش، بعد أن طلقها زيد. وقالوا إن النبى طمع فيها بعد أن أعجبته، وأنه أجبر زيدا على طلاقها لكى يتزوجها، رغم أن النبى هو الذى زوجها منه ورغم أنها رفضت ذلك، ولو أن النبى كان يريدها لنفسه لتزوجها من قبله، ولكنه أصر على زواجها به رغم الفارق الاجتماعى والعائلى بينهما. لكنه أراد أن يؤكد للكافة أن كل المسلمين سواء أمام الله، ولا يفرق بينهم سوى العمل الصالح فقط.

ولم تستمر الحياة الزوجية بينهما كثيرا، بعد أن شعر زيد أنه لن يستطيع مجاراتها والجلوس إليها فى تكافؤ وندية، وهو الذى ساق على

الرسول على بن أبى طالب، وأبا بكر الصديق لكى يساعداه فى الزواج بها. وهو أيضا الذى سعى من بعد ذلك إلى النبى لكى يساعده على طلاقها منه.

فالأمر فى الزواج والطلاق كان بيد زيد. ولكن المنافقين اتخذوا منه حكاية للإساءة إلى النبى ﷺ.

قال تعالى:

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً ﴿٣٧﴾ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ (سورة الأحزاب الآيتان ٣٧ ـ ٣٨)

وبدأت التعليمات إلى نساء النبى ﷺ بعدم مخاطبة الغرباء وفى صوتهن لين يثير شهوات الرجال فيطمع الذى فى قلبه مرض، وأن يقلن قولا معروفا.

يقول تعالى:

﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفًا﴾ (الأحزاب ٣٢).

ثم خاطب نساء النبى بعدم إدخال أحد من الرجال إلى بيته إلا بعد الاستئذان. وإن أرادوا سؤال زوجاته عن شىء، فليكن من وراء حجاب.

يقول عز وجل:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾ (الآية ٥٣)

وكان هذه ـ كما يقول المفسرون ـ أول تشريع فى الإسلام خاص بحجاب نساء المسلمين.

ويقول أنس بن مالك: إن سبب نزول الآية السابقة أن عمر بن الخطاب قال: قلت يا رسول الله يدخل عليك البر والفاجر، فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب. فأنزل الله تعالى آية الحجاب. (رواه البخارى).

وروى مجاهد أن النبى ﷺ، كان يطعم معه بعض أصحابه، فأصابت يد رجل منهم يد السيدة عائشة. وكانت معه. فكره النبى ﷺ. فنزلت الآية.

ويقول المفسرون: إن الآيات السابقة كانت فى صدد بيوت النبى ﷺ، وزوجاته.

ثم جاء أمر الله سبحانه إلى نبيه بأن يأمر نساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن حتى يعرفن أنهن من الحرائر فلا يؤذين.

يقول الحق تعالى فى سورة الأحزاب:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ (الآية ٥٩)

ويذهب الإمام أبو الحسن النيسابورى فى كتابه (أسباب النزول). إلى أن سبب نزول هذه الآية: أن فساق أهل المدينة كانوا يخرجون بالليل حين يختلط الظلام المدينة فيعرضون للنساء. وكانت مساكن أهل المدينة ضيقة، فإذا كان الليل خرج النساء إلى الطريق يقضين حاجتهن، فكان أولئك الفساق يبتغون ذلك منهن. فإذا رأوا المرأة عليها جلباب قالوا هذه حرة فكفو عنها. وإذا رأوا المرأة ليس عليها حجاب، فقالوا هذه أمة فوثبوا عليها.

ثم اكتمل فرض الحجاب على نساء المسلمين مع نزول سورة النور، وقد بدأت الآية الأولى منها بقوله تعالى: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (الآية ١)

فالله عز وجل يؤكد فى أولها أنها مفروضة على المؤمنين. وما دام أن

الله سبحانه فرض على المؤمنين شيئا فلابد من الالتزام والعمل به.

ثم بدأت الآيات بإظهار مختلف الأحكام التى تهدف كلها إلى الحفاظ على المجتمع المسلم وحمايته، ومعاقبة الزانى والزانية، ومن يرمون زوجاتهم بما يغضب الله دون تثبت أو دليل.

ثم يطلب من الناس أن يستأذنوا قبل دخول بيوت غيرهم، احتراما لمشاعر الناس، وما قد يكون عليه بيت المسلم من عورات فى الطعام أو اللباس أو البدن والمشاعر.

يقول تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا﴾ (النور: ٢٧).

ويقول تعالى:

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ (النور: ٣٠ ـ ٣١)

وترى الدكتورة زينب رضوان أن الأمر للرجال بالغض من أبصارهم له دلالة على ما كان يجرى وقتها فى المدينة، وكان سائغاً فى عهد النبى، واستمرارا لما قبله من خروج المرأة سافرة أمام الناس تباشر وتمارس ما هو مباح من أعمال وتصرفات، وما هو الواجب عليها من ذلك.

ثم تستكمل الآيات ما يجب على المؤمنين والمؤمنات اتباعه.

يقول تعالى:

﴿وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ

إخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (سورة النور الآية:٣١).

ويذهب أصحاب الرأى القائل بأن الأمر بالحجاب قاصر فقط على نساء النبى دون سائر نساء المؤمنين، بأن الآيات السابقة تبيح إظهار الزينة للمرأة فيما ظهر منها وما جرت عليه العادات والتقاليد أمام بعض الفئات.

وقيل إن النبى ﷺ (أباح للمرأة أن تبدى من ذراعها إلى قدر النصف) إضافة إلى وجهها وكفيها. (كذا)

وأن حديث النبى (لا يقبل الله صلاة حائض إلا بخمار) المقصود هنا هو المرأة البالغة.

ويفيد الحديث ـ كما يقول محمد عزة دروز فى كتابه (المرأة فى القرآن) إن الخمار هو غطاء للرأس، ويتبادر لنا من إيجاب الخمار فى الصلاة أنه غير واجب ومحتم فى غيرها.

كما أن ما جاء فى الآية ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ يعنى مداراة فتحات الثوب (الجيوب) بغطاء أو وشاح حيث كانت الجيوب تظهر بعض أجزاء من الظهر أو الصدر للمرأة.

كما روى الطبرى عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «إذا أحرمت المرأة لم يحل لها أن تظهر إلا وجهها وإلا ما دون هذا، وقبض على ذراع نفسه، فترك بين قبضته وبين الكف مثل قبضة أخرى».

وروى الشيخان عن أنس بن مالك قوله. قال: لما كان يوم أحد انهزم الناس عن النبى، وقد رأيت عائشة بنت أبى بكر وأم سلمة مشمرتين، أرى خدم سوقهما تنقلان القرب إلى متونهما ثم تفرغانها فى أفواه القوم ثم

ترجعان فتملآنها ثم تجيئان فتفرغانها فى أفواه القوم.

ومن هنا يخلص أصحاب هذا الرأى إلى أن الإسلام نظام قائم على الفضيلة، ومن خلاله تتحدد العلاقة المقبولة بين الرجل والمرأة من خلال عقد الزواج وتبعاته. وأن الإسلام عمد إلى سد منابع الفتنة والاهتمام بالتربية السليمة للأبناء، وارتداء الزى المحتشم والذى لا يثير فتنة، والسير دون ضرب للأرض ليبدين من زينتهن لإثارة غرائز الرجال ولفت انتباههم.

وما دام الدين الإسلامى قد أباح للمرأة العمل، فقد أوجب عليها أن تلتزم بهذه القواعد الأخلاقية فى الإطار الذى يحافظ على النظام الاجتماعى. ولا يؤدى إلى الإخلال به وإفساد ضوابطه.

ويقول الدكتور أحمد شلبى فى كتابه (تنظيم الإسلام للمجتمع): ومما يؤيد أن هذا النوع من الحجاب بمعنى القرار فى البيت، كان خاصا بنساء الرسول ﷺ، ما يورده من رواية الجاحظ أنه ذكر أنه لم يزل الرجال يتحدثون مع النساء فى الجاهلية والإسلام حتى ضرب الحجاب على نساء النبى خاصة، وظلت بعد ذلك بنات الخلفاء وأمهاتهن يخرجن للطواف وغيره. ولم يُنكر ذلك منكر ولا عابه عائب، ولو كان الحجاب مفروضا لما أمكن أن ترى هذا العدد الضخم من النساء المتعلمات والمحدثات والوعظات والأدبيات منذ عهد الصحابيات إلى اليوم، وما كنا نرى نساء كثيرات أسهمن مع الرجال فى إدارة الممالك وساعدن أزواجهن فى أعمالهن العظيمة حتى كان شطر من توفيق الرجال يحسب لزوجاتهم المتعلمات.

وقد عرف التاريخ كثيرا من الصحابيات والتابعيات بصحبة الرجال فى الحروب، وكان من نساء المسلمات من يداوين الجرحى ويحمسن المحاربين، وكان منهن من يعقدن مجالس الأدب كسكينة بنت الحسين وعائشة بنت طلحة. «ويقول بعض المؤرخين إن هذا كان من وراء حجاب يسمع صوتها ولا يراها».

وأما قاسم أمين فى كتابه (تحرير المرأة) فقد أرجع ذلك إلى ما جاء فى الآية الكريمة لنساء النبى من أنهن لسن كأحد من النساء. مما يشير إلى عدم الرغبة فى المساواة، وأن سبب نزول الآية الكريمة كانت لأسباب خاصة بهن ولا تنطبق على غيرهن.

ويخلص إلى أن هذا الحجاب ليس بفرض ولا واجب على أحد من نساء المسلمين.

وأن الحجاب ليس خاصا بالمسلمين وحدهم وإنما نشأ وعرف منذ عهد إبراهيم ﷺ، وظل باقياً حتى أيام المسيح ﷺ، وجاء ذكره له فى الكتاب المقدس.

كما عرف فى دول أوربا أيضا، وكانت إسبانيا أكثر الدول الأوربية احتفاظا به وذلك نتيجة دخول الإسلام إليها فترة طويلة قاربت على الثمانمائة عام، ومنها انتقل إلى مستعمراتها فى أمريكا الجنوبية.

وظل الحجاب يتطور حتى وصل إلى ما هو عليه الآن.

وإذا كان اختلاف الآراء رحمة للمسلمين، فإن ما يحدث الآن فى أوربا للمحجبات المسلمات ليس فيه رحمة على الإطلاق. فإن المعاملة السيئة التى يلقونها من قبل الصهاينة وأعداء الإسلام تفوق كل حد.

وقد تجمعت عليهم الأمم الأوربية، بهدف القضاء على هذه الظاهرة فى الشوارع والمدارس والمستشفيات والمصالح الحكومية.

ذلك أن فى وجودها. إعلان عن تواجد الإسلام، مهما قال أو ادعى أعداء الحجاب غير ذلك. فالمرأة المسلمة بحجابها كالعلم الخفاق يدل على هوية صاحبه. وهو أمر يكرهه كل أعداء الإسلام. ومع تفشى ظاهرة العداء للمسلمين منذ أحداث ١١ سبتمبر وقول الرئيس الأمريكى جورج بوش الابن: بأنها حرب صليبية. فقد صدق فى قوله رغم إنكاره له من بعد ذلك،

ومحاولة تتصله منه، وأنه جاء عبر ولادة غير طبيعية وظروف قهرية. فإنه يدل دلالة واضحة على مكنون قلبه وعقله، وهو المعروف بأنه مسيحى متعصب ومتشدد، ومن رواد الكنيسة ومساعديها.

كما أن ارتداء المرأة المسلمة للحجاب برغبتها أمر يتمشى مع مبدأ الحرية الذى تنادى به أمريكا وأوربا. وأن من حق أى إنسان أن يعتنق الدين والفكر والرأى الذى يريد. كما أن أمريكا لم تستطع إجبار طائفة السيخ الهندية على عدم ارتداء القبعات الخاصة بهم لأنها جزء من معتقداتهم. وعندما تمسكوا برأيهم خضعت لهم أمريكا وتركت لهم حرية ذلك. بل سمحت لمن يعملون منهم فى الشرطة وفى غيرها أن يرتدوها.

ومن هنا لابد من وقفة إسلامية، مهما اختلفت آراؤنا حول الحجاب. فالمسألة ليست الحجاب وإنما هى الدين الإسلامى، وتواجده فى أوربا. ولو سمحنا لهم بمحاصرة المسلمات ونزع الزى الشرعى منهن، فسيكون ذلك أول الغيث، وبعده سوف تأتى أشياء كثيرة، قد لا تبقى ولا تذر، وتمتد أيضا إلى الرجال المسلمين وإلى مساجدهم ودور عبادتهم، وإلى الأماكن التى يعملون بها دون غيرها.

وربما تحديد أماكن إقامتهم، حتى لا يتمددوا داخل أوربا، ويصبحوا مع مر السنين هم القوة العظمى والأغلبية الساحقة.

إنها عملية حصار ضد الإسلام. بدءًا مع المرأة، ولا يعلم سوى الله عز وجل إلى أين ستنتهى.

٣ ـ وضغوط أمريكية لتغيير مسار الحياة السياسية

كما بدأت أمريكا فى نشر فكرة مشروع شرق أوسط جديد وكبير ليحتوى كل دول الشرق الأوسط كلها. الهدف منه أولا وأخيرا هى الدول العربية والإسلامية. لكى تقضى على معالم الإسلام بها، وينفصل عن الحكم، كما هو الحال فى المسيحية، وأن يعطى ما لقيصر لقيصر وما لله لله.

فكل ما يؤرقها أن الدين الإسلامى فى أساسه هو دين ودولة، ولا ينفصل أحدهما عن الآخر. وعندما كان فى أوج مجده وعظمته، كان يقود دولة المسلمين، رجال يؤمنون بالله ويؤمنون برسوله، ويطبقون شرع الله فى كل ما يمس أمور المسلمين الحياتية والسياسية.

وهذا هو النبى ﷺ يقول: «لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها».

فالكل خاضع للقانون، وليس هناك تفرقة أو وساطة لتخفيف حكم، أو تحقيق مكسب على حساب إنسان آخر.

الكل أمام الإسلام سواسية.

والضعيف عند الحاكم قوى حتى يعاد له حقه. والقوى ضعيف حتى يؤخذ منه ما سلبه. كما قال أبو بكر الصديق فى خطبته عندما تولى خلافة المسلمين.

ولكن أمريكا تسعى هذه الأيام إلى خلق شرق أوسط كبير وجديد، بلا دين، وبلا أخلاق أو مبادئ أو قيم.

المادة هى المسيطر عليه، والمتولية زمام أموره وهى سيدة الموقف، والحاكم الآمر الناهى.

وليس أمامها من عدو إلا الإسلام، لأنه دين ودولة. وهذا يناقض ما تريد، ويقف حجر عثرة فى سبيل تحقيق أحلامها فى القضاء عليه، بعد أن تمكنت من القضاء على الشيوعية والاتحاد السوفيتى. وأصبح خطر الإسلام هو الباقى أمامها، الحائل دون سيطرتها على مقدرات العالم.

وهى تريد من المسلمين أن يتخذوا من تركيا العلمانية قدوة ومثلا أعلى. وأن يترك ما لقيصر لقيصر وما لله لله. وللكاتب الإسلامى الدكتور محمد عمارة رأى يقول فيه (١):

إن العلمانية سواء فى حدها الأعلى كنزعة لا دينية، تعزل السماء عن الأرض. والدين عن الحياة، عندما تجعل الإنسان سيد الكون، بدلا من أن يكون خليفة لله فى الأرض.

أو فى حدها الأدنى الذى يقف عند عزل الدين عن السياسة والدولة والقانون. هى بضاعة غريبة، وخصوصية غريبة نشأت هناك كحل غربى لمشكلة غربية. ثم جاء بها الاستعمار الغربى فى القرن التاسع عشر إلى بلادنا، لكسر شوكة الإسلام، ولتحويله عن منهاجه الشامل لكل ميادين الحياة، إلى صيغة نصرانية تفصل بين ما لقيصر وبين ما لله. وتقف عند خلاص الأرواح، وطقوس العبادات ومملكة السماء.

حتى تصبح دنيانا ملكا لقيصر الاستعمار الغربى الأوربى والأمريكى والصهيونى. وحتى يتم تجريد الإسلام من الطاقات المفجرة لروح الجهاد والتى تحث على تحرير الأرض والمقدسات والثروات من هذا القيصر الاستعمارى الجديد.

كانت هذه هى حقائق العلمانية ومقاصدها، والإسلام يرفضها رفضاً

(١) جريدة الاخبار المصرية فى ٥ مارس سنة ٢٠٠٤ ميلادية.

تاماً لأنها تتناقض مع مبادئه وأسسه.

وإذا كان الاستعمار بكل أشكاله وخاصة الاستعمار الفكرى قد نجح فى تخليق واستنساخ نفر من المثقفين العلمانيين فى بلادنا. الذين ضربت عقولهم فى مصانع الفكر الغربى، فغدوا يمثلون الامتدادات السرطانية للعلمانية الغربية فى بلادنا. حتى أصبح النموذج العلمانى الغربى هو القبلة التى إليها يولون وجوههم، والبوصلة التى تحدد لهم الاتجاه. فإن كثيرا من هؤلاء العلمانيين الغلاة قد تبنوا (الأجندة الغربية الاستعمارية) مع الدوائر الصهيونية انتظاراً للعودة إلى أوطانهم فى ركب الغزاة. كما حدث فى العراق.

وقد تركزت أفكار هؤلاء العملاء على القول بأن وحدة الدين ووحدة اللغة لا تصلحان أساساً للوحدة السياسية ولا قواما لتكوين الأوطان.

وساووا فى علاقة الدين بالدولة والسياسة بين الإسلام والنصرانية، ونظروا إلى الخلافة الإسلامية على أنها تحكم بالحق الإلهى المقدس.

وهى بذلك تذكرنا بكلمات المجاهد الإسلامى جمال الدين الأفغانى، والتى قال فيها: لقد علمتنا التجارب أن المتبلدين من كل أمة، المنتحلين أطوار غيرها، يكونون فيها منافذ لتطرق الأعداء إليها. وطلائع لجيوش الغالبيين وأرباب الغارات، يمهدون لهم السبيل، ويفتحون الأبواب ثم يثبتون أقدامهم.

فإسلامية الدولة، وإسلامية القانون، فضلا عن أنهما من فرائض الإسلام، فإنهما من معالم الاستقلال الحضارى للأمة الإسلامية.

وقد نشرت جريدة الشرق الأوسط يوم ٩ سبتمبر سنة ٢٠٠٣ ميلادية أن إدارة الرئيس جورج بوش (الابن) قد اعتمدت ميزانية سنة ٢٠٠٤ ميلادية مبلغ ١٤٥ مليون دولار لعلمنة التعليم فى العالم العربى، كجزء من مبادرة الشراكة الشرق أوسطية. والتى تريد الشرق الأوسط الكبير مجردا من الهوية العربية الإسلامية. أى علمانيا ليسهل إلحاقه بمركز الهيمنة الأمريكية الصهيونية.

كما أن الرئيس الأمريكى السابق ريتشارد نيكسون دعا فى كتابه (الفرص السانحة) والذى صدر فى ثمانينيات القرن الماضى، إلى إقامة تحالف (أمريكى - أوربى - روسى) فى مواجهة القومية العربية والأصولية الإسلامية وتطبيق الشريعة الإسلامية. وجعل الإسلام دينا ودولة.

كما دعا نيكسون هذا التحالف إلى تشجيع النموذج العلمانى التركى الأتاتوركى لأنه هو الذى يربط الشرق بالمركز الغربى سياسيا واقتصاديا.

فالعلمانية فى هذا الفكر الاستراتيجى الأمريكى عند (نيكسون) هى السبيل لإلحاق العالم الإسلامى بمركز الهيمنة الغربى والإدارة الغربية لكسر شوكة الاستقلال الحضارى لأمة الإسلام.

وذكرت مجلة (شئون دولية) والتى تصدر فى كمبردج بإنجلترا فى عدد يناير سنة ١٩٩١ ميلادية من أن سبب عداء الغرب للإسلام وإعلانه الحرب عليه - فور سقوط الشيوعية - هو اعتباره العدو البديل، والخطر الأخضر الذى حل محل إمبراطورية الشر الشيوعية.

وأن سبب كل ذلك هو استعصاء الإسلام على العلمنة، وامتلاكه صيغة إسلامية للتجديد والتقدم. ومن ثم فإن الإسلام - بحسب هذه الدراسة - هو العدو. لأنه هو الثقافة الوحيدة القادرة على تحدى الثقافة العلمانية الغربية، وذلك برفضه العلمانية الغربية، والحداثة الغربية والتى تنتشر فى كل العالم باستثناء عالم الإسلام.

كذلك ما كتبه المفكر الاستراتيجى الأمريكى (فوكوياما) بالعدد السنوى لمجلة (النيوزويك) الأمريكية فى ديسمبر سنة ٢٠٠١ وفبراير سنة ٢٠٠٢ ميلادية عن ضرورة إعلان الحرب داخل الإسلام، وذلك حتى يقبل الإسلام الحداثة الغربية، والعلمانية الغربية. والمبدأ المسيحى فصل الدين عن الدولة.

والتطور الأهم - كما يقول فوكوياما - ينبغى أن يأتى من داخل الإسلام نفسه. فعلى المجتمع الإسلامى أن يقرر فيما إذا كان يريد أن يصل إلى

وضع سلمى مع الحداثة الغربية، وخاصة فيما يتعلق بالمبدأ الأساسى حول الدولة العلمانية.

ومن كل ما سبق يتبين لنا أن أمريكا تخطط منذ زمن بعيد لضرب العالم الإسلامى وتمزيقه وفصل الدين الإسلامى عن الدولة.

وأن ما حدث فى ١١ سبتمبر لم يكن سوى ذريعة لضرب العالم الإسلامى فى قلبه من العراق، وتمزيق أواصله، حتى يسهل ابتلاعه، وتغيير مساره، والقضاء على كل أصول ومقومات دينه.

وأن المسألة بدأت مع نيكسون فى الثمانينيات فى وضع خطة التمزيق والتحويل. وأن أحداث ١١ سبتمبر ربما ـ كما قال البعض ـ مدبرة ومصطنعة وتخطيط يهودى صهيونى أمريكى لخلق ذريعة لاستعمار العالم العربى والاستيلاء على ثرواته وبتروله.

وقد تمكنت أمريكا من إقناع صدام حسين بشن حرب على إيران سنوات طويلة لكى تهدم كل قوة جديدة بها، ولتهدم أيضا قدرات العراق الحربية وموارده المالية ثم أغرته بضرب الكويت، حتى فعل، فوقع فى المصيدة وتجمع عليه العرب والمسلمون، لأنه يغتال دولة مستقلة ذات سيادة ومعترفا بها من الجامعة العربية والمنظمات الدولية ومن كل الدول الإسلامية.

وسقط صدام حسين.

والطريف أننا سمعنا تصريحاً غريباً فى شهر يناير ٢٠٠٤ ميلادية من أحد أعضاء مجلس الحكم فى العراق يهدد فيه الكويت بإعادة احتلالها، وكذلك الأردن.

وسقط هو الآخر فى الفخ الأمريكى لبذر بذور الشقاق فى الأمة العربية. وإدخال الرعب من جديد إلى أوصال أبناء الكويت حتى لا يفكروا يوما فى الاستغناء عن أمريكا فى المنطقة.

وتصبح كل الثروات العربية، والمقدرات العربية رهينة أمريكا ودورها الجديد الذى تلعبه الآن فى الشرق الأوسط الكبير.

فهل يعى غلاة الدعاة إلى العلمانية من أبناء الدول العربية ما تسعى إليه أمريكا، أم أنهم سيصبحون الأداة والطريق الذى يصل من خلاله النفوذ والاستعمار الأمريكى إلى الأمة الإسلامية. وتتحقق مقولة جمال الدين الأفغانى منذ أكثر من ١٥٠ سنة من أنهم يمهدون السبيل، ويفتحون الثغرات لجيوش الغزاة ثم يثبتون أقدامهم.

الأيام القادمة ستؤكد لنا مدى صحتها أو خطئها.

ويحضرنى هنا عبارة قالها ونستون تشرشل فى مذكراته عن الحرب العالمية الثانية وما دار فيها من أحداث. فقد قال: كان علينا أن ندافع عن الطريقة التى نعيش بها، وعن عاداتنا، وثقافتنا، وتاريخنا، ووجودنا كله.

والغريب أن تونى بلير رئيس وزراء بريطانيا استخدم ذات العبارة فى شهر مارس سنة ٢٠٠٤ وهو يدافع عن اشتراك بريطانيا مع أمريكا فى غزو العراق ويبرر إقدامها على هذه الخطوة. رغم أن ألمانيا وفرنسا رفضتا ذلك.

وكانت المعارضة قد شنت عليه هجوما شديدا باعتبار أنه أقحم بريطانيا فى حرب لن تستفيد منها كثيرا وسوف تغنم أمريكا وشركاتها أكثر من ٩٠ ٪ من ثروة العراق وبتروله.

ونجد صدى المزاعم الأمريكية بإنشاء شرق أوسط كبير تحت سيطرتها، قد أثر على كل الكتاب والأدباء فى مصر والعالم العربى.

وأختار هنا نموذجا واحدا للكاتب أنيس منصور نشره يوم ١٤ مارس سنة ٢٠٠٤ فى جريدة الأهرام قال فيه:

شرعت أمريكا فى فتح مدرسة لمحو الأمية السياسية فى الشرق الأوسط الذى اختارت له اسما جديدا هو (الشرق الأوسط الكبير) الذى

يضم الدول العربية مضافا إليها الدول الإسلامية: إيران وأفغانستان وباكستان والدولة العبرية إسرائيل.

الدرس الأول: ما هى الديمقراطية؟. والدرس الثانى: ما هو الإرهاب؟. والدرس الثالث: ما ضرورة الجامعة العربية؟ والدرس الرابع: ما هى الحقوق التاريخية المزعومة لمصر فى مياه النيل؟.

أى أننا لانعرف الديمقراطية، أو أن القدر الذى نعرفه منها ليس كافيا لأن نكون شعوبا حرة.

ونقص الحرية فى بلادنا كان سببا فى ظهور الإرهاب الإسلامى، أو الإرهاب باسم الإسلام.

ومن حقنا أن نسأل، إن كانت الديمقراطية الأمريكية هى المثل الأعلى. فأمريكا هى التى اخترعت (بن لادن) ليكون سلاحا ضد السوفيت الملحدين.

ولما انسحب السوفيت وانهارت الدولة السوفيتية، انتهى دور (بن لادن). واتجهت إلى القضاء عليه وعلى كل من كانت له صلة به. كل ذلك باسم الديمقراطية الأخلاقية محور الخير فى هذه الدنيا ثم لا تسمى موقفها من الدول الإسلامية حربا صليبية، مع أن الرئيس بوش هو أول من استخدم هذا التعبير. وأمام الغضب الإسلامى فى كل الدنيا، والتخوف المسيحى، قال: إنها غلطة وقع فيها. فهى ليست حربا صليبية، وإنما هى حرب هلالية. أى بين الهلال والهلال، أو بين المسلمين والمسلمين، أو هى حرب هلالية نجمية. أى بين الهلال ونجمة داود.

ولكن أى إنسان يعرف مبادئ التحليل النفسى لفرويد يدرك أن الغلطة التى وقع فيها الرئيس بوش هى أصدق ما قال، فلم يفلح فى إخفائها.

فانكشفت، وانكشف.

والديمقراطية التى عند الأمريكان تختلف عن ديمقراطية الإنجليز

التى جعلت من تونى بلير رئيس الوزراء رئيساً جمهوريا للملكة المتحدة. وأنه حاكم فرد. وأنه شمولى.

وكان هذا رأى زملائه فى حزب العمال، ورأى خصومه من المحافظين.

وتبقى بعد ذلك كله، الديمقراطية الدموية فى إسرائيل. ولابد لنا أن نرفع أيدينا من أول لحظة فى الحصة الأولى، ونسأل البروفسير (بوش): أى هذه الديمقراطيات تختار لنا يا سيادة الرئيس؟

ومن المؤكد أن بوش سوف يختار الديمقراطية التى تحقق لإسرائيل وأمريكا، كل السيطرة على المقدرات والثروات العربية والإسلامية.

وقد نجح حتى ساعة إعداد هذا الكتاب فى شهر مارس ٢٠٠٤ فى وضع يده على كثير من الدول العربية والإسلامية.

وهناك دول عربية وإسلامية، استسلمت للمبادرة الأمريكية وللشرق الأوسط الكبير دون إعلان منها، وإنما قبلت الأمر فى هدوء، وكأنه أمر واقع، وحتى لا يحدث لحاكمها ما حدث لصدام حسين.

ونشرت الصحف الأمريكية مقالات لبعض كتاب يهود ومسيحيين متعصبين يدعون فيها إلى احتلال كل الدول العربية والإسلامية، وإدخال الدين المسيحى فيها بالقوة، للقضاء على حالات التخلف الأخلاقى، والتعصب الدينى الإرهابى الذى يسيطر على العالم الإسلامى. ولكى يتم إنقاذه من بئر التخلف إلى الحضارة المسيحية الحديثة.

كما طلب بعضهم - ومن بينهم عدد كبير فى الكونجرس الأمريكى - بتغيير القرآن الكريم وإلغاء بعض آيات منه كى تتمشى مع مقتضيات العصر الحديث.

وهم بذلك معذورون، ذلك أنهم يقومون بتغيير آيات الإنجيل، حسب الهوى والغرض. ولا مانع من إلغاء آية وإحلال أخرى محلها، تناسب ظروف هذه الأيام.

وأنقل هنا للقارئ مقالاً نشر فى جريدة الأهرام يوم ١٥ مارس سنة ٢٠٠ بتوقيع كمال متولى.

يقول: منذ بضع سنوات كنت ألفت نظر ابنى محمود إلى شىء، ونحن فى محل (بكنجز بلازا) فى ضواحى نيويورك، وسمع الاسم رجل فى منتصف العمر، فتقدم منا مستفسراً، هل أنتم من مصر؟.. فأجبته بالإيجاب فرحاً بعبق الوطن. ودار الحديث، وفهمت منه أنه مسيحى صيدلى له إقامة دائمة فى الولايات المتحدة الأمريكية. لكنه متردد فى الحصول على الجنسية الأمريكية التامة له ولأسرته. ويفكر جدياً فى العودة وأسرته إلى مصر، حيث الدين الصحيح. مفسراً أسباب التردد والرغبة فى العودة لأن له بنتاً وأولاداً فى سن المراهقة. وقد صدمت أسرته بدءاً بابنته فى مدرستها، حيث طلبت مدرسة الفصل من التلميذات التعبير عن الشذوذ الجنسى، وأجابت الابنة بما رسخ فى وجدانها فى وطنها الأصلى قائلة إنه محرم طبقاً لأحكام الشريعة المسيحية.

ففوجئت بثورة عارمة من المدرسة، تتخللها ألفاظ السخرية من جهل الفتاة، اتبعتها بسؤال عن مصدر ما كتبته، وأجابتها البنت فى براءة بأنه الكتاب المقدس.

فعادت المدرسة إلى ثورتها متسائلة أى كتاب مقدس؟ دافعة إليها بكتاب مقدس أمريكى يسمح بالشذوذ الجنسى، بل ويسمح بالعلاقة بين الفتاة وأبيها!!.

بهتت الفتاة، وعادت إلى أبيها فى محاولة استجلاء ما جهلته. فوجدته على ذات حالها من الجهالة بالكتاب المقدس التى دفعت به إليها المدرسة.

وعزت على الرجل نفسه، فاستفسر من الجيران وزملائه فى العمل، مع علمه أن الدين من الخصوصيات التى لا يسأل فيها أو عنها.

فجاءته الإجابة بأن هنا فى أمريكا عدداً من الكتب المقدسة، وأن لأساقفة بعض الأبرشيات حق الإضافة والحذف فى الكتاب المقدس بناء على طلب بعض شعب الكنيسة ليتوافق معه.

ولاحظ محدثى دهشتى، وقبل أن أسأله بادرنى بنصحى بالتوجه إلى شارع (برود واى) بالقرب من ميدان (كولومبس). ولم أتردد. وذهبت من فورى إلى هذه الدار فوجدت أنها تحوى أعداد كبيرة من نوعيات مختلفة من الكتاب المقدس.

واسترجعت ثقافة البساطة فى تعديل الكتاب المقدس طبقاً لرغبات بعض شعب الكنيسة فى أمريكا وهم مصدر دخل راعيها. وأنا أتابع الأصوات المرتفعة فى أمريكا والمنادية بتعديل آيات القرآن الكريم، بحذف بعض منها. كما جاء على لسان كثيرين منهم: روبرت دونان المرشح الجمهورى لمجلس النواب، وهو يخطب أسفل النصب التذكارى لإبراهام لنكولن هذا الشهر، مطالباً بإعادة كتابة القرآن!!

ومن قبله مسئولة أمريكا (إلينا رومانوفسكى) وهى تروج للمبادرة الأمريكية فى الشرق الأوسط، مطالبة بإزالة جميع النصوص السلبية!!

ثم يقول القارئ: وبينى وبين نفسى قلت: لا بأس. وصدق رب العزة إذ يقول: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا﴾ (النساء: ٨٩) وإذ يقول أيضاً: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر: ٩). وأنعم به عليماً هادياً وحافظاً.

ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

وفى الواقع لم تدهشنى رسالة القارئ العربى المصرى، ذلك أننى سمعت حكايات مشابهة من بعض رجال الدين المسيحى والذين تبعث بهم الكنيسة المصرية إلى أمريكا من أجل تنشيط الناحية الدينية المسيحية عند المهاجرين المصريين المسيحيين قالوا إن كثيراً منهم قد تشبعوا بالعادات الأمريكية، ولم يتقبلوا الحديث عن الأخلاق والعلاقات بين الشاب والفتاة

وأنها محرمة وزنا. وهربوا منا، فلم يكن أمامنا سوى التحدث فى القيم العامة، ولا شئ غير ذلك، ونحن نشعر بالحسرة والندم على ما يجرى من تغيير شديد بين الجيل الجديد من أبناء المهاجرين المسيحيين هناك. وقد أصبحوا كالأمريكان فى كل شئ. حتى فى الديانة المسيحية.

وهذا ما تريده الآن أمريكا من العرب والمسلمين، أن يغيروا كل شئ القرآن الكريم والأخلاق والمبادئ والقيم. باعتبار أنها موروثات قديمة عفا عليها الزمن ولابد من التطور والتقدم - كما قال الرئيس الأمريكى بوش - وهو يصف حال الأمة العربية والإسلامية.

ولأن أمريكا قد استقرت الآن - وإلى أن يفرجها الله - فى قلب الشرق الأوسط وعلى حدود مصر. فقد شجعت كثيراً من الدول العربية على أن تعقد معها حلاً منفرداً يلبى طلباتها ويحل مشاكلها، بعيداً عن مصر ورقابتها.

فمعظم المفاوضات الفلسطينية قد تمت فى أوربا، ومن وراء مصر، ولم تنته إلى حل سعيد.

ومشاكل السودان، واستقلال الجنوب عن الشمال، تم كل ذلك بعيداً عن مصر فى كينيا.

فماذا قالوا؟.. وماذا فعلوا؟.. وبماذا وعدوا؟

الله أعلم.. فلا حس ولا خبر. حتى ينتهى الأمر وتحصل أمريكا على ما تريد، وما أراده الاستعمار الإنجليزى منذ مئات السنين من مصر، وهو تقسيم السودان إلى دولتين.

وقد سبق لإنجلترا عند احتلالها لمصر أن عرضت عليها ضم شمال السودان بالكامل إلى أراضيها على أن تقام دولة مستقلة فى جنوبه.

ورفضت أحزاب مصر ذلك وحكوماته وحتى الملك فاروق رفض، ووضع

اسمه على طوابع البريد والمعاملات الرسمية (ملك مصر والسودان).

وعندما عرض الأمر على جمال عبد الناصر وأعضاء مجلس قيادة الثورة، سارع زعماء الأحزاب فى مصر وعلى رأسهم النحاس باشا رئيس حزب الوفد، وطلب من عبد الناصر عدم الموافقة على ضم شمال السودان فقط، أو إجراء انتخابات به لاختيار الوحدة أو الانفصال، كما عرض عليه الإنجليز. وقالوا إن مصر والسودان وطن واحد منذ أيام الفراعنة، ولم يفصلهم شىء.

وقبل عبد الناصر إجراء الانتخابات.

ونجحت إنجلترا فى فصل السودان عن مصر. كما نجحت أمريكا فى فصل جزيرة تيمور الشرقية عن أندونسيا، وكما يتم الآن من خطوات هادئة لفصل جنوب السودان عن شماله، ليتحقق لهم ما أرادوا ـ ولم يستطيعوه ـ من مئات السنين.

أسئلة سوف تكشف السنوات القادمة عن الإجابة عليها، لتتضح الحقيقة. وإن كان ما يحدث وما سيحدث يكشف نفسه.

ولكن السؤال الأهم الآن.. ما معنى أن تحدث مفاوضات واتفاقات مع جيران مصر، وأعز أشقائها، دون علم منها، لا هى قالت ولا الأشقاء قالوا!!

وفى الوقت نفسه طاشت كلمات من دول حوض نهر النيل تقول: إن مصر تأخذ من الماء أكثر مما يجب.

فهل هى حركة سرية أمريكية إنجليزية لتمزيق العالم العربى فى هدوء، كما فعلوا مع الاتحاد السوفيتى من قبل..؟!!

من المؤكد أنها كذلك، وقد نجحوا مع بعض الدول وسوف ينجحون فى المستقبل مع آخرين.

وأما الشعوب العربية فليس لها إلا الله وحده وإرادتها إن أرادت أن تعيش.

ومرة أخرى تعود إلى الذاكرة عبارة ونستون تشرشل رئيس وزراء إنجلترا فى الحرب العالمية الثانية والتى أوردها فى مذكراته: من أننا يجب أن ندافع عن حياتنا، وما نؤمن به وتاريخنا، وثقافتنا، وعن الطريقة التى نعيش ونحيا بها.

فكل ذلك يشكل كياننا ووجودنا. فإذا لم ندافع عنه أصبحنا أثراً بعد عين، وتاريخاً مضى وانتهى. وأناساً كانوا هنا ثم ذهبوا.

وأمة كانت خير أمة أخرجت للناس.

* * *

الفهرس

كتب للمؤلف

- مكائد النساء فى حياة الرسل والأنبياء «دار الأحمدى للنشر».
- تاريخ الإرهاب فى العالم. «دار الأحمدى للنشر».
- الرأى الآخر فى الإسلام. «دار الأحمدى للنشر».
- الأمثال فى الأديان السماوية. «دار الآفاق العربية».

دار الصفوه للطباعة
٠١٠/٥٦٥٩٤٨٤ ـ ٣٢١٤٥١٥

العلاقات الزوجية

هذا الكتاب يضم دراسة مقارنة للعلاقات الزوجية فى الأديان السماوية. وكيف تعمل العلاقة السليمة على دعم الأسرة ودعم علاقة الزوج بزوجته، والزوجه بزوجها، ذلك أن العلاقة الزوجية الصحيحة والسليمة هى التى تؤدى إلى بناء مجتمع سليم، ومواطن سوى صحيح.

وهذا الكتاب دعوة لرجال الدين الإسلامى والمسيحى كى يواجهوا مشاكل الشباب وأن يعملوا على حلها، ويكفى أن المرأة المسلمة حرمت من حقها فى (خلع) زوجها أكثر من ١٤٢٠ سنة رغم أن النبى عليه الصلاة والسلام أجازه وأقره وعمل به.

كما أن المرأة المسيحية محرومة من حق الطلاق رغم أنه معمول به فى كل دول العالم المسيحى تقريبا.

وأمام تطورات الحياة لم يعد من المقبول رفض أنماط الزواج الجديدة التى إستقر عليها الشباب وكل ما علينا أن نحاول إدخالها فى عباءة الدين لنضفى عليها الشرعية ويكفى أن فى مصر اكثر من تسعة ملايين بنت مسلمة ومسيحية عانس، وهو خطر عظيم وقنابل موقوته يمكن أن تفجر المجتمع كله وتقضى على الصالح والطالح.

وحذار حذار من ثورة الشباب وغضبه، حتى لا يفرض علينا فى المستقبل ما نرفضه اليوم.

إنها صيحة فى البرية عسى أن تصل إلى رجال الدين كى يجدوا حلا يرضى الشباب ويعمل على بناء مجتمع سليم.

W.Salama 010 15 17 873

I.S.B.N. 977-376-137-1

9 789773 761370

دار الكتاب العربي
دمشق - القاهرة